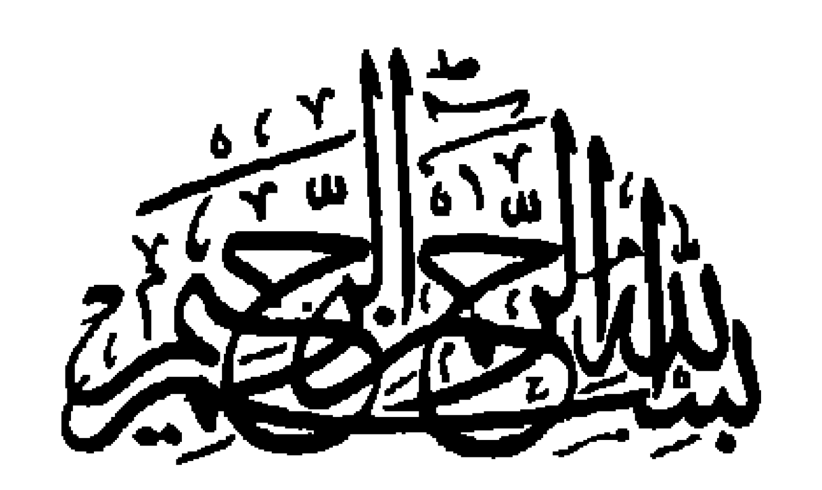
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

فَيْصَل جَلّول

مِصْر بِعُيون الفَرَنْسِيس

بحث في أصول الثقافة السياسية العربية

مصر بعيون الفرنسيس



مصر بعيون الفرنسيس

بحث في أصول الثقافة السياسية العربية

فيصل جلول



الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-87-039-X



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويـــات

الباب الرابع

هزيمة حزيران

الباب الخامس

سيرة الريس

الباب السادس

غضب المحبين وغضب المتضررين

خاتمة

الإهداء

إلى نايلة وحلا وميسة

تمهيد

يبحث هذا الكتاب في آليات وطرق تكوين الثقافة السياسة في العالم العربي انطلاقا من مصر التي شكلت خلال القرون الثلاثة الماضية قطبا جاذبا للعالم العربي قبل أن تكبلها اتفاقيات كامب ديفيد ابتداء من الربع الأخير من القرن الماضي بقيود همشت دورها وموقعها العربي المركزي.

ينطوي الكتاب على قسمين كبيرين. الثاني يضم نصوصا مترجمة عن الفرنسية تشمل حملة نابليون بونابرت على مصر باعتبارها حدثا تأسيسيا في تكوين الثقافة السياسية المصرية والعربية، وحريق القاهرة الذي بدا وكانه المؤشر الأول في الانتفاضة المصرية والتمرد على الخضوع للغرب وحرب السويس عام 1956 التي ستطلق الناصرية بوصفها حركة تحرر عربية ذات بعد عالمي ومن ثم حرب حزيران - يونيو عام 1967 التي انتهزت لتدمير الناصرية والعودة بمصر والمصريين والعرب إلى ما قبل التحرر وإرغامهم على الانتظام مجددا في موازين قوى عالمية واقليمية مبنية على هرمية حضارية تأسست منذ الحملة الفرنسية وأخيراً ينطوي الكتاب على سيرة فرنسية لناصر في نص يقتفي أثره منذ نشأته وحتى وفاته وعلى نص صغير يطرح سؤالا عن مصير الناصرية بعد وفاة مؤسسها.

ليست هذه النصوص مقدسة على الرغم من القدر العال من الموضوعية التي ميزت بعضها لذا كان لا بد من مساءلتها ومساءلة الذات عبر نصوص موازية ونقدية يجدها القارئ في ابواب مستقلة مع الاشارة إلى أن هوامش النصوص المترجمة والنصوص الموازية كلها من وضع المؤلف وكذلك الاختيار والترجمة التي تمت خلال سنوات متفرقة.

أما القسم الأول من الكتاب فهو يبحث في عناصر الخضوع والممانعة في الثقافة السياسية العربية انطلاقاً من المركز المصري واستنادا إلى مسلّمة تفيد أن الاصل في تخلّف العرب وتقدّم غيرهم يكمن في الثقافة السياسية.

أخــــيراً لابد من توجيه الشكر للاصدقاء الذين ما انفكوا يحثون على اصدار هـــذا الكتاب ما ان علموا بمشروعه، وبصورة خاصة صحبة المؤتمر القومي والمؤتمر الاسلامي والصحافيين والكتاب الذين تعودت لقائهم في مناسبات مهنية في العالم العربي واوروبا.

يبقـــى الـــشكر للاستاذ بشار شبارو صاحب الدار العربية للعلوم الذي صبر طويلا ودون تذمر على انجاز هذا الكتاب منذ عرض عليه الفكرة صديقنا المشترك العزيز أحمد منصور مشكورا بدوره على حماسه وتشجيعه.

القسم الأول

في أصول الثقافة السياسية العربية: عناصر الخضوع والممانعة

فيصل جلول

"ما انـــزل بالإسلام والمسلمين وبالعروبة والعرب مثل هذا الهوان إلا الدول التي وسمت نفسها بالديموقراطية ولا استعبدهم إلا الزاعمون أنهم أنصار الحرية، فعلى المسلمين عموماً والعرب خصوصاً إذا أرادوا الاستشفاء من مرضهم أن يحسنوا تشخيصه"

الأمير شكيب أرسلان[1]

بريطانيا العظمى وأنت شهيرة... وعندك طبعاً يجمل الحمد والشكر

عهدناك للإسلام أكبر دولة... عهدناك والعمران دينك والبر

الشيخ علي الريماوي[2]

بني التايمز قد فزتم... وبالإنقاذ قد جئتم

بلاد القدس شرفتم... فأهلا أينما بتم

وسهلا فيكم أجمع

اسكندر الخوري[3]

---

(1) ذكر الأمير شكيب أرسلان هذه الفقرة في كتاب "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟" وقد نشر بخطه وتوقيعه في جنيف غرة محرم الحرام 1944/1356.

(2) انـــشد الشيخ علي الريماوي هذا الشعر في ذكرى السنة الأولى لاحتلال بريطانيا القدس في 9 كانون الثاني عام 1917. يجدر التذكير بأن الريماوي والخوري وغيرهما كانوا ضحية وعي نشره المستعمرون الذين قدموا غزوهم بوصفه عملا حضاريا يرمي لنشر الحرية والتقدم والديموقراطية بمواجهة الاستبداد التركـــي. المشكلة أن عرب فلسطين صدقوا هذه المزاعم بعد ثلاثة أرباع القرن من احتلال الجزائر، وصدّقها اليوم بعض عرب العراق بعد أكثر من ثلاثة أرباع القرن على احتلال القدس. تبقى الإشارة إلى أن المقتطفات الشعرية الثلاثة عثرت عليها في دراسة مهمة منشورة على الشبكة العنكبوتية بعنوان "الإنجليز في الأدب الفلسطيني" وقد أضعت اسم مؤلفها الذي يستحق اعتذاري.

(3) قال اسكندر الخوري هذا الشعر يوم قدم الإنجليز إلى القدس.

يلاحظ مؤلف الدراسة المذكورة أن الشعر الفلسطيني اختلف تماماً بعد اتضاح أهداف الاحتلال الـــبريطاني فكانـــت للريماوي والخوري أشعار مختلفة، وكان لآخرين أشعار تعكس الإحساس بالغدر والخيانة على غرار هذه الأبيات للشاعر عبد الرحيم محمود من قصيدة وعد بلفور.

رجحـــت مـــوازين الحلـــيف ومن نكن	معـــــه يـــــرجح بالعظـــــيم الأكثـــــر
وبـــنت لــــه أســـيافنا صرحا فلـــم	يحفـــظ جمـــيل العـــرب، يـــا للمنكـــر
غـــدر الحلـــيف، وأي وعـــد صـــانه	يـــــوما وأيـــــة ذمـــــة يخفـــــر
لمـــا قـــضى وطـــرا بفـــضل ســـيوفنا	نـــسي الـــسيد البيـــضا ولم يتذكـــر

احـــتلت مـــصر في القرن الثامن عشر موقعا استراتيجيا على خطوط التجارة العالمـــية المنبـــثقة عن الثورة الصناعية في أوروبا. جعلتها طريق الهند محطة أساسية للـــتجار الغربيين وهدفا لمطامع الامبراطوريات الأوروبية الاستعمارية المتنافسة على آســـيا وأفـــريقيا بعد أن خسرت مستعمراتها الأميركية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخصوصا بعد انتزاع الولايات المتحدة استقلالها من العرش البريطاني.

ازداد الموقـــع الاستراتيجي المصري أهمية في القرن التاسع عشر مع إنشاء قناة السويس التي اختصرت طرق المواصلات التجارية وسهلت استعمار إفريقيا والشرق الأوســـط. لكن مصر الجمهورية ستلعب دوراً أساسيا في النصف الثاني من القرن العشرين عبر مساهمتها في تحرير المناطق المستعمرة في العالم العربي وإفريقيا، وتاليا في القضاء على الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية وستشكل سدا قويا أمام استكمال المشروع الصهيوني النازع لإقامة إسرائيل الكبرى بعد تأسيس إسرائيل الصغرى.

في هذه السيرورة تحولت مصر وبصورة تدريجية إلى مركز لإعداد النخب العربية والإســـلامية التي كانت تتأهل في الأزهر والجامعات المصرية أو في المراكز التربوية الغربية التابعة للبعثات التبشيرية والمؤسسات الغربية التي انتشرت في المشرق العربي علـــى نطـــاق واسع في القرن التاسع عشر، مستفيدة من ضعف السلطنة العثمانية العاجزة عن الرد على تحديات النهضة الأوروبية.

يمكـــن القول إجمالا أنه كان على مصر خلال ثلاثة قرون أن تلعب إلى هذا الحد أو ذاك دور القطب الجاذب للعالم العربي وهو دور كانت تتقاسمه من قبل في ظل الدولة الفاطمية مع بغداد عاصمة الخلافة العباسية وحواضر الطوائف الأندلسية في العالم الإسلامي.

من هذا الموقع حلت القاهرة بالنسبة للعرب وقسم كبير من المسلمين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين محل بغداد ودمشق اللتان تمشتا إلى عواصم مهمشة خربة في ظل السيطرة التركية، تدور في فلك القسطنطينية مركز الخلافة وبعيداً عن العالم العربي الذي فقد منذ أواخر القرن الخامس عشر آخر مراكزه الدولية النافذة مع سقوط غرناطة.

أعـــادت مـــصر الـــروح للعرب بعد تهميش امتد لقرون أربعة ساد خلالها العثمانـــيون العالم الإسلامي، ستكف عن أداء دور مركزي في المنطقة العربية منذ الـــربع الأخير من القرن العشرين في عهد الرئيس الراحل أنور السادات الذي وقع سلاما منفردا مع إسرائيل استعاد خلاله شبه جزيرة سيناء مقابل انسحاب جوهري مـــن الصراع العربي الإسرائيلي، أي التخلي عن دور القطب الجاذب للعالم العربي والإسلامي[4]. وتشهد مصر اليوم سياسة خارجية عموماً وعربية خصوصاً محكومة باتفاقهـــا الاســـتراتيجي مع إسرائيل والولايات المتحدة وبالتالي انحسارا على كل صـــعيد وقوقعة تترافق مع صدور دعوات فرعونية وأخرى تتنصل من تاريخ عربي إسلامي طويل ونـــزعة مصروية ضئيلة لا تتناسب قطعا مع موقع وحجم ومصالح هذا البلد ومع تاريخه وحاضره ومستقبله.

إذا كان صحيحاً أن التقوقع المصري ناجم عن ميزان قوى دولي وإقليمي قاهـــر للعرب وكابح لطموحاتهم وملائم لأعدائهم وبخاصة للكيان الصهيوني، فالـــصحيح أيـــضاً انه يعبّر عن تراكم ثقافة سياسية تنطوي منذ حملة نابليون بونابـــرت علـــى عناصر خضوع تجمعت على مر السنين وأصبحت راسخة في اللاوعـــي المـــصري (و العربي) مقابل عناصر ممانعة جدية ما برحت تظهر في صفوف قسم وافر من النخب السياسية والأدبية والشطر الأكبر من الرأي العام منذ الحملة نفسها.

والـــثابت أن شـــعورا بالإحباط إزاء الانحسار المصري ما انفك يسود العالم العربي منذ ربع قرن لم تفلح خلاله بغداد ودمشق البعثية أو طرابلس الغرب القذافية أو بـــيروت العـــرفاتية في السبيعينات وأوائل الثمانينات، أو الجزائر البومدينية في تعـــويض الـــدور المصري أو خلافته منفردة ومجتمعة ما أدى إلى أن يفتقر العرب ومازالـــوا يفتقـــرون إلى مركز تدور حوله حركتهم السياسية ويتحدد من خلاله

---

(4) كانت حرب أكتوبر عام 1973 نصرا جزئيا على إسرائيل لكنها انتهت إلى هزيمة سياسية تمثلت في اتفاقيات كامب دايفيد. ودخلت بعدها مصر مرحلة تمصير السياسة الخارجية والداخلية على حد سواء. إن النتيجة الأبرز لهذه الحرب هي وصول التجربة القومية بصيغتيها البعثية والناصرية إلى طريق مسدود.

مـــستقبلهم السياسي ومعنى ذلك أن الثقافة السياسية السائدة في هذا البلد عدا عن كونها مسألة مصرية هي عربية في الصميم.

إن تـــسليط أضواء كاشفة على بعض أبرز مكونات الثقافة السياسية في مصر في وجهيها الخاضع والممانع ربما من شأنه أن يزودنا بتفسيرات تقريبية لحال الثقافة الـــسياسية في العـــالم العربي برمته، وتاليا بتوصيف واقعي للبؤس السياسي الذي يضرب بقوة عرب هذه الأيام وصولاً إلى تحديد عناوين لثقافة سياسية مختلفة.

في وصف البؤس السياسي

عـــندما نـــولي أهمية حاسمة للثقافة السياسية في العالم العربي في سياق التطلع إلى نهـــضة عربية شاملة فإننا ننطلق من مسألة بديهية في حياة الشعوب والأمم يتحدد من خلالها مصيرها فإذا كانت هذه الثقافة طموحة وحيوية ومستقبلية ومعاندة للخضوع والاستسلام وفخورة ونهضوية كان المصير على هيأتها، وإذا كانت مبنية على الإذعان ومـــركبات النقص وعفوية ومدججة بالمفاهيم الخاطئة كان المصير أيضاً على صورتها ذلـــك أن مـــا يبنى في العقول هو الذي يحرك البشر ويحدد خياراتهم. فماذا في العقول العربية اليوم أو الأصح ما هو الشائع عند بعض العامة هنا وهناك في العالم العربي؟

قـــد نـــسمع في لحظـــة غضب أو في مناسبات مأساوية عبارات وأحكاما إستصغارية من نوع "العرب جرب" أو "اتفق العرب على ألا يتفقوا" أو ".. العرب يدمرون العمران" أو "العرب ظاهرة صوتية" أو "العرب أمة مهووسة بالمؤامرة" أو "الأمـــة العـــربية اختراع بعثي". وقد نسمع أيضاً أحكاما من غير العرب لا تقل استخفافا بهم من نوع: "العرب يهربون لحظة إطلاق الرصاصة الأولى في الحرب مع أعدائهم" أو "لسنا كالعرب حتى نهرب قبل بدء المعركة" أو ".. العرب لا يفهمون إلا لغـــة العـــصا" كما يردد المستشرق برنار لويس أو "العرب كالصراصير يجب التصدي لهم بالمبيدات" بحسب حاخام صهيوني أو "يتوجب منع الرقص الشرقي – العـــربي لأنـــه ينتمـــي إلى ثقافة منحطة" بحسب حاخام آخر هو موشيه عامي أو "العرب ينتمون إلى حضارة متخلفة" بحسب سيلفيو برلسكوني... الخ. عندما ترد هذه الأقـــوال على لسان العرب وعلى السنة غيرهم فإنها تعكس قدرا مهولا من السذاجة

والاستخفاف بالذات العربية وتقديرا بائسا يملي رؤوسا مطأطئة يسهل تحريكها في الاتجاهات الهابطة وبالتالي حمل أصحابها على الرضا بمرتبة دونية بين البشر.

وحتى لا يبدو أننا نجنح إلى التبسيط لا بد من تفسير لهذه الأوصاف والأحكام القـذرة الـتي لا نستحقها قياسا بحضارتنا وأدوارنا التاريخية التأسيسية على كل صعيد. ليس لأمة كأمتنا كانت ذات يوم تحكم أكثر من نصف العالم أن تردد عن نفسها هذا النوع من الأوصاف الاحتقارية أو أن تقبل بأن يرددها الآخرون، ولأنها تـردد ذلك لا بد من تفسير، وللبحث عنه لا بد من العودة إلى الوراء أي إلى ما نفترض أنه بدايات الرضوخ والانحدار.

مصدر البؤس السياسي العربي

لـيس مصدر الخضوع في الثقافة السياسية العربية راهنا أو حديث العهد، إنه ممتد في تاريخنا خلال الألفية الثانية الأمر الذي يستوجب بعض الإحاطة والتظهير.

في العام 1930 تلقى العلامة النهضوي محمد رشيد رضا رسالة يقترح صاحبها أن يرد الأمير النهضوي أيضاً شكيب أرسلان في مجلة "المنار" على سؤال مصيري: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟ مختصر الرد الأرسلاني أن المسلمين تقدموا بواسطة الإسلام وتخلفوا عندما أهملوا واسطة تقدمهم. هذا الإهمال ماثل في وجوه عديدة منها أن الكثير من نخب المسلمين وحداثييهم بخاصة كانوا وما زالوا يعتبرون التخلي عن الإسلام شرطا للتقدم. لدحض هذا الحكم يبرهن الأمير الدرزي اللبناني علـى أن كـل المتقدمين في الغرب لم يتخلوا قيد أنملة عن أديانهم ومعتقداتهم التي شـكلت خلفـية لهـذا التقدم. ويقارن حضور الإسلام بين المسلمين – كوسيلة حضارية وليس كواجبات دينية فحسب – بعجز شعري لطرفة بن العبد".. كباقي الوشم في ظاهر اليد". للقول أن ضعف الحضور الإسلامي في ثقافة المسلمين يفسر منطقيا تخلفهم عن غيرهم طالما أن الإسلام نفسه يقدم تفسيرا لتقدمهم على غيرهم خلال قرون طويلة.

كان العرب في عصر الأمير الأرسلاني يكافحون من أجل البقاء حيث تتعرض أراضـيهم للاستيطان الأجنبي والتنصير في الجزائر بخاصة وشمال إفريقيا عموماً وفي

فلسطين، وكان مصيرهم في عرف المستوطنين محكوما بمصير الهنود الحمر من سكان أميركا الأصليين وكان لا بد من مواجهة هذا المصير بنهضة جديدة كانت دفاعية رأى أرسلان بشائرها في مشروع سكة الحديد بين الشام والحجاز وفي النظام الأمني الذي أقامه الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية وفي مبادرة بنك مصر والمشاريع الرائدة التي أطلقها طلعت حرب في القاهرة وامتدت إلى سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فضلاً عن مبادرات أخرى مماثلة. وعلى الرغم من أهمية الأمثلة النهضوية التي يشير إليها فإن التجربة المصرية تستحق وقفة قصيرة لما تسلطه من أضواء على واقعنا الراهن.

كان طلعت حرب نموذجا للنهضوي الذي يتطلع إليه الأمير اللبناني. فهو شخصية متدينة يتمتع بوعي تاريخي وبادراك عميق لعناصر القوة والضعف في عصره ومسكون بإرادة قوية في امتلاك ناصية التقدم المفيد لمصر وللأمة العربية. في ضوء هذه القناعة حوّل رأس المال إلى وسيلة إنتاج قومي حين كان غيره ينظر إليه بوصفه وسيلة تراكم ريعي شخصي عابر للمكان والزمان، ولعل مصر تدين لهذا الاقتصادي النهضوي حتى اليوم بالسينما الوحيدة في العالم العربي وبالكثير من المنجزات الصناعية الأساسية فضلاً عن بنك مصر بطبيعة الحال.

لم يكن بوسع طلعت حرب أن يصنع منفردا ربيع العرب والمسلمين فكان أن قهرته ثقافة الخضوع المتراكمة كما ستقهر من بعد المشروع النهضوي الناصري.

المؤسف أن تجربة طلعت حرب لم تتحول إلى ظاهرة عامة بل ظلت مثالا فرديا يؤكد على أمثلة مشابهة في التاريخ العربي منذ العصر العباسي وهي أشبه بتجربة الخليفة المأمون صاحب مشروع المناظير الفلكية الشهيرة، فمنذ هذه التجربة كانت شخصيات عربية مسلمة تلمع منفردة دون أن تتحول إلى مدرسة جديرة بالانتشار كما يلاحظ المستشرق المنصف لويس يونغ في كتابه الشهير "العرب وأوروبا"[5] ما يعني أن شرط النهضة يكمن ليس في تكوين حفنة من النهضويين المعزولين وإنما في ثقافة نهضوية عامة محمولة من سلطة سياسية تضع حدا لقرون من

(5) لويس يونغ "العرب وأوروبا" ترجمة عبد السلام العجيلي. دار الطليعة بيروت.

ثقافـــة الخضوع والتقوقع العربية. لكن قبل التوسع في الحديث النهضوي لابد من استكمال البحث في أحد أبرز جذور الانحدار العربي البعيدة.

فصل علوم العرب عن علوم الأجانب

يلاحظ لويس يونغ محقا في كتابه المذكور أن قضاة المسلمين اتفقوا على فصل علـــوم العرب عن علوم الأجانب مطالع الألفية الثانية وان هذا الفصل ألحق أذى كـــبيراً بالحضارة العربية الإسلامية، والبادي أن هذا الأذى ما برح ممتدا حتى يومنا هـــذا ذلـــك انـــه وضع اللبنة الأولى لعزل الإسلام والمسلمين عن محصلة تجارب الأجانـــب أي غير المسلمَين. لقد حقق إنعزاليو الإسلام حينذاك انتصارا رجعيا ما زلنا ندفع ثمنه حتى اليوم.

يعـــرف المختصون بالفقه والفلسفة وقد صرف بعضهم عمرا مديدا في تظهير تلـــك المرحلة [6] تفاصيل الجدل الذي تم بين العلماء المسلمين حول العقل والإيمان وكـــيف انتهـــى بانتصار القائلين بالفصل وهو مستمر حتى هذه اللحظة في تفكير فقهاء أساسيين ومؤثرين في العالم الإسلامي.

ارتسم الجدل بين الفلاسفة المسلمين حول هذه المسألة وبخاصة بين أبو حامد الغـــزالي المـــشرقي الذي حسم القطيعة في نصه الشهير" فيصل التفرقة بين الشريعة والزندقة" وأبو الوليد ابن رشد قاضي قرطبة المغربي الذي رد على الغزالي بعد موته عـــام 1111 مـــيلادية في نص شهير بعنوان" فصل المقال بين الحكمة والشريعة من اتصال" وفيه يؤكد" على التكامل بين العقل والإيمان بقوله: "الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له" ويزيد شارحا في فصل المقال إن "من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع، قد يجب أن نشرع في الفحص عـــن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية".

---

(6) بـــذل الدكتور محمد عابد الجابري جهدا تأسيسيا في هذا المجل في مؤلفاته العديدة التي تتمحور حـــول العقـــل العـــربي وقد شكلت أعمال الجابري منعطفا حقيقيا لم يتخذ كامل الهيئة التي يستحقها بعد.

كان الغزالي مؤسسا لقطيعة مدمرة ومؤذية بين الإيمان الإسلامي والفلسفة التي تحمـــل في تـــضاعيفها تـــصورا عـــن الذات والعالم تصورا عن "الصنعة والصانع والمصنوع"، وعندما حاول ابن رشد المتوفي عام 1198 التصدي مبكرا لهذه المقولة وبالــتالي إعـــادة الربط بين علوم العرب وعلوم الأجانب على قاعدة الاتصال بين الإيمـــان والحكمـــة جوبه بالرفض واللعنة الشاملة، ولعله مازال ملعونا لدى بعض التيارات الدينية حتى يومنا هذا.

خلفت القطيعة المذكورة آثارا سلبية على مصير حضارة العرب إذ في خضم هذا الجدل ذوت الخلافة الأموية في الأندلس عام 1031م ونشأت ممالك الطوائف، ثم شرعت بالتساقط واحدة تلو الأخرى بدءا من طليطلة عام 1076م مرورا بقرطبة عـــام 1236م إلى اشبيلية عام 1246 وصولاً إلى غرناطة عام 1492م وكان سقوط هذه المدن يؤدي إلى اقتلاع سكانها وتسليمها بكامل هيئاتها للغزاة، وليس غريبا أن يمـــوت ابـــن رشد عام 1198 وان تسقط مدينته قرطبة بعد موته بأقل من أربعين عاماً.

في ســـياق التراجع الدفاعي الناجم عن الاعتزال أو الانعزال المذكور انطلقت في الفتـــرة نفسها تقريبا حملات صليبية على مشرق العالم العربي ودامت لأكثر من قـــرن ونـــصف القرن ثم تلتها حملة مغولية مدمرة أعقبتها عصور دويلات لم يكن مصيرها أفضل من مصير ممالك الطوائف في الأندلس، وكان الصليبيون في المشرق كمـــا ملوك النصارى في الأندلس يقاتلون العرب بالاتفاق مع فئات منهم إلى أن تمكـــن صلاح الدين الأيوبي من الانتصار عليهم في معركة حطين الشهيرة دون أن يـــؤدي هذا الانتصار إلى إعادة نظر شاملة بعلاقة علوم العرب بعلوم الأجانب، بل ربمـــا كان انتصارا عسكريا حطم الاحتلال الصليبي دون أن يؤسس لوثبة جديدة تتيح للعرب الحفاظ على نفوذهم ومراكمة هذا النفوذ وبالتالي امتلاك القدرة على الدفاع عن أنفسهم بوسائل مجدية وفعالة وقابلة للتوارث.

الحاصل أن استيلاء العرب المسلمين على بلدان أجنبية وحضارات معمرة كان يـــستدعي مواجهة تحديات كبيرة ومستجدة قهرها المسلمون الأوائل بالسيف تارة والبراغماتية تارة ثانية والاندماج تارة ثالثة إلى أن تراجعوا في أوج قوتهم أمام أسوار

الفلسفة الكلاسيكية اليونانية التي تنظر إلى العالم بمعايير دنيوية. لقد ترافق ذلك مع توقف الفتوحات ومع بروز نزعة دفاعية عن إمبراطورية ما برحت تتسع منذ ثلاثة قرون لتشمل أكثر من نصف العالم المعروف في الألفية الأولى[7].

بيد أن الدفاع الارتدادي والتحصن بالتقليد لم يعصم سلطة العرب من الانهيار، فكان سقوط الأندلس كما رأينا في أواخر القرن الخامس عشر في المغرب قد تزامن مع انهيار سلطة العرب في المشرق في معركة مرج دابق 1516 وصعود نجم العثمانيين الذين تعاملوا مع مقاطعاتهم العربية ليس بوصفها مرجعا للدعوة الإسلامية وحضنها ومنطلقها ورائد نهضتها وإنما باعتبارها أراض تابعة للسلطنة كغيرها من الأراضي الأخرى أي مصدرا للضرائب والمجندين.

لقد بات معروفا أن كتب ابن رشد أحرقت وانتصر دعاة القطيعة بين علوم العرب وعلوم الأجانب - في حين التقط القديس المسيحي توما الأكويني معاصر ابن رشد على ما يلاحظ محمد أركون في الكثير من محاضراته - التقط أهمية الاتصال بين الحكمة واللاهوت ومن هذا الاتصال ستحقق علوم الأجانب انتصارات ما زالت هي الأخرى ممتدة حتى يومنا هذا.

هكذا اعتبرت معادلة "الصانع والمصنوع والصنعة" الأجنبية ضربا من الكفر ذلك أن الأجنبي هو كافر بالتعريف الفقهي وكل ما يصنعه لا يمكن أن يخرج عن دائرة الكفر أي هو في باب المحرم الذي يحظر الأخذ به أو يجتنب أو لا يحبذ.

وعلى الرغم من أننا نعيش اليوم في بحر من "المصنوعات" الأجنبية على كل صعيد فان فقهاء كثيرين في المذاهب الأربعة فضلاً عن المذهب الجعفري الخامس لا يستخلصون الدروس المفيدة من هذا الواقع، بل ربما هم غير مهيئين لإعادة النظر بقواعد المدارس المذكورة وربما يحتاج الأمر إلى معرفة ومتابعة فقهية لتبيّن ذلك عن كثب وللوقوف على ما طرأ على هذا الصعيد غير أن من أواخر تداعيات هذه القضية ما عبّر عنه مفتي الحرمين قبل عقدين عندما أكد على عدم جواز اعتبار

---

(7) اندمج غير العرب في الحضارة العربية بواسطة الإسلام، وأتاح لهم هذا الاندماج الحفاظ على هويتهم الثقافية شأن الأكراد والشيشان والسلاف والأتراك والفرس وغيرهم أو بواسطة اللغة العربية ما أتاح لهم الاحتفاظ بدينهم ومعتقداتهم الروحية شأن الطوائف الدينية غير المسلمة.

الأرض كـــروية طالمـــا أن هذه الحقيقة العلمية حصيلة مبرهنة في علوم الأجانب الكافـــرين ولـــيس من إقرار علوم العرب أي العلوم الدينية البحتة. لقد كان من الصعب على مفتي الحرمين أن يخرج عن معادلة الغزالي المذهلة: الأجنبي كافر وكل مـــا يأتيه يدخل في باب الكفر حتى لو كان إثبات كروية الأرض بالبرهان والدليل القاطـــع. ومـــا يدعو للأسف أن دعاة القطيعة ربما ما زالوا حتى يومنا هذا الأكثر نفوذا في إرشاد المسلمين وفي تقرير شؤونهم.

لا تروم هذه الملاحظة استرجاع الجدل بين ابن رشد والغزالي بل الإشارة إلى مـــصدر ضرر يلحق بنا يوميا باعتبار أن الإسلام عقيدتنا وهو الذي شكّل ويشكل إلى حد كبير فضاءنا الثقافي الشامل ولا يمكننا أن ننهض بمعزل عنه أو بالضد منه.

حملة بونابرت أو تأسيس هرمية الحضارات

أغلـــب الظن أن الاتجاه الذي تحكّم بفصل علوم العرب عن علوم الأجانب كـــان مدفـــوعا بضرورة حماية الإسلام من التأثير الأجنبي وتحصين المسلمين عبر حملهم على التمسك الأرثوذكسي بتعاليمهم الدينية، ولربما تجلت النـــزعة الدفاعية تلـــك في أقصى صورها بالحركات الصوفية التي تسمو عن الدنيا بالانصراف إلى الخالـــق وحـــده دون أن يعني ذلك أن مجمل هذه الحركات اعتزل الدنيا إلى حد الامتناع عن الجهاد ضد الغزاة الأجانب، بل نجد عدداً كبيراً من قادة النضال ضد الأجـــنبي ينتمون إلى الحركات الصوفية كعمر المختار في ليبيا أو الأمير عبد القادر الجزائـــري في الجزائـــر أو الحركة الصوفية في السودان، لكن على الرغم من ذلك ظلـــت الصوفية حركة دفاعية تعبدية اعتزالية ولا يغيّر من طبيعتها أنها لعبت دوراً تبـــشيريا في إفريقيا علما أن هذه القارة لم تكن وهي ليست إلى اليوم مركزا حاسما في تقرير مصير العرب والإسلام والمسلمين.

لم يعـــصم إذن الانكفـــاء الدفاعـــي عـــن الإسلام بلاد المسلمين من الغزو والاجتـــياح في الأندلس وفي الشام وفي الرافدين كما رأينا، لكن أثر هذه الغزوات ظـــل محـــصورا في المجال العسكري فحيث فشلت انتهى أثرها إلى أن قرر نابليون بونابـــرت تأسيس مستعمرة في مصر نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع

عشر وعلى الرغم من فشل حملته العسكرية فإن حملته الثقافية نجحت إلى حد كبير عبر تأسيس وعي هرمي لدى العرب تقف على رأسه الحضارة الغربية (المقبلة) المظفرة ليس بقوتها العسكرية وإنما بعلوم الأجانب التي كان المسلمون يخشون تأثيرها على دينهم ولعل اثر هذا الوعي ما زال قويا حتى اليوم في مصر التي شهدت بمناسبة المئوية الثانية للحملة الفرنسية نقاشا انتصر فيه الداعون إلى رفض وجهها العسكري وتمجيد ما يسمى بوجهها "التنويري"، بكلام آخر رفض فعل الهزيمة العسكرية للحملة وتمجيد أثرها الأصلي أي هرمية الغالب والمغلوب واستبطان هذه الهرمية في اللاوعي المصري والعربي:علوم الأجانب هي الأفضل والتخرج من جامعاتهم والحصول على شهاداتهم والافتخار بأوسمتهم والانكباب على تعلّم لغاتهم والتفاخر بها مقابل هبوط علوم العرب وحصرها بالعبادات والواجبات الدينية وهبوط قيمة الشهادات المحلية وهبوط قيمة الأوسمة الوطنية واللغة العربية.. الخ. واللافت انه منذ الحملة المذكورة نشأ ما يعرف بعلم الفرعونيات واعتبره الفرنسيون فتحا علميا يضاف إلى فتوحاتهم الكثيرة لكن أثره في مصر انتظم في هرمية حضارية مؤداها أن المصريين كانوا عظماء فقط قبل الإسلام وان الحضارة العربية الإسلامية عابرة في بلادهم وأنهم يندرجون في سلم حضاري قمته البعيدة فرعونية وقمته القريبة غربية وتقع في أسفله الحضارة العربية الإسلامية [8].

ما من شك أن التأسيس لوعي حضاري هرمي يقف الغرب على رأسه شمل انطلاقا من مصر العالم العربي بأسره[9]. فمقابل الفرعونية في مصر انتشرت الفينيقية والسبئية والرومانية والبابلية واليونانية والمتوسطية في أرجاء أخرى من العالم العربي وشكلت مصدرا تأسيسيا للوعي القطري الكابح للوعي العربي الجمعي سيطغى طيلة الشطر الأكبر من القرن العشرين الذي أمضاه العرب في الدفاع عن بقائهم ضد الاستعمار الاستيطاني وفي المجابهة مع الدولة العبرية.

---

(8) راجع الفصل الخاص بتفاصيل حملة بونابرت في مكان آخر من الكتاب والحملة بتقديري فعل تأسيسي في ثقافة الخضوع التي تسللت إلى بلادنا منذ ذلك التاريخ.

(9) يقول شيمون بيريز في حديث عن تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين" عندما جئنا إلى المنطقة لم يكن احد يقيم اعتبارا للعرب، كنا نعتقد أننا نحمل إليهم التعليم والتطبيب والتطور "يختصر هذا القول الهرمية الحضارية المذكورة بأوضح صورها.

الحداثة والعصرنة والتنوير والعلمانية

أن تحمل وعي أسفل الهرم فهذا يعني أن تتطلع إلى أعلى الهرم تماماً كما يتطلع ساكن الكوخ إلى صاحب القصر، أو أن تمانع عبر التمسك بدينك والانطواء عليه رافضا واقع التبعية والخضوع معترفا ضمنا بالعجز عن تغييره. أن تحمل وعي أسفل الهرم فهذا يعني أن تفكر من موقع المغلوب وان تتشبه بالغالب وأن تقلده في مأكله وملبـــسه ونمـــط تفكـــيره علـــى غرار ما كان ابن خلدون يصف علاقة الغالب والمغلـــوب. لقد تجسدت هذه العلاقة في المعرض العالمي الفرنسي في مئوية الثورة الفرنـــسية الأولى عام 1889 حيث جيء بنماذج بشرية من الشعوب المستعمرة في آسيا وإفريقيا وعرضت في أقفاص في باريس كما تعرض الحيوانات المفترسة. كان الفرنسي بخاصة والأوروبي عموماً ينظر بأم العين من أعلى الهرم إلى مخلوقات غريبة" همجـــية" بالقياس إليه وافدة من أسفل الهرم. كانوا عبيدا وكان حرا. حدث ذلك على مقربة من برج ايفل الذي شيّد للمناسبة من الحديد الصلب وعلق كوسام على صـــدر العاصـــمة الفرنسية الكلية القدرة ليجسّد عصر الثورة الصناعية التي غيرت وجـــه العـــالم ورسّخت الهرمية الحضارية المذكورة لكن كيف تقدم الأوروبيون وكيف تخلّف غيرهم؟

الناظر من أسفل الهرم الحضاري والمقيد بوعيه كان عليه أن يأخذ باستنتاجات الغـــربيين أنفسهم التي صارت أشبه بالمسلمات الهندسية. لقد تم التقدم الغربي على قاعـــدة العقـــل. منه خرج مفهوم العلمانية وأفكار الحداثة والعصرنة ومنه خرج التنوير، وكل تنوير يفترض بمقابله ظلامية انه بالتعريف ضد الظلامية التي حصرت عموماً بالغيبيات والسلطة الكنسية وليس بالحضارة المسيحية وقيمها.

إذن هـــم وصلوا إلى أعلى الهرم بالعقل التنويري وعلينا إن أردنا بلوغ القمة الحـــضارية أن نسير على رسمهم. ومن رغب بالسير في خط معترض يمكنه اللجوء إلى الخطـــوط المعترضة الموجودة أيضاً في أعلى الهرم حيث الطريق من التخلف إلى الـــتقدم ومن الظلام إلى النور مرسومة بوضوح في الفلسفة الماركسية: التاريخ بدأ من المجتمع المشاعي ثم الرق ثم الإقطاعي ثم الرأسمالي وسينتهي بالحقبة العمالية حيث يسيطر الناس على وسائل الإنتاج ويتساوى البشر كلهم في قاعدة من "كل حسب

حاجـــته ولكـــل حـــسب طاقته" هنا يفصح التنوير العقلاني عن صورته الأكثر وضـــوحا: لابد من تهديم كل البنى الاجتماعية والثقافية السابقة على الرأسمالية أي علـــى الوعـــي الحضاري الهرمي. لقد دعم كارل ماركس استعمار الجزائر لكونه يـــندرج في هـــذه السيرورة ونحن نعرف أن هذا الاستعمار الطويل وسّع المسافة الفاصـــلة بين الجزائريين وبين المتروبول بدلاً من أن يمحوها وحافظ بإخلاص على ترتيب الغالب والمغلوب طيلة 130 عاماً.

في الحالـــتين كان الأمر يعني ببساطة بالنسبة للعرب والمسلمين الأخذ "بعلوم الأجانـــب والتخلي عن علوم العرب" أي عن الإسلام أي عن الأساس الذي يقوم عليه وجودهم. بعبارة أخرى كان على العربي أن يتخلى عن سبب وجوده التاريخي من أجل بلوغ افتراضي متعذر سلفا لقمة الهرم الحضاري العتيد[10].

لقـــد أمضى الحداثيون العرب القرن العشرين في هذه السيرورة وهـم ما زالوا فيها حتى الآن، في حين أمضى الاصوليون العرب القرن العشرين في حالة دفاع عن الـــنفس ازداد خلالها اقتناعهم بفصل علوم العرب عن علوم الأجانب إلى أن شهد الربع الأخير من القرن العشرين صحوة إسلامية لم تعترف بالمفهوم الرشدي حول ضـــرورة الاتصال بين "الشريعة والحكمة" إلا أنها عملياً كانت تأخذ بهذا المفهوم، ويمكـــن القول دون تردد أن "الصحوة الإسلامية" أخذت بمنحى التفكير النهضوي عملياً لكنها نظريا ظلت متمسكة بـــ "فيصل التفرقة بين الشريعة والزندقة" ولعلنا نجـــد في الحـــرب الأهلـــية الجزائرية في عقد التسعينات تجسيدا لهذا الأمر: مجتمع جزائـــري معـــرّب بواســـطة الإخوان المسلمين وفق "علوم العرب" ونخبة حاكمة فـــرنكوفونية حداثـــية متشبعة ب"علوم الأجانب" كان يكفي فقط أن تخضع هذه النخـــبة للضغوط الغربية الديموقراطية المزعومة كي يخرج التناقض إلى السطح ويقع الانفجار الكبير.

إن معادلـــة "الـــنور" و"الظلام" و"الحداثة" و"التقليد" و"التقدم" و"التخلف" انتـــشرت في العـــالم العربي بواسطة المثقفين العرب المسيحيين الذين كانت الثقافة

(10)لخّـــص لي أســـتاذ جامعي فرنسي جوهر ما يريده العرب بالقول أنهم يريدون التنكولوجيا دون قيمها وان الغرب لا يناسبه هذا الانتقاء.

الغـــربية قـــد أصبحت مبثوثة في صفوفهم منذ ما قبل انهيار الإمبراطورية العثمانية فكانوا الأكثر اتصالا بثقافة الغرب ولغاته والأكثر قدرة على التعبير عنها في كنف الحضارة العربية الإسلامية أي في نقل علوم الأجانب دون طرح الكثير من الأسئلة عليها من هذا الوعي الهرمي بل من هذا البطن الايديولوجي نشأت حركة الحداثة في الـــشعر. علـــى غرار الحداثة الغربية التي قضت بتحطيم مناهج النظم التقليدية المـــوروثة منذ مئات السنين وإطلاق ما عرف بالقصيدة الحرة سوى أن تأثير الشعر الحـــديث ظل محصورا في فئة نخبوية بل معزولا إلى الحد الذي دفع الشاعر أدونيس احـــد رواد الحداثـــة إلى القـــول أن اكـــتمال الحداثـــة شرطه تهديم البنى الثقافية والاجتماعـــية العربية أي القيام بثورة حداثية شاملة على الطريقة الغربية وهو أمر مـــتعذر بطبـــيعة الحال بسبب الممانعة الدينية، وعليه لم يكن غريبا أن ينتشر بين العـــرب الـــشعر الأكثر قربا من التفعيلة عبر قصائد نـــزار قباني وليس عبر أشعار أدونيس النموذجية في حداثتها.

في مـــسائل الـــتقدم والتخلف جرى العمل على تهديم كافة الروابط التي كانت تتيح للعرب انسجاما مجتمعيا وثقافة موحدة كان الشعر العربي احد ابرز وســـائلها. وكان التقدم يعني تدمير نمط العمارة المحلي واستبداله بنمط العمارة الغربية. نحن نعيش اليوم في مدن عربية – باستثناء صنعاء – منسوخة بلا روح وبـــلا تقدير للمكان وتاريخه. مرة أخرى يمكن القول باختصار أن هيئتنا الحالية هـــي هـــيأة أسفل الهرم على كل صعيد وذلك على الرغم من محاولات التقدم الحثيـــثة الـــتي بذلناها خلال القرن العشرين وكان أهمها وأكثرها جرأة وفائدة التجربة الناصرية.

القومية والشيوعية والليبرالية

الواضـــح أن "علوم الأجانب" ونظرياتهم السياسية كانت وما زالت إلى حد بعـــيد سيدة الثقافة السياسية العربية. لقد لاحظنا خلال القرن العشرين كيف أن الأيدولوجـــيات القومـــية والـــشيوعية والليبرالية قد شكلت أدوات مهمة للعمل السياسي العربي في شقيه المعارض والحاكم. كان تصور التيار القومي العربي يستند

إلى خلاصة التجارب القومية الأوروبية مثال: توحدت ايطاليا وألمانيا حول إقليم قاعدة وجيش قوي ومنهجية الوحدة الاندماجية، إذن يمكن للعالم العربي أن يسير بحسب القوميين العرب على النهج نفسه. و كان على مصر الناصرية أن تلعب هذا الدور ومن بعد بغداد ودمشق البعثية دون جدوى.

لقد فشلت التجربة القومية في العالم العربي لأسباب عديدة من بينها أنها تهدد هرمية الغالب والمغلوب بوسائل الغالب وأفكاره ولأنها بالمقابل اصطدمت مع التيار الديني، بل لأنها في لا وعيها أو في وعيها تستند إلى معادلة الظلام والنور: "التدين ظلام والحداثة الغربية نور". ولأنها أهملت حقيقة أن التجربتين الإيطالية والألمانية تمت في قمة الهرم أي في سياق صراع أوروبي - أوروبي على العالم ناهيك عن أن مصير الوحدة العربية كان مرهونا بالأصل بمصير الصراع العربي - الإسرائيلي وبموازيين القوى الدولية أي بمصير معادلة الغالب والمغلوب.

رغم ذلك استطاعت الناصرية أن تحدث ثورة في الوعي السياسي العربي ونحن ندين لها بإنجازات حاسمة على كل صعيد (يمكن العودة إليها في مكان آخر من هذا الكتاب).

كانت الناصرية تجربة سياسية قصيرة (16 عاماً) استندت إلى مناورات ناجحة بين القوتين العظميين خلال الحرب الباردة لكنها تعرضت لضربة إسرائيلية - غربية قاصمة عام 1967 ليبدأ من بعد التيار القومي العربي بالتراجع، علماً أن الناصرية كانت ربما الأقرب إلى روح الهوية العربية والأقل تمسكا بالإيديولوجية القومية الكلاسيكية. إنها ضرب من القومية التجريبية التي قلبت الوعي السياسي العربي رأسا على عقب في حين كان البعث الأكثر تمسكا بالايديولوجيا القومية الكلاسيكية وقد فقدت هي الأخرى بريقها بعد الهزيمة في حزيران - يونيو 1967 لتتحول من بعد إلى غطاء لدول عسكرية محاصرة ومغامرة كما هي حال بغداد البعثية في عهد صدام حسين في حين راحت دمشق البعثية تتكيف وتتحول إلى طريقة في الحكم الدفاعي المحاصر وفي الحالتين لم تتمخض التجربة عن نهضة علمية أو تنموية تزود التيار القومي بوسائل لكسر معادلة الغالب والمغلوب على الصعيد العالمي.

لم تكـــن "الـــشيوعية" العـــربية أفضل حالاً من شقيقتها "القومية" اللدودة. معـــروف أنها نشأت وانتشرت وسط تيارات المعارضة وحركات المقاومة العربية وظفـــرت بحكـــم جنوب اليمن وكانت تغلف في هذا البلد تناقضات وصراعات تقليدية وقبلية ومناطقية وتخلو من الروح المحلية قياسا بالتجربة الماركسية الصينية(11) الـــتي اجـــتازت الحرب الباردة وتجتاز اليوم العولمة الليبرالية دون قيود أو صعوبات إيديولوجية من المؤسف أنها كبلت ونمّطت الشيوعية العربية فكان أن ألقتها الحرب الـــباردة على قارعة الطريق لتحتل هامشا ضئيلا في الخارطة السياسية في هذا البلد العربي أو ذاك، وقد اتسعت عزلتها بعد أن فشلت في التكيف مع التطورات الدولية ما بعد الحرب في حين نجحت الشيوعية الإيطالية في التحول إلى قوة سياسية مؤثرة يحسب حسابها في الخارطة السياسية في بلاد الطليان.

أمـــا الليبرالية فإنها كفت منذ زمن بعيد عن أن تكون في بلدان المنشأ تيارا ينطوي على مفاهيم متصلة بالعدالة الاجتماعية والنهضة القومية وباتت تنـــزع للتوسع والهيمنة الرأسمالية ذات الكلفة الاجتماعية الباهظة أما في بلداننا فإنها لم تتمكن من الاستقرار في أوج صعودها فنمت على هوامشها شخصيات محدودة الـــتأثير في القـــرن الماضي، أما في مطالع هذه الألفية فان ما يسمى بالليبراليين العـــرب الجدد – عددهم لا يتعدى المئة – ويكاد معظمهم أن يصنف في خانة عمـــلاء الاحتلال الأجنبي ويجتهدون عموماً في ترويج حروب الرئيس الأميركي

(11) حـــاول الماركسيون العرب التقدم على المسرح السياسي بعد هزيمة حزيران – يونيو عام 1967 لكـــن محاولتهم كانت قصيرة المدى ومحدودة الأثر. فقد فشلوا في تثبيت " منظمة الأنصار" في لبنان 1970 و1971 التي كانت تضم شيوعيي بلاد الشام في تحويل الصراع العربي الإسرائيلي في وجهـــة ماركسية واخفق اليسار الماركسي في إسقاط النظام الأردني عام 1970 وأحيط النظام العربي الماركسي الوحيد في جنوب اليمن بعزلة وسيصاب بضربة قاصمة بعد 16 عاماً إثر مجزرة يناير الشهيرة. وفي السياق فشل انقلاب عسكري ماركسي في السودان 1971 وخسرت جماعة صـــلاح جديـــد الماركـــسية الصراع على السلطة في الفترة نفسها في سوريا وفشلت محاولة ماركسية لاستلام السلطة في العراق عبر حرب عصابات الأهواز واخفق ثوار ظفار الماركسيين العمانـــيين في العام 1976. من بين عوامل إخفاق هذا التيار بل ربما في أصلها، أن دعاته كانوا ماركسيين حرفيين ولم يبلوروا ماركسية عربية على غرار رفاقهم في الصين وكوبا وأوروبا كما أشرنا في المتن.

جـــورج بوش والتصدي للإسلام السياسي. لم يصبح الليبراليون الجدد والراجح أنهـــم لن يتحولوا إلى ظاهرة تستحق البحث والتحليل والتقييم ذلك أن خطابهم السياسي هو امتداد لخطاب الغزاة الأجانب بلغة عربية ركيكة وبلهجات محلية لا تحلق عاليا[12].

الممانعة والمقاومة

انبـــثقت ممانعـــة قوية للثقافة السياسية الغربية سواء في الحكم أم المعارضة في العـــالم العربي وتمثلت بتيارات الإسلام السياسي "حركة الأخوان المسلمين" بخاصة وبالتـــيارات الإسلامية التقليدية المستندة إلى نظرية الفصل بين علوم العرب وعلوم الأجانب. تراوحت أشكال الممانعة بين الدعوة للحفاظ على التقاليد المحلية المهددة اســـتنادا إلى تفـــسير متـــشدد للنص الديني ورفض شامل وكلي للحضارة الغربية والامتـــناع في بعض الحالات عن استهلاك منتجاتها والاعتراف بنتائج علومها وما زالـــت بعـــض أشكال الممانعة ذات البعد الدفاعي الانعزالي تتقهقر إلى يومنا هذا: رفض التلفزيون. رفض الانترنت. رفض قيادة المرأة للسيارة ومن قبل رفض التلفون ورفـــض العلـــوم الحديثة وما شابه وكان الرفض أقل راديكالية وعبثية في حالات أخـــرى. لكـــن الوجه الآخر وربما الأهم لممانعة التيارات الدينية تمثل في التصدي للاحـــتلال الأجنبي في شمال إفريقيا وحفظ هوية بلدانها بمواجهة الغزو الاستيطاني وقد توجت هذه الممانعة بمقاومات مظفرة انتصرت في الجزائر التي كادت أن تصبح أثرا بعد عين وفي عموم إفريقيا الشمالية.

لم تقتـــصر الممانعـــة علـــى الإسلام السياسي بطبيعة الحال فقد تمثلت أيضاً ومازالـــت بتـــيارات قومية ويسارية وماركسية لعبت أدوارا مهمة خلال الحرب الـــباردة واقـــل أهمية من بعد كما لاحظنا من قبل وكانت هذه الممانعة قوية أيضاً وشبه شاملة في تعزيز الثقافة المناهضة لإسرائيل.

بـــيد أن معـــنى الممانعة ينطوي بالضرورة على رهان كان مختلفا باختلاف

(12)وصـــف الليـــبرالي العراقي كنعان مكية وهو تروتسكي سابق الصواريخ الأميركية المنهمرة على بغداد خلال الغزو الأخير بأن وقعها على أذنه أشبه بموسيقى بتهوفن.

التيارات المذكورة فهو ينهض على استعادة الوعي الإسلامي الشامل للأمة واستئناف دورها الحضاري وهو بالنسبة للآخرين استكمال التحديث وامتلاك أدوات التقدم العصري ومصادر القوة اللازمة، أي تحقيق نهضة علمية سياسية تتيح للعرب استئناف دورهم الحضاري المرتجى في إطار اندماجي مع الحضارة الغربية وفي ظل قواعدها السائدة عالميا وفي سياق ثقافتها وبفعل أدواتها. بكلام آخر كان الممانعون دينيا يرون الخلاص عبر الاحتماء من النهضة العدوانية الغربية بالإسلام في حين يرى الحداثيون وجوب الانخراط بالنهضة الغربية نفسها والتشبه بها من أجل نهضة قطرية أو قومية عربية مماثلة لها.

لقد بات معروفا أن طرفي الممانعة لعبا أدوارا دفاعية: الحفاظ على الأرض وطرد الاحتلال عنها والتمسك بالدين والهوية الدينية بالنسبة للإسلام السياسي. وتحقيق الوحدة العربية بالنسبة للتيار القومي بوسائل وأدوات سياسية منقولة عن بلدان المنشأ الأوروبي وتفتقر إلى التكيّف المحليّ ناهيك عن محاولات ماركسية أممية لم تعمر طويلا واقتصرت في حالات كثيرة على الاضطلاع بادوار في التحرر الوطني وفي ردف السياسة السوفيتية بقوى محلية ضمن إطار "أممي" عابر للقوميات وناقد لها بوصفها بورجوازية أو بورجوازية صغيرة[13].

في العموم توزعت تيارات الممانعة في مصر والعالم العربي على اتجاهين كبيرين، الأول إسلامي يرفض الحضارة الغربية ويقاوم انبثاثها في بلداننا بطرق ووسائل مختلفة وتتراوح مقاومته بين الرفض الجزئي والمطلق لهذه الحضارة والثاني يقبل الحضارة الغربية بوصفها متقدمة وعصرية ويرفض احتلالها العسكري ويمانعها إلى هذا الحد أو ذاك في سيطرتها السياسية على العالم ساعيا إلى الارتقاء العربي عبر الانتقال من قاعدة الهرم الحضاري الغربي إلى درجات أعلى في اتجاه قمته.

---

(13) اشترط اليسار الماركسي الفلسطيني لتحرير فلسطين تغيير أنظمة البورجوازية الصغيرة العربية والأنظمة الرجعية الملكية أي هدم بنى العالم العربي السياسية قبل الوصول إلى القدس!! لا نعرف حركة تحرير وطني واحدة في التاريخ تخيلت مهمة عبثية من هذا الطراز فيما العدو يطرق أبواب بلادها.

إن تقارير التنمية العربية التي صدرت بعد تفجير برجي التجارة العالمية في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 هي بمثابة مذكرات لتنبيه هذا التيار إلى انه لم يضطلع بالدور التنموي الذي اضطلعت به دول أخرى في العالم داخل الهرم الحضاري الغربي وفق المقاييس الغربية، ولمخاطبة هذا التيار بأن عليه أن ينهض مجددا بعد أن بات الخطر الإسلامي داهما وان هذا الخطر ناجم أصلا عن إخفاق هذا التيار في الاضطلاع بالمهام التاريخية التي حددها لنفسه بأثر من الثقافة السياسية الغربية نفسها.

البادي أن التيارين المذكورين استنفدا كل الوسائل المتاحة لهما في الدفاع عن العرب والمسلمين خلال فترة تتعدى القرن ما يستوجب البحث عن أنماط ووسائل وآليات تفكير مبتكرة، أي بلورة ثقافة سياسية عربية إسلامية جديرة ومختلفة، بل إلى قطيعة تاريخية مع الثقافة السياسية السائدة على الصعيد الدولي ومع الأشكال المجربة في ثقافة العرب السياسية في جناحيها التقليدي الديني والحداثي المتعدد المرجعيات[14].

عناصر تجريبية لثقافة سياسية مختلفة

يلوح لي أن القطيعة المرتقبة تمر بالضرورة بالبحث عن عناصر مختلفة لثقافة سياسية عربية ناهضة. لم يبدأ البحث مع هذه الصفحات وليس قاصرا على كاتب هذه السطور بيد أنني اقترح ما اعتبره على سبيل التجريب عناصر أولية لثقافة سياسية أخرى عبر الخطوط التالية:

أولاً: منهجيا لا بد من الكف عن البحث عن حلول سياسية لقضايانا العربية عند الآخرين دون إهمال حصيلة التفكير الأجنبي الغربي سواء بوصفه

(14) تقدم تجربة حزب الله اللبناني الناجحة في مجابهة إسرائيل دليلا على ثقافة سياسية مرنة معاصرة وواقعية مبنية على إيمان ديني راسخ. إنما الأصل في تحييد ثقافة الفتنة واتقاء شرورها وفي الاصرار على الصراع مع عدو الجميع دون غيره استنادا إلى عنصرين أساسيين تجمع عليهما الامة هما الاسلام والقومية العربية، والواضح أن الحزب استخلص دون ضجيج دعاوي دروس المجابهات الناجحة والفاشلة مع الدولة العبرية وعممها في صفوفه أولا ومن ثم لدى الرأي العام العربي والاسلامي عبر مواقفه واستراتيجيته الدعاوية ما جعل الصهاينة يعتبرون الصراع معه كما الصراع مع جمال عبد الناصر من قبل بوصفه مسألة حياة أو موت.

حمـــالا لرؤى الآخر المسيطر أو مصدرا لتفاعل مفيد مع الأنا العربية مع الحرص الدائم على تجنب العداء المطلق مع ثقافة الآخرين على أن تكون قيمة ما يصلنا مـــن ثقافتهم محددة بمنفعته لنا. بكلام آخر أن نقيس ما ينتجه الآخرون بمقياس المـــنفعة والتقدم للعرب والمسلمين. وإذا كان لا بد من سند فلسفي لهذا المنهج فهو الرشدية. لذا انتهز الفرصة للإشارة إلى ضرورة اللجوء منهجياً إلى ابن رشد بمـــا يفـــضي إلى أن نكون مسلمين شأن طلعت حرب وغيره ممن عملوا بهدي الرشدية عن قصد أو عن غير قصد فكانت نتائج أعمالهم باهرة و لم تفقد قيمتها حتى يومنا هذا.

ثانـــياً: تجنب ما كل من شأنه المس بجوهر هويتنا العربية الإسلامية فلا قيمة عربية لإنتاج ثقافي عربي ما لم يضف لبنة جديدة إلى نهضتنا المأمولة.

ثالثاً: شن حرب لا هوادة فيها على الأفكار والنصوص التي تعيد صياغة ثقافة الفتنة في مجتمعاتنا كائنا ما كان مصدرها الديني أو الحداثي.

رابعاً: التحلي بتصميم صريح على اقتفاء اثر تجارب ناجحة نهضت بوسائلها الخاصـــة والإفـــادة منهجيا من طرق نهوضها وليس تقليدها حرفيا فلا أحد نهض وينهض على صورة غيره. إن نهوض اليابانيين والصينيين وبعض الآسيويين المسلمين اســـتند إلى تصميم وطني وقومي جدير بالتقدير فكانت الوطنية أو القومية عندهم "حق" يشهد على كل حق آخر لا يضاده ولا ينفيه.

خامـــساً: الكـــف عن الاعتقاد بأننا متخلفين بسبب أنظمتنا السياسية فهذه الأنظمة هي محصلة التخلف وليست سببه ذلك أن تخلفنا يندرج في هرم حضاري لا يمكـــن تعديل طبقاته إلا بنهضة شاملة وليس عن طريق تبديل نظام بنظام آخر، فكل نظام بديل عن النظام القائم سيلاقي المصير نفسه ما لم يكن علامة على نهضة شاملة للجميع.

سادساً: لم تنهض حضارة واحدة خلال التاريخ إلا عبر مواجهة أو مجابهة مع الخـــارج بمـــا في ذلـــك الحضارة العربية الإسلامية. لقد نهض الغربيون على الغزو وبواســـطة الحـــروب والسيطرة والهيمنة ويسودون اليوم بواسطة نظام دولي ينظم الهيمـــنة ويـــضبط سياسات الدول الخاضعة أو المهادنة أو الشريكة من موقع أدنى

ومـــواقفها ومصالحها تحت سقف الهيمنة المذكورة. إن شعار الحفاظ على مستوى معيشة الغربيين الذي يطرح خلال حروب يشنها دوريا" تحالف دولي" مزعوم على بلداننا يعني وجوب استمرار الهيمنة والخضوع وبالتالي حملنا على البقاء حيث نحن حتى يبقى مستوى المعيشة الغربي حيث هو أي فرض احترام الهرمية الحضارية بالقوة العسكرية إزاء محاولات النهوض الدورية التي نسعى وتسعى إليها الشعوب والأمم الخاضعة.

والجديـــر ذكره أن الغزو إلى الخارج لا يتم دائماً بالوسائل العسكرية فأحيانا يـــتخذ شـــكل اجتياح سلمي ذلك أن الحضارة اليابانية والآسيوية عموماً نهضت وتنهض بالغزو السلمي خارج حدودها. لقد صوّر اليابانيون كل السلع المنتجة في الغـــرب ونسخوا ما يشبهها في بلدانهم ومثلهم فعل الصينيون. وإذا عدنا إلى الوراء نلاحـــظ أن الإســـلام مـــا بلغ الحضارة التي بلغها إلا بعد أن سيطر على "علوم الأجانب" واستخدم طاقاتهم ووسائلهم على كل صعيد.

بالمقابـــل مـــا هـــزمت حـــضارة من الحضارات وما تراجعت حضارة من الحـــضارات إلا عـــندما استسلمت لفتن داخلية تستنـــزف قواها وتحطم وسائلها وتتيح لأعدائها والطامعين فيها سبل إخضاعها وقهرها.

ســـابعاً: إن ثنائـــية الحداثة والتقليد معادلة اعتمدها الغرب المنتصر في سياق إصلاح داخلي يؤكد انتصاره ويعززه. والثنائية نفسها تطرح علينا أو نطرحها على أنفـــسنا في ســـياق تكـــيّف واع أو غير واع مع شروط موقعنا السفلي في الهرم الحـــضاري، بكلام آخر تطرح هذه الثنائية في سياق أفضلية وصلاحية ثقافة الآخر وتخلـــف وعدم صلاحية ثقافتنا. إن الخروج من هذه الثنائية شرط ضروري لنهضة عربية إسلامية حقيقية.

ثامناً: إن الشرط المكمل لنهضتنا يتمثل في مراكمة المعرفة في بلداننا وفي تحرير الطاقات المؤهلة للإنتاج المعرفي وفي هذا المجال لا بد من الإقبال الواسع على ترجمة أمهات المعرفة المتداولة في عصرنا كما دعا ويدعو المفكر المغربي عبدالله العروي في مناسبات مختلفة.

تاســـعاً: تحـــتاج الأمة العربية إلى بلورة كتلة تاريخية نهضوية من الصعب

انبثاقها وتمحورها بمعزل عن ثقافة سياسية ناهضة. إن ترديد اقتراح الكتلة التاريخية خلال اللقاءات القومية بوصفه إجراءا تنظيميا واختصاره بتجميع فعاليات تنتمي إلى بلدان عربية مختلفة يخلق انطباعا واعدا لكنه خادع. إن تجارب البعث والحركات القومية الأخرى بنيت على هذا التصور وآلت إلى ما آلت إليه مما نعرفه جميعا ما يعني أن الكتلة التاريخية تقوم على قطيعة ثقافية تاريخية أو لا تقوم.

القسم الثاني

غزو السيف وغزو القلم

الباب الاول

حملة مصر

غزوة السيف وغزوة القلم

فيصل جلول

لماذا اجتاح نابليون بونابرت مصر؟ أمن أجل تحرير المصريين من المماليك كما يقول في بيانه الشهير الموجه للشعب المصري؟ أم من أجل تحضير (من حضارة) هذا البلد كما يقول آخرون؟بل من أجل إقامة مستعمرة فيه بحسب كثيرين وبالتالي قطع طريق الهند على بريطانيا؟ ربما اجتاح مصر من أجل هذه الأسباب وغيرها. فالنقاش ما زال محتدما حول دوافع الحملة وأهدافها ونتائجها. بيد أن الخلاف السياسي حول هذه الحملة لا يشغل العرب والمصريين كثيراً فهم يتفقون عموماً على كونها حملة استعمارية وبالتالي لا يقرون مع جان تولار - يلي نصه المترجم - عندما يكتفي بالقول فقط! أنها غريبة الأطوار ويختلفون معه ومع غيره بشدة حول نتائجها. فالحداثيون العرب يميلون إلى النظر إليها من باب"رب ضارة نافعة" ويعتبرون أنها أيقظت الشرق من سباته وكانت سببا في طرح سؤال النهضة الأساسي: لماذا تقدّم الغرب ولماذا تأخر المسلمون؟ في حين يرى الإسلاميون أن نتائج الحملة كانت وبالا على الأمة الإسلامية ويحصرون النظر في مقاتلها، بخاصة المجازر التي ارتكبها بونابرت في الأعوام الثلاثة التي استغرقتها الحملة. فهل من متسع للنظر إليها بعين مختلفة؟ سنسعى لألقاء الضوء على وجوه الحملة المختلفة علنا نضيف إلى نص السيد تولار عناصر ضرورية وإطارا يفصح عن الظروف التي تحكمت بهذا العدوان الذي شكل منعطفا حقيقيا في مصر والعالم العربي[1].

---

(1) الهوامش التوضيحية في هذا القسم كلها من وضعنا وليست واردة في النص الفرنسي وقد اعتمدنا في صياغة الملاحظات التمهيدية على عدد كبير من مصادر تلك الفترة أهمها الآتي ذكره:

A. Arnaud Coignet «De L'expedition À La Description D'egypte».www.mairie-dieppe.fr

B. Extrait De La Correspondance Du Premier Consul. www.1789-1815.com

C. Bataille De Pyramide. www.herodote.fr

D. Amiral Henri Labrousse: La Mer Rouge Et L'expedition De Bonaparte En Egypte. www.stratisc.org

E. Napoleon Bonaparte. www.brunette.brucity.be

F. Les Mamelouks Sous L'empire. www.histoire.org

كانت فرنسا عشية الحملة قد خرجت من عهد اليعاقبة الراديكالي الترهيبي بـزعامة مكـسيميليان روبسبيير وسادها نظام عرف باسم (مجلس المديرين أو الإدارة 1794) المؤلـف من خمس مديرين يتولون الشؤون التنفيذية ويسقطون بالقرعة سنويا عضوية واحد منهم على أن يرشح النواب عضواً بديلاً ويصادق الشيوخ عليه. في حين يتولى الشؤون التشريعية مجلس تمثيلي من خمسماية نائب يقتـرح أعضاؤه التشريعات التي تحتاج إلى مصادقة مجلس من 250 شيخا عرفوا باسم "مجلس الكبار" وفيه كان يفترض أن يكون سن العضوية ما فوق الأربعين عاماً. هكذا كانت السلطات مفتتة في هذا العهد الذي دام حوالى خمس سنوات كان "مجلس الإدارة" يخشى خلالها من عودة الراديكاليين والمقصلة حينا وعودة الملكـيين حينا آخر ما أدى إلى عدم استقرار في فرنسا على كل صعيد. (ألغى "المجلـس" نتائج ثلاث انتخابات ناجحة لأنها كانت ستأتي بالملكيين إلى السلطة التشريعية)

في أوروبـا كانـت الثورة الفرنسية ما زالت مهددة من طرف الملكيات التي تـدعم حركات التمرد الدورية في هذا البلد ولاسيما التمرد الكاثوليكي في منطقة الفاندي شمال شرق فرنسا في حين كان الإنجليز يحاصرون مدينة تولون التي دانت لهم في أواخر عهد الترهيب.

وخـارج أوروبـا كانت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية قد تلقت ضربة قاصـمة في أميركا الشمالية حيث خسرت خلال حرب الـ 7 سنوات (1756 – 1763) كـندا ولويـزيانا ووادي أوهيو عموماً، وستخسر أوروبا كل مستعمراتها الأميركـية بعد نهاية تلك الحرب بسنوات قليلة مع حصول الولايات المتحدة على اسـتقلالها. لذا كان على فرنسا بخاصة وعلى أوروبا عموماً أن تتجه إلى استعمار مناطق جديدة تعويضا عن خسارتها الأميركية.

في هـذا الوقت كانت مناطق شبه القارة الهندية مسرحا للاستعمار البريطاني وموقـع تـنافس شديد بين الإمبراطوريات الأوروبية الشرهة ويشمل هذا التنافس بطبـيعة الحـال الطـريق البحـري من أوروبا إلى الهند وتحتل مصر عليه موقعا استراتيجيا.

وسـط هـذه الظـروف المضطربة على الصعيدين الداخلي والخارجي ظهر نابليون بونابرت كمخلص لبلاده. كان ظهوره الأول في معركة تولون عام 1793 ضـد الإنجليـز حيث لعبت مدفعيته دوراً كبيراً في استعادة المدينة، وكان قد لعب دوراً مهما في قمع مسيحيي الفاندي المتمردين ومن ثم في حماية نظام "الإدارة" من التمرد الملكي (5 أكتوبر - تشرين الأول عام 1795)[2].

لن يقتصر دور بونابرت على حماية النظام من الخارج فقد ذهب إلى ابعد مما يريده "المجلس" الذي كان يرغب بحرب تخفف الضغط الخارجي عن الحكم. انتصر نابليون في حملته الإيطالية ووقع إتفاقية كامبو فورميو عام 1797 التي حيّدت النمسا ووسـعت حدود الجمهورية الفرنسية في منطقة نفوذ ملكية أساسية حيث نشأت جمهـوريات في المـناطق التي اجتاحها بونابرت على حدود الراين وصارت تابعة للجمهـورية الفرنسية. ولتقدير أبعاد هذا الانتصار لا بد من التذكير إن الجغرافية والحدود الطبيعية (انهار - جبال - بحار - صحارى)كانت حينذاك عنصرا حاسما في سياسات الدول الخارجية والداخلية. فضلاً عن ذلك وفرت حملة ايطاليا الأموال اللازمة لنظام "الإدارة" المفلس.

بعد الحملة الإيطالية صار بونابرت زعيما وطنيا شعبيا في (نظام غير شعبي) علـى ما يؤكد بحق جان تولار. فما الذي يفعله بشعبيته وما الذي يفعله نظام الإدارة بجنـرال تصعب السيطرة عليه. هنا التقت مصلحة الطرفين على احتلال مـصر كمحطة للسيطرة على إمبراطورية الهند البريطانية ومجابهة بريطانيا - ما بـرحت تقود التحالف الأوروبي الدائم ضد الجمهورية الفرنسية - في الهند أي في معقلـها الأبرز تمهيدا للانقضاض عليها في عقر دارها "... لن يطول الوقت بحـسب بونابـرت - في رسـالة إلى مجلس الإدارة في 16 آب 1797 - حتى نكتـشف أن تدمير بريطانيا يمر باحتلال مصر". علما إن مشروع اجتياح مصر لم يكـن جديـدا فهو مطروح على طاولة الفرنسيين منذ انتهاء حرب السبع

(2) انقسم ملكيو فرنسا في عهد الجمهورية إلى قسمين. قسم قرر مغادرة البلاد والعمل على إسقاط نظـام الحكم الجديد من الخارج وقد أطلق على أفراده اسم المهاجرين وقسم فضل الاندماج في النظام الجديد وخوض اللعبة السياسية الديموقراطية.

ســـنوات لا بـــل إن اقتراحا تقدمت به السلطات الفرنسية إلى الباب العالي من أجل شراء هذا البلد لكنه باء بالفشل.

غزوة السيف

اختار بونابرت اللحظة المناسبة لمباغتة الأسطول البريطاني المسيطر على البحر المتوســـط والهرب منه. فقد كان يحكم بريطانيا في ذلك الحين رئيس الوزراء وليام بـــيت وهـــو حديث السن (37 عاماً) والتجربة وكانت بلاده تعاني من الإفلاس ويقوم بحارتها بتمرد في بورتسموث منذ بعض الوقت في حين تعيش ايرلندا انتفاضة عاصفة بدعم فرنسي.

أمـــا مـــصر فكانت حينذاك خاضعة للمماليك الذين يحكمونها ظاهريا باسم الإمـــبراطورية العثمانية لكنهم عملياً سادة البلاد بلا منازع وكانوا يوفرون الحماية للبيوتات التجارية البريطانية اتقاء لشر البريطانيين وخوفا من سطوتهم في حين كانوا مرتاحي البال تجاه الفرنسيين حلفاء السلطنة، الأمر الذي كان يتسبب بضرر أكيد للبيوتات التجارية الفرنسية وهي إلى جانب الإيطالية تمثل القسم الأكبر من التجار الأجانـــب في مصر وقد فرت هذه البيوتات دعما جديا لحملة بونابرت على كل صـــعيد ولعـــل هـــذا ما يفسر حديث نابليون في مصر عن إهانة المماليك للتجار الفرنسيين والاعتداء على حقوقهم.

وإذا كـــان البريطانيون على علم بحملة عسكرية بقيادة بونابرت دون أن يعـــرفوا وجهتها بدقة فان المماليك والعثمانيين لم تساورهم أية مخاوف في هذا الـــشأن ما يفسر سقوط مصر بسهولة (دامت معركة الهرم ساعتين فقط) ولعل مفاجـــأتهم ناجمـــة عـــن خبرتهم الطويلة في التحالف مع فرنسا منذ عهد الملك فرانـــسوا الأول واحترام باريس الصارم لقواعد التحالف. ولكن ما غاب عنهم هـــو أن "مجلـــس الإدارة" ارتفعت نشوته إلى السماء بعد الحملة الإيطالية وقرر تغيير قواعد اللعبة الدولية وإهمال التقاليد الدبلوماسية. ولو كان لليقظة حضور في أروقـــة السلطنة العليا ومماليك مصر لاكتشفوا دون عناء البحث المعمق أن الفرنسيين اجتاحوا حليفتهم سويسرا قبل الحملة مباشرة (بداية العام 1798) من

أجـــل تغطية تكاليف غزو مصر وزرعوا جمهوريات صغيرة في أسبانيا وكانت حليفـــتهم أيـــضاً، فلمــاذا يحتـــرمون تحالفهم مع السلطنة أكثر من احترامهم للـــتحالف مــع جيرانهـــم!! ولو كانوا على يقظة لأدركوا – اقله من خلال ســفرائهم – أن فرنــسا كانـــت تسعى منذ بعض الوقت إلى تغيير العالم على صورتها الجمهورية وتخوض حروبا لهذه الغاية[3].

تلـــك هـــي ظروف سقوط مصر السريع في قبضة بونابرت عام 1798 لكنه سقوط مؤقت ذلك أن الأميرال هوراتيو نيلسون سيدمر الأسطول الفرنسي (في أبو قـــير) بالقـــرب من الإسكندرية دون أن تصاب السفن البريطانية بخسائر جديرة بالذكر. ويسود اتفاق بين المؤرخين إن حملة مصر فشلت عسكريا ابتداء من تلك المعـــركة وان ما حصل من بعد لا يعدو كونه تداعيات لكارثة أبو قير. فقد حاول بونابـــرت التعويض عن الفشل البحري بانتصارات برية. هاجم فلسطين وتراجع أمـــام أســـوار عكا ووباء الطاعون الذي ضرب جيشه. صد من بعد حملة تركية مـــضادة في أبو قير وقهر الانتفاضات المصرية الدورية التي لم تتوقف طيلة سنوات الحملة الثلاث واضطر للهرب خفية من مصر تاركا قيادة جيشه للجنرال كليبير[4].

---

(3) تلاحظ أوجه شبه عديدة بين خلفيات ودوافع الحملة الفرنسية على مصر وخلفيات ودوافع حملة المحـــافظين الجـــدد في الولايات المتحدة على العراق وأفغانستان والشرق الأوسط عموما. لجهة العـــبث بالقواعد الدبلوماسية الدولية وإعادة النظر بالتحالفات الغربية والدعوة إلى تغيير سياسي بالعنف على خلفية ثقافية ودينية.. الخ

(4) جـــان باتيـــست كليبير رالمولود في ستراسبوغ عام 1753. كان من اشد المنافسين العسكريين لبونابـــرت ويقال إن هذا الأخير رفض اصطحابه معه في هربه إلى باريس لكي يحرقه عبر توقيع اتفاق مع الإنجليز للانسحاب من مصر. و تفيد بعض الروايات أن بونابرت ضرب موعدا للقاء بكليـــبير يوم هربه فإذا بهذا الاخير يفاجأ برسالة من قائده تفيد انه غادر مصر وعيّنه على رأس الحملـــة الأمر الذي جعله يستشيط غضباً. وبالفعل وقّع كليبير اتفاقاً مشرفاً في العريش في 24 كانون الثاني – يناير مع الأميرال سيدني سميث، غير أن الأميرال الانجليزي الاخر كيت لم يحترم بنود الاتفاق وطلب من الفرنسيين أن يستسلموا على أن يعاملوا معاملة السجناء. رفض كليبير هذه الإهانة وقرر القتال وانتصر في معركة هيليو بوليس وسيطر على أعالي النيل وبدا انه يستعيد زمـــام الأمـــور في مصر إلى أن فاجأه سليمان الحلبي بطعنات قاتلة في 14حزيران – يونيو عام 1800. دفـــن كليبير في ستراسبورغ مسقط رأسه ونبش النازيون المتعصبون للالزاس واللورين جثته خلال الحرب العالمية الثانية ثم أعيد دفنه بعد الحرب.

لكـــن هذا الأخير سيقتل بخنجر الأزهري سليمان الحلبي[5] ليخلفه الجنرال مينو[6]

---

(5) سليمان الحلبي طالب سوري ولد في قرية عفرين شمال غرب حلب عام 1777 وكان والده محمد أمين تاجر يبيع السمن وزيت الزيتون، فلما بلغ سليمان العشرين من عمره أرسله براً عام 1797 إلى القاهـــرة لتلقي العلوم الإسلامية في جامع الأزهر حيث انخرط في (رواق الشوام) المخصص لطلبة بلاد الشام في الأزهر. توطدت هناك صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي أحد قادة ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين في أكتوبر 1798، وهي الثورة التي شهدت قصف الجامع الأزهر وتدنيسه بخـــيول الغـــزاة ثم أنـــتهت إلى الحكم على ستة من شيوخ الأزهر بالإعدام كان بينهم الشيخ الـــشرقاوي الـــذي اقتـــيد إلى القلعة حيث ضربت عنقه مع أعناق الشيوخ المجاهدين الخمسة الآخرين وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم ودفنوا في قبور لا يعرف أحد مكانها حتى اليوم.

بعـــد إخماد ثورة القاهرة الأولى، تضاعفت مظالم الغزاة، وطورد كل مشبوه بانتمائه إلى المقاومة الشعبية فاختفى من اختفى، وخرج من مصر من خرج، ومنهم سليمان الحلبي الذي توجه عام 1800 إلى مـــسقط رأسه. ليس معروفا كيف نبتت الفكرة في رأس الحلبي لكن الثابت أنه التقى أثناء وجوده في القدس في مارس 1800 بمحافظ المدينة (أحمد آغا) وأن حوارا دار بينهما حول فكـــرة الإغتيال، ثم توجه الحلبي بناء على تعليمات آغا إلى الخليل ومنها إلى غزة حيث نـــزل ضـــيفا على (ياسين آغا) الذي أعطاه أربعين قرشاً تركية لتغطية تكاليف سفره إلى مصر على ســـنام ناقة في قافلة تحمل الصابون والتبغ، ولشراء سكين أو خنجر من أحد المحال في غزة وهي السكين التي قتل بها فيما بعد الجنرال كليبر.

اســـتغرقت الرحلة من غزة إلى القاهرة ستة أيام، انضم بعدها سليمان إلى (رواق الشوام) حيث أربعة فتيان من مقرئي القرآن من فلسطين هم: محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي، ابلغهم سليمان بعزمه على قتل الجنرال كليبر، وبأنه نذر حياته لتحرير مصر من الغزاة.

في صباح 15 يونيو 1800 توجه سليمان إلى "بركة الأزبكية" حيث كان الجنرال كليبر يقيم في قـــصر (محمـــد بك الألفي) الذي اغتصبه بونابرت وأقام فيه، وتتبعه إلى قصر (ساري عسكر دامـــاس) المجاور، ثم تسلل إلى حديقة القصر وتظاهر أنه فقير وله حاجة فمد كليبر يده اليسرى لـــسليمان الحلـــبي حتى يقبّلها، فأمسك بها وطعنه أربع طعنات قاتلة في كبده، وسُرّته، وذراعه الـــيمنى، وفي خـــده الأيمـــن. (يشغل مكان مقتله الآن محطة بنـــزين على ناصية شارع الألفي والجمهـــورية بالقـــرب مـــن ميدان الأوبرا). كذلك تمكن من طعن كبير المهندسين قسطنطين بروتاين ست طعنات غير قاتلة، وفر من المكان، بعد أن تلقى ضربة قاصمة على رأسه.

بعد ساعة عثر عليه اثنان من العساكر الفرنسيين هما جوزيف برين، وروبيرت في حديقة القصر والسكين في يده، والدماء تثعب من رأسه العارية. وقال الجندي جوزيف برين فيما بعد: "لقد أضـــطررنا أن نضربه بالسيف عدة مرات لكي نحمله على المشي". حكم على الحلبي بأن تُحرق يـــده اليمنى حتى عظم الرسغ حتى تحترق العظام، ثم أن يعدم بالخازوق، كما حكمت المحكمة علـــى أحمد الوالي ومحمد وعبد اللّه الغزي وسعيد عبد القادر الغزي (هارب) بالإعدام وفصل رؤوسهم عن أجسادهم على أن يتم ذلك أمام سليمان قبل إعدامه.

الذي وقع استسلاما مهينا مع البريطانيين قضى بان تنقل البواخر البريطانية ما تبقى مـــن حملة بونابرت إلى فرنسا لتكون الحصيلة هزيمة عسكرية فرنسية مجلجلة. لكن انتصار بونابرت الثقافي سيكون مدويا.

... وغزوة القلم

قـــبل بونابـــرت لم يسبق أن اجتاح فاتح عسكري بلدا أجنبيا بجيش من المثقفين الأمر الذي يطرح سؤالا كبيراً حول دوافعه الحقيقية. يعدد جان تولار بعـــض هذه الدوافع غير أن تلميذه أرنو كوانييه يضيف بعدا في غاية الأهمية إذ يـــؤكد أن بونابرت برر الحملة المصرية باسم "الحضارة" للالتفاف على أنصار التنويـــر الفرنسيين الذين انتقدوا الكولونيالية ودافعوا عن حق الشعوب بتقرير

في تمام الساعة 11. 30 من يوم 1800/06/28، نُفذ حكم الإعدام بالفلسطينيين الثلاثة أمام عيني ســـليمان، ثم حـــرقت أجسادهم حتى التفحم، ووضعت رؤوسهم على نبابيت، ثم غرس وتد الخـــازوق في مؤخرة الحلبي (تل العقارب)، وترك جثمانه المغروس في أحشائه الخازوق عدة أيام تنهشه الطيور. واعقب ذلك دفن جثمان الجنرال كليبر في (قصر العيني)، بعد تشييعه في احتفاء رسمـــي ضخم، حيث وُضع في تابوت من الرصاص ملفوفاً بالعلم الفرنسي، وفوق العلم سكين سليمان الحلبي.

بعـــد أن تولى الجنرال جاك مينو قائد القاهرة السابق قيادة الحملة الفرنسية في مصر حمل معه إلى بـــاريس عظام الجنرال كليبر في صندوق، وعظام الحلبي في صندوق آخر، وعند إنشاء متحف (أنفالـــيد) بالقرب من (متحف اللوفر) في باريس تم تخصيص رفان في إحدى قاعات العرض؛ رف أعلى وضعت عليه جمجمة الجنرال كليبر، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة "الـــبطل" الجنرال كليبر، ورف أدنى تحته وضعت عليه جمجمة سليمان الحلبي وإلى جانبها لوحة صـــغيرة مكتوب عليها: جمجمة "المجرم" سليمان الحلبي. (نقلنا الرواية بتصرف عن موقع المورق كوم).

(6) ميـــنو جـــاك عـــبدالله. تولى قيادة الحملة الفرنسية بعد اغتيال كليبر وهو من الجيل القديم من الجنـــرالات الذي تبوأوا مناصب في العهد الملكي. امتعض عندما تسلم كليبر قيادة الحملة وهو الأقدم منه مرتبة وسنا. اسلم في القاهرة وتزوج من مصرية مسلمة حتى يكسب عطف المصريين غـــير أن إسلامه لم يشفع له لدى الأهالي المتمردين الأمر الذي اضطره إلى عقد صلح مهين مع الـــبريطانيين بعد أن أصيب بمرض الطاعون وكان آخر من غادر مصر من الفرنسيين مع أسرته. في فرنـــسا اقـــنع زوجـــته المسلمة باعتناق المسيحية وعادت الأمور إلى نصابها بالنسبة لتدينه. ظـــل ميـــنو في بلاده رمزا للعار في هزيمة مصر إلا انه بدأ يستفيد مؤخرا من اتجاه متنام لإعادة الاعتبار إليه.

مصيرها بنفسها. ويرى كوانييه[7] أنه منذ العام 1750 كان الغرب يعي تفوقه المادي الذي فسّر بأنه يدين به للعقل وكان يعي تراجع الشرق الذي فسّر بأنه ناجم عن الاستبداد ما يفقد الحضارات العثمانية والفارسية والصينية مصداقيتها وهي التي كانت تسحر الغربيين قديما وتبهرهم. كان الإيديولوجيون ومنهم فولني يسوغون الاحتلال باسم "الحضارة" التي تضبط العنف وتدرج حركة الاستعمار في مفهوم هرمي لمراحل التاريخ والعصور الجغرافية المختلفة. بكلام آخر ضربت إيديولوجيا "الحضارة الغربية" المفهوم الحضاري السابق عليها لصالح تصنيف يتمحور حول مركزيتها فصار الاحتلال ليس فعلاً عدوانيا بل عملاً حضارياً. وعليه يتم تحضير الناس بالسيطرة عليهم تماماً كما تحضّر الحيوانات المتوحشة عبر السيطرة عليها. ولا يفعل مناصرو حملة بونابرت العرب سوى تأكيد هذه الصيرورة عندما يقارنون بين وحشية المماليك وتخلفهم وتنوير الفرنسيين وتفوقهم وبالتالي اختيار التنوير الوافد مع الغازي المتفوق على التخلف المقيم مع الأهل المهزومين. إذن حجة "النور" استخدمت في الانتصار والهزيمة العسكرية بحسب المفهوم الغربي وليس بقياس التقدم والتخلف المبني على الأخلاق والعقل.

إن اصطحاب جيش من المثقفين إلى مصر يندرج في هذا الإطار ويرمي إلى جعل المصريين يتلمسون التفوق الغربي العلمي أي استحالة انتصارهم على الغرب، ليس لأنهم لا يملكون وسائل الانتصار وأدواته العسكرية المبنية على الإرادة والافتخار الحضاري بل لأنهم لا يملكون المعرفة الغربية التي تجعل من التفوق المادي قدرا يصعب نفيه من جهة. ومن جهة ثانية لماذا يموت المسلم في مقاومة بونابرت دفاعا عن حضارة متخلفة وأدنى مرتبة من الحضارة الغربية المنتصرة. هكذا بعد أن انتصر بونابرت على المماليك نظّم عروضا علمية في القاهرة لكي يبرهن للقاهريين أن انتصاره على المماليك هو انتصار علمي في الأصل وليس عسكريا وبالتالي لا راد لهذا الانتصار. إنه قدري ابدي.

(7) راجع مقاله الهام المذكور أعلاه في قائمة المصادر الفرنسية.

مـــن كـــان مستعدا في أواخر القرن الثامن عشر لمواجهة هذا المنطق طالما أن أحدا لا يواجهه اليوم في عمقه فضلاً عن إهمال مناهضي الحملة بالأمس كما اليوم الخلـــل في ميزان القوى المرتسم حينذاك. فسكان القاهرة البالغ عددهم 200 ألف نسمة كان عليهم مجابهة أكثر من 30 ألف جندي فرنسي – ما يعادل ربع سكان العاصمة تقريبا – مزودين بأحدث الأسلحة المعاصرة علما أن سكان مصر بأسرها لم يكن يتجاوز الـــ 3 ملايين نسمة.

في مـــصر أراد بونابـــرت أن يثبت للمصريين أنهم ينتمون إلى حضارة خليقة بالهزيمة لأنها بالضبط تقع في مرتبة أدنى من الحضارة الغربية، وان هذه الحضارة إن هـــزمت بالـــسلاح فهزيمتها مؤقتة وغير نهائية وان المطلوب هو النظر إلى المستقبل والبـــناء على صورتها وليس على صورة الحضارة العربية الإسلامية المتخلفة بالقياس إلى الحـــضارة الغربية. يبقى انه منذ الحملة شاع هذا المفهوم التحضيري كل فترة الاســـتعمار في العالم الثالث، وذلك إلى حد بات معه من الصعب الانتباه إلى معنى اتخـــاذ بونابرت المتنور والديموقراطي قرارا باستئناف تجارة العبيد التي ألغتها الثورة الفرنـــسية في بداية انطلاقتها ناهيك عن مبادرته لإعادة الألقاب الملكية التي ألغتها الثورة وأشياء أخرى من هذا القبيل.

أمـــا الـــوجه الآخـــر للحملة الثقافية على مصر فيكمن في تعزيز اعتداد الفرنـــسي بحـــضارته وبـــبلاده وبجيشه وبعلمييه. فالمعرفة قوة حقيقية بالنسبة للفرنسي وللغربي عموما. بل هي اصل القوة. لذا اعتبر أن الإنجاز الأكبر للحملة هـــو كـــتاب "وصف مصر" وبخاصة فك رموز الهيروغليفية ناهيك عن الغنائم الأثرية التي حملها المحتلون معهم والتي مازالت تملأ المتاحف الفرنسية حتى اليوم. لقـــد كان كتاب "وصف مصر" في حينه أثرا معرفيا فرنسيا ذا أبعاد عالمية وهو ككـــل مقتنـــيات الحملة المعرفية كان يرفع من شأن فرنسا في موازين القوى المعرفية الأوروبية والدولية وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لبلد ظل طيلة قرون يلعب دوراً أساسيا على المسرح الدولي.

يبقى الوجه الفرعوني للحملة وهو يبرز بوضوح هرمية أخرى محلية ما زالت آثارها ماثلة حتى اليوم.

كان التركيز الفرنسي على الحضارة الفرعونية يريد القول أن الحضارة العربية الإسلامية عابرة في هذا البلد "الفرعوني أصلا" بنظر الثقافة المنبثقة عن الحملة والمستمرة حتى يومنا هذا. في المحصلة تبدو الحضارة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها أهل مصر متخلفة وضئيلة بالقياس إلى حضارتين مجيدتين واحدة ساحقة في قدمها والثانية حديثة عقلانية ومنتصرة بتقنيات يبرهنها العقل.

إن القول بهزيمة نابليون بونابرت في مصر يصح في جانبه العسكري، أما في الجانب الثقافي فقد حققت الحملة نصرا باهرا ما زالت آثاره ماثلة حتى اليوم ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي والإسلامي برمته.

قد يكون من سوء حظ المصريين وحظنا جميعا أن نابليون بونابرت لم يكن جنرالا فحسب بل كان عضوا في المجمع الفرنسي أيضاً وهو قارىء روسو وفولتير وفلاسفة التنوير وصديقا للإيديولوجي الأهم في حينه فولني[8] الذي أمضى 4 سنوات في مصر وسوريا ونشر رحلته الشهيرة عنها وكان بونابرت صديقا أيضاً لـ "ماغيلون" احد ابرز التجار العاملين في مصر والذين كانوا يمثلون مع الإيطاليين النسبة الأكبر من التجار الأجانب في هذا البلد وقد مولوا الحملة وشجعوا على قيامها.

لقد اجتمع السيف والقلم أصلا في قائد الحملة فلم يكن بد من أن تظهر على تلك الصورة وان تكون بلا جدال اجتياحا علميا وعسكريا في الآن معا، أما آخر انتصاراتها فهي ماثلة إلى يومنا هذا في قاهرة المعز التي تهمل عمرانها العربي الإسلامي

---

(8) كونستانتان شاس بيف المعروف بـ كونت دو فولني 1757 – 1820. حصل على مرتبة نبيل في عهد بونابرت الإمبراطوري الذي أعيدت خلاله الألقاب. سجن في عهد اليعاقبة بتهمة التعاطف مع الملكية واشترك في انقلاب بونابرت على الجمهورية لكنه رفض أن يتولى منصبا رسميا كوزير أو قنصل في العهد القنصلي الذي مهد لعهد بونابرت الإمبراطوري. لكنه انتخب نائبا لرئيس مجلس الشيوخ واستقال من بعد ليتفرغ للكتابة. وهو فيلسوف ومستشرق تعلم اللغة العربية في دير مسيحي في جبل لبنان. عين في 6 ديسمبر – كانون الأول عضوا في المجمع العلمي الفرنسي وأسس جائزة حول أفضل عمل في اللغات الشرقية. وكان قد تجول خلال 4 سنوات في مصر وسوريا وعاد عام 1787 إلى فرنسا لينشر نص رحلته التي جلبت له الشهرة. كان من اكبر واهم منظّري حملة نابليون المصرية.

وتتنكر لمؤسسها بينما تنبت في أرجائها مومياءات فراعنة آلاف القرون المنصرمة... يا له من نصر مذهل!!![9]

كان لا بد من إضافة هذه العناصر لتوسيع إطار الحديث عن الحملة الذي يـــرد مفصلا وبالقدر الأكبر من الموضوعية في نص جان تولار. وقد نشر هذا النص في مجلة l'histoire الفرنسية الشهيرة في تشرين الثاني – نوفمبر عام 1983 وكاتـــبه ربما يعتبر الإختصاصي الأبرز في تاريخ نابليون بونابرت العام والخاص وقـــد وضع مؤلفات عديدة حول الحقبة البونابرتية التي طبعت فرنسا وأوروبا والعالم، ويحظى المؤلف بسمعة طيبة في بلاده وفي الأوساط الدولية المهتمة بهذه الفتـــرة وذلك لاتسام أعماله بالموضوعية والإنصاف ودائما في الإطار المنهجي الـــثقافي للهـــرمية المشار إليها على لسان تلميذه الوارد ذكره في السياق. فإلى النص.

(9) من مفارقات حملة مصر أن نابليون بونابرت جلب معه إلى فرنسا حارسا مملوكيا يدعى روستان بقي معه حتى مماته. وفي مصر نظم كليبير فرقة مملوكية سماها مينو من بعد "مماليك الجمهورية" وقد عادت هذه الفرقة مع الفرنسيين وشاركت في معركة أوسترليتز وتشير بعض الروايات إلى أن المقاتلين المماليك لعبوا دوراً مهما في هذه المعركة ويقال إنهم شاركوا أيضاً في واترلو، لكن الأمـــر المؤكد هو أن من بقي من المماليك وعائلاتهم تعرض للابادة على يد الفرنسيين في مدينة مارســـيليا بعـــد هزيمة بونابرت في واترلو. من جهة ثانية أجرى السيد دومينيك بوديس دراسة حول الفرنسيين الذي بقوا في مصر ولم يرغبوا في العودة إلى بلادهم مع عساكر الحملة وتبين له ان هـــؤلاء اندمجـــوا تمامـــاً في المجتمع المصري لكنهم احتفظوا باسماء تشير إلى مناطق سكنهم الفرنسية. مثال: محمد التولوزي نسبة إلى مدينة تولوز وعلي المارسيلي نسبة إلى مدينة مارسيليا. تبقى الإشارة إلى ارتكاب الفرنسيين مجازر رهيبة خلال حملتهم المصرية من ضمنها اغتيال 4000 آلاف أســـير في عكـــا وتدمير كل المدن التي مرت فيها الجيوش الفرنسية في طريق عودتها إلى القاهـــرة. ويـــروى أن نابليون طلب من أطبائه قتل المرضى الفرنسيين بالطاعون غير أن هؤلاء رفضوا قائلين نحن هنا لنشفي المرضى لا لنقتلهم.

مـــن مظاهـــر الوحشية الأخرى في الحملة طلب نابليون من قادة جيشه في العام الثاني قتل ستة أشـــخاص يومـــيا على الأقل لترهيب السكان وقصف مظاهرة قاهرية بالمدفعية واقتحام الأزهر بفرق الخيالة... إلى غير ذلك من البشاعات الأخرى التي يروي تفاصيلها عبد الرحمن الجبرتي في كـــتابه الشهير عن الحملة "عجائب الآثار في التراجم والأخبار". ويتجاهلها جان تولار في نصه الوارد في هذا الكتاب.

حملة نابليون بونابرت على مصر
غريبة الأطوار... لكنها تنطوي على فوائد

بقلم: جان تولار

لا يـوجد في تـاريخ بلادنا حملة غريبة الأطوار كحملة مصر عام 1798 م. وهـي غريبة الأطوار لأنها اقتضت إرسال أفضل جيش في فرنسا في بواخر معرضة للأسر أو للغرق بواسطة الأسطول الإنجليزي الذي كان يسيطر على البحر المتوسط بـلا منـازع، وغريبة الأطوار لأن رجالها استقلوا البواخر دون أن يعرفوا وجهة السفر. وغريبة الأطوار أيضاً لأنها قضت باجتياح بلد في شهر تموز - يوليو حيث الحرارة شديدة الارتفاع، ما يفصح عن جهل كامل بمناخه، ناهيك عن أننا لم نعلن الحرب على هذا البلد من قبل.

من جهة ثانية كانت هذه الحملة غريبة الأطوار لأن غرضها المعلن هو تأسيس مـستوطنة في وقت كنا نطرح فيه شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وبلغت الغرابة قمتها عندما تحول الجيش الفرنسي المحتل إلى أسير لاحتلاله وأصبح غـير قـادر على العودة إلى فرنسا، في حين تخلى عنه قائده (بونابرت) وعاد إلى بـاريس من أجل إنقاذ الجمهورية التي كانت مهددة من قوى مؤتلفة كان تكتلها متوقعا منذ وقت طويل.

لكـن على الرغم من غرابة أطوارها فان حملة مصر قد غيّرت وجه التاريخ. فهـي أتاحـت ولادة علـم عـبر اكتـشاف أمجاد حضارة إن لم تكن منسية فقد أصبحت غامضة. Egyptologie المصريات فقد أصبحت غامضة. وأتاحت الحملة انطلاقة اقتصادية لمـصر وأعـادت لها مكانة في الشرق الأوسط كان يبدو أنها فقدتها. لهذا كله ما زالـت هـذه الحملة تمارس تأثيرا خلابا رغم أنها ليست الأكثر إبهارا بين حملات بونابـرت. ولهـذا أيـضاً ما برحت بيبليوغرافيا الحملة تغتني بأعمال جديدة في السنوات الأخيرة. فقد أعيد نشر كتاب بنوا - مشان والسيرة الذاتية لـ (فيليبو) الفرنسي الملكي المدافع عن عكا وحليف الإنجليز.

والطـــبعة الأصلية ليوميات احد الأشراف المصريين (عبد الرحمن الجبرتي) في القاهرة بين 1798 – 1801. والتي أنجزها جوزيف كيوك. ورسومات غير معروفة لنويل ديوجين مرفقة بتعليقات رائعة لفرناند بوكور. وإحصاء للأطروحات الجامعية التي تناولت الحملة أعدها ج – أ – غوبي... الخ

بعد إعلان سلام كامبيو – فورميو عام 1797 أصبح نابليون بونابرت الجنرال الأكثر شعبية في الجمهورية. كان جنرالا شعبيا في نظام غير شعبي، وبالتالي عليه أن يستخلص النتائج الملائمة من هذه الوضعية.

وبمـــا انه يتمتع بحس سياسي ما أنفك يميزه، فقد خلص إلى أن قيامه بانقلاب على هذا النظام لم يحن أوانه بعد. ذلك أن حكم (الإدارة) [كان مؤلفا من مجلس يـــضم 5 مديرين يتولون السلطة التنفيذية ودام من 1795 إلى 1799 وقلبه بونابرت الـــذي أقام على أنقاضه النظام القنصلي ليصبح إمبراطورا من بعد]. كان ما زال صـــامدا وصـــلبا بعد أن تخلص من خصومه اليمينيين (التيار الملكي) واليساريين (اليعاقـــبة) معاً. ناهيك عن أن الرأي العام كان ما زال متحفظا حيال الجنرالات الـــسياسيين خـــصوصاً بعـــد الـــتجارب الفاشلة للجنرالات لافاييت وديموريز وبيـــشيغري. يـــضاف إلى ذلـــك أن شعبية بونابرت لم تكن ناتجة عن انتصاراته فحسب وإنما عن إخلاصه للشرعية وهو إخلاص برهن عليه وأكده دائما، لذا كان تجاوزه للشرعية أو الإيحاء بهذا التجاوز يعد بالنسبة إليه موقفا انتحاريا.

كان عليه إذن أن ينتظر اللحظة المناسبة وأن يذكر بوجوده دائما. هكذا عمل علـــى أن ينتخب عضوا في المجمع الفرنسي في 25 كانون الأول – ديسمبر 1797 لكـــن ذلك لم يكن كافياً لجذب الانتباه طويلا إليه، فخلص إلى أن حملة عسكرية كبيرة، ضرورية لكي يبقى في قلب الأحداث. لكن إلى أين تتجه هذه الحملة؟ هل يمكـــنه استعادة مشروع سابق لشن حملة عسكرية على انجلترة؟ هذا الخيار بدا له مليـــئا بالمخاطر والمحاذير، فقد اخفق هوش من قبل و لم يكن بونابرت واثقا من انه سيفعل أفضل من سلفه.

في هـــذا الـــوقت، وتحديدا في 3 تموز – يوليو 1797م قرأ تاليران (وزير الخارجية)دراسة خلال جلسة عامة للمجمع (الفرنسي) حول الفوائد التي يمكن

جنـــيها مـــن المستعمرات الجديدة في الظروف الراهنة. وذكر في هذه الجلسة بمشروع أعده شوازيل وينادي بالتنازل عن مصر لفرنسا. فمصر كانت في حينه (على الموضة) إذ في العام 1785م كان سافاري قد نشر رسائله عن مصر وبعد عـــامين أطلـــق فولني رحلته إلى مصر وسوريا، قبل ذلك لم نكن نعرف أشياء كـــثيرة عـــن هذه المقاطعة التابعة للإمبراطورية العثمانية ولم يكن ماضيها المجيد معـــروفا بطريقة جيدة. لكن لماذا الاستيلاء على مصر؟ الجواب نجده عند تاليران[10] الذي كان يقول بنهاية السيطرة التركية على الشرق الأوسط وأوروبا ويرى انه لا بـــد مـــن الإفادة من ذلك وبالتالي القبض على تركتها والحفاظ على تجارة فرنـــسا في الـــشرق. وفي 27 كانـــون الثاني - يناير 1798 حدد تاليران نواياه بوضـــوح: (... لـــن تستمر الإمبراطورية العثمانية أكثر من 25 سنة وستكون مقاطعاتها الأوروبية فريسة لإمبراطوريتين، وهذا مناقض بالطبع لرأي مونتسكيو الـــذي قـــال في مكان ما (... ستدوم الإمبراطورية العثمانية طويلا لأنها عندما تتعـــرض للتهديد من أي قوة، ستهب الأمم التجارية الكبرى الثلاث لنجدتها) مهمـــا يكـــن مـــن أمر فإذا ما تأكدت حسابات الذين يعرفون الإمبراطورية

(10)تاليران (1754 - 1838) ينتمي إلى عائلة من النبلاء. أصيب بعرج في رجله في سن الرابعة حال دون أن يصبح جنديا لكنه تلقى علوما دينية. طبع الدبلوماسية الفرنسية بين العام 1790 و1838 . كان مقربا من ميرابو في سنوات الثورة الأولى ومن دعاة الاعتدال وفي العهد المونارشي نصح الملكـــية المـــنهارة باعتماد سياسة مسالمة ومعتدلة وقبول الآخرين للحفاظ على النظام دون أن يـــصغي احـــد لأقـــواله. في الجمهـــورية الصاعدة كان يؤكد أن "الاحتلال والحرية تعبيران متناقـــضان". وكـــتب في العام 1792 يقول ".. الغنى لا يعني السيطرة على ممتلكات الغير وإنما إعطـــاء قـــيمة للممتلكات الفرنسية. ذلك أن الأراضي الفرنسية تكفي الفرنسيين. والجمهورية الفرنـــسية يمكن أن تكون نافذة في أوروبا من خلال نموذجها وليس بواسطة القوة". كان وزيرا للخارجـــية في عهد "مجلس الإدارة" في العام 1797. وخدم مصالح نابليون بونابرت وكان من المقـــربين مـــنه بعد انقلاب برومير وصار أيضاً وزيرا لخارجيته لكنه انقلب عليه وكتب بنفسه وثـــيقة خلعـــه عام 1814 ليلتحق بخدمة لويس الثامن عشر الذي عينه وزيرا للخارجية وختم حياته في عهد لوي فيليب دورليان كسفير في لندن.

اعتبر من ابرز الدبلوماسيين في تاريخ فرنسا فقد خدم بمهارة أكثر السياسات تطرفا دون أن يكف عن انتقادها في السر وكان يتمتع بموهبة الكاتب ويهوى الشعر ويمتلك صفات رجل الدولة من أقواله الشهيرة أن "وزير الخارجية يجب ألا يكف عن أن يكون وزيرا للخارجية طيلة 24 ساعة"

العثمانية أفضل من غيرهم فان على الجمهورية (الفرنسية) أن تتخذ تدابير تتيح لها اقتطاع الأجزاء التي تناسبها من التركة العثمانية، وأضع مصر في المقام الأول وبدون تردد، وجزيرة كريت وليمنوس. إن مصر التي جعلتها الطبيعة قريبة جدا منا تقدم لنا فوائد جمة في العلاقات التجارية سواء مع الهند أو مع غيرها. فضلاً عـن إن مـناخها وأرضها يمكن أن تغنينا عن مستعمراتنا في الهند الغربية. أما جزيرتا كريت وليمنوس فهي تجعلنا أسيادا في أرخبيل بحر إيجة ومضيق الدردنيل لكن التمتع بهذه الانتصارات يفترض ارتياد جزيرة مالطا بحرية).

وعمـا سيكون موقف القسطنطينية من هذا التوجه؟ يرد تاليران قائلاِ: (... لمـاذا يجب أن نواصل بذل التضحيات لمصلحة قوة تقترب من حتفها، وصداقتها ملتبسة؟ ثم إن مصر لا تمثل شيئاً بالنسبة لتركيا ولا سلطة للأتراك عليها).

في 14 شـباط – فبراير عام 1798م تسلم حكم الإدارة تقريرا حول (المسألة المـصرية) ورد فـيه: (.. إن مـصر الواقعة في عقدة مواصلات بين أفريقيا واسيا وأوروبا لا ينقصها إلا حكومة عاقلة تكشف عن الكثير من مصادر الغنى والرخاء فـيها. يجب أن يعاد فتح طريق السويس أمام التجارة مع الهند بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح المكلف الطويل. ينطوي هذا المشروع على ثورة اقتصادية، وسيكون في حـال تنفيذه بمثابة ضربة قاصمة للانجليز، ويخدم مصالح فرنسا بسبب موقعها علـى البحـر المتوسـط. إن شعوب أوروبا، ستفقد عاجلا أو آجلا مستعمراتها الأميركـية ولـن تحظى فرنسا بتعويض أفضل من هذا التعويض). وكانت أجهزة تـاليران تحرص على لفت الانتباه إلى انه بعد احتلال مصر، يمكن لفرنسا أن ترسل حملـة عسكرية من السويس إلى الهند وتتصل بسلطان هندي محلي (دعمته فرنسا بعد أن طرد الإنجليز من مقاطعته عام 1784 م). وكانت الأجهزة نفسها تؤكد أن انجلتـرة لا تستطيع أن تتصدى للحملة على مصر، إذا تمت بسرية، لأنها ستكون مضطرة ساعتئذ لمواجهة احتمال إنـزال بحري على شواطئها. وتشير أيضاً وأيضاً إلى أن روسيا وبروسيا والنمسا لا يمكنها أن تحتج على الحملة المصرية، لأنها منشغلة بهـضم بولونـيا، ولا يمكـن أن تحتج وهي نفسها شطبت المملكة البولونية عن الخارطـة. وأخـيرا كانت الأجهزة تطمئن بأنه يمكن إرسال بعثة إلى القسطنطينية

للحصول على رضا الباب العالي. ذلك كله لا يدع مجالا للشك أن تاليران هو صاحب فكرة الحملة على مصر. لكن متى فكر نابليون في هذه الحملة؟

إذا ما رجعنا إلى يوميات ديزيه[11] نلاحظ أن بونابرت ربما تحدث عن الحملة المصرية للمقربين منه خلال حملة ايطاليا. ومن المعروف انه قرأ كثيراً عن الشرق في مذكرات البارون توت وفي تاريخ العرب لماريني فضلاً عن تاريخ الأب رينال حول الهند الشرقية والغربية. ويمكننا أن نؤكد انه كان على علم بأفكار تاليران. هكذا بدا له انه لابد من اغتنام هذه الفرصة الجيدة. أليست هذه الوسيلة المناسبة للابتعاد مسافة عن حكم (الإدارة) وترك الأوضاع تتفاقم في البلاد؟ خصوصاً أن الانتصار في هذه الحملة بدا له سهلا بحسب تأكيدات القنصل ماجلان. وأخيرا الشرق يستجيب لخيال بونابرت فالتوجه نحو الهند عبر مصر يضعه في منزلة الإسكندر المقدوني.

طرح كثير من المؤرخين فرضية تقول إن بونابرت كان يحلم بإقامة إمبراطورية يمكن رسم حدودها في مناطق سيطرة الأتراك، وتحدث كثيرون عن الحلم الشرقي لبونابرت من ادوار دريو إلى بنوا – مشان وتداولوا صيغا عديدة لهذه الإمبراطورية، لكن هذه الصيغ ربما كانت تهدف إلى خلط الأوراق وطمأنة حكم الإدارة إلى نواياه. وهو نفسه رجع إلى هذه الفترة في جزيرة القديسة هيلانة، لكنه لم يفصح عن حقيقة نواياه في العام 1798 م. في كل الحالات كان بونابرت يبدو خلال حملة مصر وكأن أنظاره موجهة نحو فرنسا وان الحلم الغربي عنده يتغلب على الحلم الشرقي.

وإذا كان صحيحا أن هذه الحملة تندرج تماماً في السياسة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، فإن النظر إليها عن قرب يتيح القول بأنها كانت خيارا

(11) الجنرال ديزيه 1768 – 1800: كلفه بونابرت باحتلال منطقة أعالي النيل وتولي الحكم فيها. فعل ذلك بنجاح باهر من علائمه انه لقب بـ "السلطان العادل". بعد مغادرة نابيلون مصر طلب منه كليبير عام 1799 أن يعود إلى القاهرة للتفاوض مع الأتراك والإنجليز ونجح في توقيع اتفاق العريش في كانون الثاني 1800 ثم غادر إلى باريس في 3 مارس وذهب إلى ايطاليا حيث قتل بعد شهور عن عمر لا يتعدى الـ32 عاماً.

جنونـــيا، لأن احتلال مصر كان سيحرم فرنسا حينذاك من جيش وجنرال مجربين في وقـــت كانت فيه مهددة بالحرب. ناهيك عن انه كان من الصعب ضمان اتجاه هذه الحملة، هذا إذا أهملنا رد الفعل التركي، لأنه وعلى الرغم من الأقوال المطمئنة، فـــان الحملة تنطوي في الحد الأدنى على خطر التخلي عن الحليف العثماني. كان ينبغـــي إذن أن يذهب تاليران إلى القسطنطينية كي يشرح للسلطان (سليم الثالث) بان الأمر لا يتصل بعمل حربي ضده، لكن هذه الزيارة لم تتم لأسباب مختلفة.

لقـــد بـــدا تاليران مستخفا عندما توجّه نابليون نحو مصر، وبخلاف الاعتقاد الـــسائد يـــروي جـــوزف (بونابرت) إن أخاه كان مترددا كثيراً و لم يكن شديد الحمـــاس لأنه كان يحسب إلي أي مدى كان هذا الرهان جزافيا، ويؤكد على ذلك فوشـــيه[12] الذي يروي في مذكراته أن بونابرت كان يشعر بان حملة مصر هي فخ نصب له. تفسير ذلك أن حكم (الإدارة)كان بالتأكيد، ينظر بعين الرضا، إلى ابعاد جنـــرال مـــربك للغايـــة، عن باريس. لكن رغم ذلك كله كان نابليون يستعجل الاستعدادات، فغادر في 4 أيار – مايو إلى تولون... ومنها انطلقت الحملة.

تم التحـــضير للحملة وسط إجراءات سرية للغاية كي لا تتسرب أخبارها إلى الانجليز المسيطرين على البحر المتوسط وكي يتمكن الأسطول الفرنسي من الإبحار خفـــية. لذا لم يبلغ الجنود بوجهة الحملة. مثال ذلك أن ميرا[13] الموجود في حامية

---

(12)جوزيـــف فوشيه. (1759 – 1820) سياسي فرنسي تقلب في عهود مختلفة. كان ثوريا في عهد الـــثورة وإمـــبراطوريا في عهد الإمبراطورية وملكيا في العهد الملكي العائد. شغل منصب وزير الداخلية في كافة العهود المذكورة وطرد من منصبه مرة واحدة في عهد بونابرت بسبب عداوة نـــشبت بيـــنه وبين شقيقين من أشقاء الإمبراطور. عرف بنفوذه الواسع جراء منصبه سواء في فرنسا أو أوروبا.

(13)يواكـــيم ميرا (1767 – 1815): ينتمي إلى أسرة كانت تدير نـــزلا لكنه لمع في الجيش وحصل علـــى ألقـــاب ومناصب عليا. التقى نابليون بونابرت في العام 1795 وسيغير هذا اللقاء سيرة حـــياته. شارك في حملة ايطاليا ومصر. وساهم في تسلم بونابرت السلطة في 18 برومير إذ فرق بخيالـــته بجلس الـــ 500 مئة الكبار الذين رفضوا انقلاب بونابرت. تزوج من كارولين شقيقة الإمبراطور. في العام 1805 صار أميرا بعد إعادة الألقاب وتسلم عرش ايطاليا ليصبح ملكا على نابـــولي وألغـــى النظام الإقطاعي فيها. قتل بعد هزيمة بونابرت في واترلو بعد ان رفض النظام الملكي تثبيت ولايته الايطالية.

ايطالـــيا، تلقى أمرا بالانتقال إلى ميلانو، وفيها تلقى أمرا آخر بالذهاب إلى جنوى بـــسرعة قـــصوى، وعلـــم فقط انه سيقود اللواءين 14 و18 دراغون في (الحملة الكبيرة) التي ما انفكت وجهتها مجهولة.

في مثل هذه الظروف تم تحضير الحملة واستغرقت الاستعدادات شهرا واحدا، لأن التأخير كان ينطوي على خطر تسرب أخبارها إلى الانجليز. أما تغطية نفقات الحملة فقد تمت بواسطة الأموال التي أخذت من سويسرا أثناء التدخل الفرنسي.

خـــيّم ذهـــول كـــبير على العسكريين عندما شاهدوا مثقفين واختصاصيين يصعدون إلى البواخر: 12 عالم رياضيات و3 علماء فلك و16 مهندسا مدنيا و13 عالم طبيعيات و5 مهندسي مناجم و4 مهندسين معماريين و8 رسامين و10 أدباء و 22 اختـــصاصيا في الطـــباعة مجهزين بأحرف لاتينية ويونانية وعربية... أما لائحة الشخـــصيات المعـــروفة والتي أعدت للرحلة فهي مثيرة للدهشة، ومن بين هؤلاء: مـــونج وبيرتوليه وجوفروا سان هيلير وعالم الآثار جومار وفيفيان دونان وكونتيه المـــشهور بأقلام الرصاص والشاعر بارسيفال غراند ميزون وفنان تشكيلي وعازف بيانو.. هكذا لم تشمل الحملة أفضل جيوش فرنسا فحسب (35 ألف رجل) وإنما أيـــضاً نخبـــتها العلمية. لكن لماذا كل هذا الحشد من الاختصاصيين؟ هل يعبر عن إرادة بإدراج الحملة ضمن التقليد العظيم للرحلات العلمية في القرن الثامن عشر؟ أم أنه ذريعة لتغطية الاحتلال؟ في كل الحالات يمكن لنا أن نتخيل حجم الكارثة لو أن نيلسون[14] اعترض هذه الحملة في البحر.

---

(14)الأمـــيرال هوراســـيو نيلسون (1750 – 1805) يعتبر من ابرز البحارة المقاتلين في العالم ومن ابرز الذين وضعوا حدا لأحلام نابليون بونابرت التوسعية في أوروبا وكان كابوسا حقيقيا للفرنسيين في حـــين اعتـــبره مواطـــنوه سدا وطنيا في مواجهة الإمبراطور الفرنسي الفاتح. بدأ حياته العسكرية البحـــرية في الهند عام 1777 لكنه سرعان ما أصيب بالحمى وعاد إلى بريطانيا ولن يركب البحر مجددا إلا مع انتصار الثورة الفرنسية، وانخرط في مواجهتها كبقطان أولا ثم كأميرال وقد أصيب في كل المعارك البحرية مع الفرنسيين وقتله قناص في البحرية الفرنسية. في العام 1794 أصيب بشظايا قنـــبلة في عينه أثناء حصار مدينة تولون الفرنسية. في العام 1795 فقد عينه اليمنى. في العام 1797 أصـــيب بجرح في يده اليمنى تسبب بقطعها. في العام 1798 أثناء قيادته لمعركة أبو قير أصيب في عيـــنه مجـــددا وفي العام 1805 اغتاله القناص البحري الفرنسي روبير غيامار. كان طيلة سنوات خدمته لا يكف عن ملاحقة الفرنسيين ومطاردتهم في البحار.

أبحرت في 19 أيار – مايو 1798 مائتا سفينة جاءت من ايطاليا. كيف توصل أسطول بهذه الأهمية إلى الإفلات من رقابة الإنجليز البحرية؟ لقد أخطأه نلسون مرتين لكنه واصل تقدمه وفي طريقه استولى بونابرت على مالطا التي يمكن استخدامها محطة وفيها فقط عرف المبحرون رسميا بهدف الحملة. وفي أول تموز – يوليو نزل الفرنسيون في الإسكندرية، فكانت مفاجأة تامة لسكانها الذين لم يكن لديهم أي دليل يسمح بتوقع مثل هذا العدوان لذا كانت مقاومتهم محدودة.

في 2 تموز – يوليو، وجه نابليون بمهارة، بلاغا للسكان أشار فيه إلى انه: (... منذ زمن طويل يشتم البكوات الذين يحكمون مصر، الأمة الفرنسية، ويحيطون تجارها بالإهانات. ها قد حان وقت عقابهم).. لكنه لم يأت لعقاب المماليك فقط وإنما كمحرر: (... إن وجدت أراض جيدة فهي لهم. وان وجدت جارية جميلة أو وجد حصان جميل أو بيت جميل فهو لهم. إذا كانت مصر مزرعة للمماليك فليبرزوا عقد الملكية الذي أعطاه الله لهم... لا فالله عادل ورحيم للشعب المصري)... وبما انه عادل ورحيم فقد اختار بونابرت بطل المساواة كي يأتي إلى مصر ويحرر المصريين. ولئن قيل انه كافر، فهذا غير صحيح: (... أنا احترم الله ونبيه والقران أكثر من المماليك) ويضيف في بلاغه قائلا: (... السنا نحن الفرنسيين الذين قضوا على البابا الذي طالب بمحاربة المسلمين. الم ندمر فرسان مالطا، لأن هؤلاء التافهين كانوا يعتقدون بان الله أمرهم بمحاربة المسلمين؟ الم نكن في كل القرون أصدقاء الصدر الأعظم – حقق الله رغباته – وأعداء أعدائه. بالمقابل الم يتمرد المماليك دائماً على سلطة الصدر الأعظم وهم لا يعترفون بسلطته حتى الآن؟).

يظهر هذا البلاغ أن نابليون استعلم جيدا حول ما يدور في مصر التي كانت خاضعة بالفعل للماليك، وسيطرتهم عليها ناتجة عن سلسلة من التطورات. فخلال الاحتلال العثماني أطلق الأتراك يد الحامية المؤلفة من الإنكشاريين الذين تولوا شؤون البلاد. وكان الانكشاريون يجندون حينذاك من أبناء الأسر والرعايا المسيحيين، ثم يتلقون تربية إسلامية فيصبح ولاءهم حصرا للدولة. وكانوا يمنعون من الزواج ومن ممارسة نشاطات أخرى غير النشاط العسكري. واتسع التجنيد

الإجباري من بعد وصار يشمل أبناء المسلمين الذين كان يحق لهم الزواج، فأسسوا عائلات وصاروا يزاولون مهنا أخرى لتغطية النقص في مداخيلهم، ومن بعد اتسعت هذه الشريحة العسكرية حتى صارت تشمل العبيد الذين جاء بهم العثمانيون من القوقاز ومن بين هؤلاء انبثق المماليك.

كان المماليك يسيطرون على شعب من الحرفيين الصغار والفلاحين وأصحاب الدكاكين الذين يتحملون بفارغ الصبر عبودية باتت خارج التاريخ. لقد كان انحطاط مصر على الصعيدين الاقتصادي والسياسي أمرا لا جدال فيه في هذا الوقت من نهاية القرن الثامن عشر. لكن احتلالها لم يكن بمثل السهولة التي كانت متوقعة، حيث أعدت الحملة الفرنسية على جناح السرعة واجتاح الفرنسيون مصر في تموز - يوليو بواسطة تجهيزات لم تكن ملائمة أبدا لارتفاع الحرارة الشديد في هذا الفصل. وتؤكد ذلك شهادات الجنود الذين ضربتهم حمى الزهار وحمى أخرى متنوعة. دون أن ننسى أنهم كانوا يفتقرون إلى أي دافع لاحتلال مصر، وذلك بخلاف معارك فالمي[15] وجيماب[16] حيث كانوا يدافعون عن مسقط رأسهم. لهذا انتشرت بينهم شائعات نجد صداها في رسالة بعثها فرانسوا بيرنوابيه مدير ورشة الملابس التابعة للجيش، إلى زوجته ويقول فيها: (... لقد استعلمت حول ما كانت حكومتنا تنوي عمله، عبر إرسالها جيشا للتمركز في أراضي الصدر الأعظم، بدون إعلان حرب وبدون أي دافع معلن. كان يكفي لفهم ذلك التمتع بقليل من الفطنة. ذلك أن بونابرت أصبح لديه الكثير من التأثير في فرنسا بفضل عبقريته وبفضل الانتصارات التي حققها بواسطة جيش بات لا

(15)معركة فالمي (20 أيلول - سبتمبر 1792) تعتبر من ابرز معارك الدفاع عن الجمهورية الفرنسية. هاجمت النمسا وبروسيا والقوى الملكية الفرنسية قوات الجمهورية وتركزت المعارك في فالمي حيث ربح الجمهوريون الحرب بواسطة المدفعية وقد أشيع حينها أن دانتون احد زعماء الثورة رشا قائد القوات المهاجمة الدوق شارل دو برونزويك بمجموعة من الماسات سرقت من التاج الفرنسي واختفى أثرها قبل أربعة أيام من نهاية المعركة لكن أسبابا أخرى طرحت لتفسير هزيمة المهاجمين من بينها أن هؤلاء كانوا منهكين وأصيبوا بمرض حمى الزهار وعانوا من التعب الشديد. اعتبرانتصار الجمهورية في فالمي حدثا أساسيا في مصير النظام الفرنسي الجديد.

(16)جيماب (6 تشرين الثاني - نوفمبر 1792) هي المعركة الثانية في الدفاع عن الثورة الفرنسية بمواجهة أعدائها. وقعت بالقرب من بلجيكا انتصر فيها الثوريون بفضل تفوقهم العددي.

يقهر. لقد صار بونابرت مزعجا حتى لا أقول عقبة بالنسبة لأولئك الذين يقبضون على زمام السلطة في فرنسا. فأرسل إلى مصر. ولم أتمكن من كشف أشياء أخرى غير ما ذكرت).

إن جيشا يضحى به لا يمكن أن تكون معنوياته مرتفعة، وهذا ما يفسر وقوع حالات انتحار في صفوفه.

وأخيرا أعاد انتصار الأهرام في 21 تموز - يوليو، على أبواب القاهرة، بعض الأمل للجنود، وعلى أبواب القاهرة يقال أن نابليون خاطبهم بقوله: (... أيها الجنود إن تاريخ أربعين قرن ينظر إليكم). لكن يبدو أن هذه العبارة صاغها بونابرت في جزيرة القديسة هيلانة أثناء إملاءاته الشهيرة التي روى خلالها مذكراته.

هذا الحماس لن يدوم طويلا، ففي أول آب - أغسطس، فاجأ نيلسون الأسطول الفرنسي في ميناء أبو قير، فتحطم كله تقريبا، وعليه صار نابليون المنتصر أسير انتصاره، ولاحت هذه المرة الكارثة بعينها. لذا بدأ تاليران في باريس يبتعد عن الحملة ويلقي بمسؤليتها على دولاكروا سلفه في وزارة العلاقات الخارجية. لكن بونابرت ليس من النوع الذي يستسلم بسهولة. فابتداء من هذه اللحظة، قرر أن يطور مصر ومن هذه اللحظة ستبدأ المرحلة الأكثر روعة في الحملة.

في 22 تموز - يوليو ومن خلال بلاغ وجهه لأبناء القاهرة نجد عناصر خطة التطوير المذكورة: (... يا شعب القاهرة أنا راض عن سلوككم. لقد أحسنتم صنعا بعدم مناهضتي. لقد جئت إلى مصر بهدف القضاء على عرق المماليك، وحماية تجارتها ومصادرها الطبيعية. إذن فليطمئن أولئك الذين يشعرون بالخوف، وليرجع إلى منازلهم أولئك الذين هربوا خوفا. ولتتم الصلاة اليوم كالعادة وأريد أن تتواصل دائما. لا تخافوا على عائلاتكم ومنازلكم وممتلكاتكم، ولا تخافوا بصورة خاصة على الدين وعلى النبي الذي أحبه. وبما انه من الملح ألا يضطرب الهدوء، فسيقوم لهذه الغاية ديوان (حكومة)من 7 أشخاص يجتمعون في مسجد الأزهر. وسيكون اثنان مع قائد المدينة وسيهتم 4 بحفظ الهدوء العام والإشراف على الشرطة).

قام فرانسوا شارل بعمل جردة حساب لما فعله الجنرال في الأرض المحتلة، في كتابه (بونابرت في مصر) ويتبين منها انه غداة معركة الأهرام، جرى تركيز 4 مستشفيات عسكرية في الجيزة وبولاق والقاهرة والقاهرة القديمة. ويرى الكاتب أن: (الطب دخل إلى هذا البلد الذي يقال انه كان مهده الأول، وذلك على يد دو جينيت الطبيب المسؤول عن الحملة، ولاري رئيس جراحي الجيش، وسائر أطباء الجهاز الصحي). وألقت أطروحة جامعية راهنة أعدها سيرج جاغايو الضوء على الطب والصحة في مصر في القرن التاسع عشر، وحول التأثير الذي خلفته المستشفيات العسكرية الفرنسية، في نهضة الطب في هذا البلد.

والنتائج الإدارية للحملة مهمة أيضا. ففي المجال المالي نظمت الضرائب وأصبحت موحدة ووزعت بعدالة وتبعا لنوعية الأراضي وأحصي السكان. وحصرت علاقات التجار والحرفيين بالمحاكم العسكرية وذلك لحمايتهم من ابتزاز المماليك.

وحتى يواصل تغطية مصاريف جيشه لم يتردد بونابرت بالاستيلاء على أملاك المماليك. ووطد الجمارك في القاهر ة وانشأ فيها دارا للعملة، تولى مسؤوليته بيرتوليه وكوستاز ومونج. هكذا بذل نابليون ما بوسعه لكسب عطف المصريين، وفي طليعة مساعيه احترام المعتقدات وضرب إقطاعية المماليك. وباشر سياسة تنفيذ أشغال كبيرة من ضمنها مبادرة المهندس لوبير بتحضير مشروع لوصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عبر برزخ السويس. وأصلحت قنوات الري القديمة من أجل إحياء الزراعة.

وعلى الصعيد الثقافي انشأ بونابرت الذي كان يوقع بلاغاته بوصفه عضوا في المجمع الفرنسي، مجمعاً مصرياً على النمط الفرنسي نفسه. ونشر صحفا من بينها بريد مصر والعقد المصري. غير أن الاهتمام الأكبر تركز حول ماضي مصر. وكان ملفتا أن يثير هذا الماضي اهتمام الجنود العاديين مثل ديجوين (...) وهذا ما كشف عنه بوضوح كتاب فيفيان دونان الشهير (وصف مصر).

لقــد تمكــن الفرنسيون من القيام بكل هذه الأعمال وبامكانات ضئيلة ووســط اضطراب امني كان يتصاعد مع توسع الاحتلال. ففي محافظة المنوفية اغتــيل جولــيان مساعد بونابرت أثناء قيامه بنقل رسالة من قائده إلى الجنرال كليــبير فــتمت تــصفيته مع مرافقيه. وهوجمت الحامية الفرنسية في المنصورة وأبــيدت تمامــا. وكاد مصير الفرنسيين في دمياط أن يكون مشابها. وأودت انتفاضـــة القاهرة في 21 تشرين الأول – أكتوبر، بحياة الجنرال دوبوي ومساعد بونابرت المفضل سيلكويسكي.

كــان الــتأثير الإنجليزي أو المملوكي في تظاهرات العداء للفرنسيين، محدودا للغاية بالقياس إلى التأثير الديني، فالخوف على الدين ظل قويا على الرغم من مظاهر التسامح التي عبر عنها بونابرت تجاه الإسلام. ودور الدين في تظاهرات العداء أكد علــيه فولني الذي زار مصر قبل الحملة وتنبأ في العام 1788 إن (...السيطرة على مــصر تــستدعي القيام بحروب ثلاثة: الأولى هي ضد الانجليز والثانية ضد الباب العالي والثالثة وهي الأصعب ضد المسلمين الذين يتألف منهم شعب هذا البلد) غير أن العــداء للفرنــسيين لم يكن شاملا. فبعض الأشراف اهتم بالمساعي الفرنسية لايقــاظ بلــد كان مخدرا في ظل السيطرة المملوكية، ومن بين هؤلاء عبد الرحمن الجــبرتي الذي نحتفظ بيومياته. فهذا البرجوازي القاهري المتعلم، هرب من القاهرة اثر وصول الفرنسيين إليها. وعاد بعد التطمينات التي أذاعها بونابرت. لا بل رضي أن يكــون عضوا في الديوان الثالث الذي شكلته السلطات الفرنسية والتي كانت تسعى لإشراك الأشراف في الإدارة المحلية.

لم يرفض الجبرتي هذا التعاون على الرغم من التحفظ الذي يظهر في يومياته. فلماذا تعاون مع الفرنسيين؟ هل تعاون بدافع انتهازي أم بسبب الخوف أم لقناعته بأن المحتل الفرنسي يمكنه تحديث البلد؟ ونلاحظ في يومياته انه ذكر بطريقة ايجابية، إعدام اللصوص الفرنسيين ورأى في ذلك دليلا على أن بونابرت يريد فرض احترام الممتلكات.

ولكــن الأوضــاع تفاقمــت فــيما بعد بسبب الحصار الإنجليزي وصعوبة المواصلات وافتقاد السلع وغلاء أسعارها. لقد ارتفعت أسعار كل السلع المستوردة

عبر المتوسط، واضطر عدد من الحرفيين إلى تغيير مهنهم بسبب الكساد ونقص الزبائن وكانت المهن الجديدة أقل مرتبة من الأصلية ولعب هؤلاء دوراً مهما في مناهضة الاحتلال وتأجيج الغضب الكامن.

ونعود إلى فولني الذي تحدث، إضافة إلى ردود فعل الأهالي المصريين المتميزة بكره الأجانب، عن خطر التدخل التركي، وتأكد هذا الخطر في أيلول – سبتمبر عام 1798. ففي ذلك الحين وصلت إلى القاهرة شائعات عن احتشاد قوات تركية كبيرة في سوريا.. ولكي يستبق الهجوم التركي، قرر بونابرت مواجهة الخصم في مكان احتشاده، وبالتالي اغتنام المناسبة والاتجاه نحو القسطنطينية لإيجاد أسطول يسمح له بالعودة إلى فرنسا.

سيطر نابليون بداية على غزة وحيفا واخترق الجيش التركي بالقرب من الناصرة في 16 – 4 – 1799

وهو كان في الأصل يستهدف عكا ذات التحصينات القوية، والتي كان يدافع عنها من الداخل فيليبو احد أنصار النظام الملكي الفرنسي. وكانت الإمدادات تصل إلى عكا عن طريق البحر وبواسطة الأسطول الانجليزي الذي يقوده سيدني سميث، في حين كان احمد باشا الجزار والي عكا وطرابلس ودمشق، يمثل روح المقاومة التركية في المدينة.

تمكن الفرنسيون من اختراق خط الدفاع الأول عن عكا، لكن العدو بنى خطا دفاعيا ثانيا محوره قصر الجزار نفسه، وصمد هذا الخط بسبب النقص في المدفعية الذي كان يزعج بونابرت بصورة أساسية. وبعد حصار دام شهرين، اضطر للتخلي عن عكا، خصوصاً بعد تضافر المؤشرات حول احتمال إنزال بحري تركي على شواطئ مصر.

وتجمع الشهادات المتوفرة على هبوط معنويات الجيش المنسحب من عكا، وكانت صفوفه مدججة بالجرحى والمرضى والمصابين بوباء الطاعون. وهذا الوباء لم يكتم نابليون أمره، في تقريره الذي أرسله إلى (الإدارة) في 28 حزيران – يونيو 1799 حيث يقول: (...ظهر الطاعون في الإسكندرية منذ 6 اشهر، وكان ظهوره خطيرا، لكنه لم يكن خطيرا في دمياط، وفي غزة ويافا تفاقم كثيرا، لكنه لم ينتشر

في القاهرة والسويس وأعالي مصر. وخسائرنا منذ وصول الجيش الفرنسي إلى مصر وحتى 28 حزيران - يونيو 1799م هي 5344 رجلاً. وحملتنا على سوريا حققت إنجازا كبيرا. فقد أصبحنا أسياد الصحراء كلها وأجهضنا مشاريع أعدائنا لهذه السنة، لكن فقدنا أيضاً رجالا ممتازين. فتوفي الجنرال بون متأثرا بجراحه ومات كافاريللي ومساعدي كروازييه وجرح كثيرون.

كان بونابرت يستهدف من هذه الرسالة طلب تعزيزات فرنسية، ما يثبت انه لم يكن يائسا بعد وانه كان إلى حد ما متفائلا بدليل انه عرض في رسالته، للصلات التي حاول إقامتها بين كل من فرنسا ومكة والهند غير انه لم يكن مقتنعا بان (الإدارة) سترسل له تعزيزات في وقت كان خطر الحرب ماثلا على فرنسا. حتى انه لم يكن واثقا من وصول رسالته إلى باريس.

لكن النقص في الإمكانيات العسكرية لم يؤثر على معركة أبو قير الثانية. فقد تمكن بونابرت من تدمير الإنزال البحري التركي في ميناء أبو قير بوسائله الخاصة. فحل هذا الانتصار محل هزيمة أبو قير الأولى ضد الإنجليز، لكنه لم يغيّر شيئاً في مصير الحملة، فمستقبل نابليون في الشرق ظل مسدودا بالكامل بسبب النقص في القوات. ويروي ميو، إن بونابرت استدعى ميرا عشية معركة أبو قير الثانية وقال له: (.. هذه المعركة ستقرر مصير العالم) لم يفهم ميرا في حينه معنى هذه العبارة الذي سيتضح في التطورات اللاحقة.

في 17 آب - أغسطس 1799، علم بونابرت أن السفن الحربية لم تعد تتجول في عرض الإسكندرية وأبو قير فاغتنم الفرصة وأصدر في 22 آب - أغسطس بلاغا إلى جيشه جاء فيه (.. في ضوء الأنباء الواردة من أوروبا، قررت العودة إلى فرنسا، وعهدت بقيادة الجيش إلى الجنرال كليبير وستصل إليكم أخباري قريبا، ولا أستطيع أن أفصح أكثر من ذلك. يؤلمني أن اترك جنودي الذين أتعلق بهم أكثر من أي شيء آخر. لكن غيابي سيكون مؤقتا والجنرال الذي سيقودهم يتمتع بثقتي وثقة فرنسا).

هل عاد بونابرت إلى فرنسا بمبادرة شخصية أم تلبية لتعليمات وصلته من حكم (الإدارة)؟ ما يمكن تأكيده، هو انه تلقى أوامر بالعودة وأخرى بالبقاء، في ظل ظروف مشوبة بالغموض الشديد فقرر العودة واستباق الأمور.

غــيرت حملــة مصر مسار التاريخ حتى قبل معركتي أوسترليتز[17] وينا[18] وجلبت لبونابرت مجدا هائلا. فالانتصارات التي تحققت في ظلال الأهرام وبالقرب مــن الأماكن المقدسة كانت تجتاح الخيال الشعبي وقد انتشرت في وسائل التعبير المخـتلفة التي كانت تعكس انتصار الجنود الفرنسيين في بدلاتهم العسكرية العظيمة على شخصيات غريبة معممة، وفي وسط هذه الانتصارات جنرال واثق من نفسه يعطـي أوامره وكله ثقة بالنصر. هكذا وجدت فرنسا الزعيم الذي كانت تبحث عنه ليضع حدا لحالة الفوضى التي أشاعتها الثورة.

كانــت الدعايــة حول انتصارات بونابرت عفوية غالبا، ولكنها دبرت أحيانا بمهارة. فمن جهة كان هو نفسه قد استخدم وسائل دعائية خلال انتصاراته في ايطاليا، وذهــب إلى حــد إنــشاء صحف تتحدث عن مجده الشخصي. لكن في مصر كان بونابــرت مقطوع الصلة بفرنسا، وبالتالي من الصعب أن يملي الموضوعات التي تتناول حملــته. غير أن أخويه جوزف وخاصة لوسيان، كانا يعرفان كيفية تضخيم انتصاراته وبثها في الخيال الشعبي. وسيفاجأ نابليون نفسه بتأثير حملته. فقد شعر بحرارة الاستقبال الــشعبي لــه، منذ نــزوله إلى شاطئ فريجيس وحتى وصوله إلى باريس حيث كانت

(17) معركة أوسترليتز (2 ديسمبر – كانون الأول 1805) سميت بمعركة الأباطرة الثلاثة الذين كانوا يحكمــون فرنــسا وروسيا والنمسا. وقعت بعد عام واحد من تتويج بونابرت إمبراطورا. اتخذ بونابــرت قــرار الحــرب في هذه المعركة عندما أيقن انه لا يستطيع ضرب بريطانيا بحرا فقرر الــتخلص من حلفائها برا. أفصح نابليون عن براعة مشهودة في هذه المعركة التي هزم فيها مئة ألــف جــندي واسر عشرين جنرالا و30 ألف جندي خلال أربع ساعات وغنم 120 مدفعا صــهرها وصــنع منها مسلة فاندوم التي ما زالت قائمة في باريس حتى اليوم. أدت المعركة إلى اعتــراف أوروبا بسيطرة فرنسا على ايطاليا. في ختامها خاطب الإمبراطور جنوده بالقول: لا أعداء تخشونهم في أوروبا بعد اليوم.

(18) معــركة يينا (14 تشرين الأول – أكتوبر عام 1806) مكملة لأوسترليتز. وقعت بتحريض من فــريدريك غيوم إمبراطور النمسا الذي أقام تحالفا رباعيا مع السويد والساكس وإنجلترة. بعث بإنــذار لبونابرت بسحب قواته من الضفة اليمنى للراين خلال أربعة أيام. هزم التحالف ودخل نابلــيون إلى برلين في 27 أكتوبر بعد تحطيم الجيش البروسي وخسارة بروسيا لنصف أراضيها واضطرارها لدفع تعويضات حرب بلغت 120 مليون فرنكا. يروى أن الفيلسوف الألماني هيغل كــان أستاذا في يينا ويعكف على إنهاء كتابه: " ظاهرة العقل" وقد شهد المعركة واستنتج على أثرها ب" نهاية التاريخ" بمعنى أن المجتمعات الإنسانية بعدها ستتجه نحو الديموقراطية الليبرالية.

تظاهرات الترحيب الضخمة تستقبله على امتداد الطرقات التي سلكها.

مثال ذلك في مدينة افينيون إذ يروي الجنرال بولار في مذكراته العسكرية أن جمهـورا ضـخما تجمع لاستقباله، وعندما اطل الرجل العظيم بلغ الحماس ذروته وعـلا التـصفيق والصراخ (يعيش بونابرت) وقد رافقته هذه الأجواء إلى المنـزل الـذي أقام فيه حيث كان المشهد كهربائيا. ومنذ ذلك الحين صار بنظر الفرنسيين الشخص المؤهل لإنقاذ فرنسا التي كانت حالتها مثيرة للشفقة بسبب هزائم جيوشنا وسياسة حكومة (الإدارة).

كانت حملة مصر غريبة الأطوار بكل تأكيد. فلم تجن فرنسا فوائد مباشرة منها. أمـا تطورات الحملة اللاحقة فتمثلت باغتيال كليبير في حزيران – يونيو عام 1800م فحل محله الجنرال مينو في قيادة الجيش. وعلى الرغم من اعتناقه الإسلام، لم يتمكن من الحفـاظ على الاحتلال. ذلك أن الأهالي كانوا يعتبرون الفرنسيين جسما أجنبيا يجب طـرده مـن مصر. وقد استندوا إلى الانجليز في مقاومتهم للجيش الفرنسي دون أن يفضلوا الانجليز على الفرنسيين. وأدى ذلك إلى استسلام مينو بشروط مشرفة لم تشفع لـه لدى المؤرخين طيلة الفترة الماضية، غير انه بدأ يستفيد تدريجيا من محاولات معينة لإعادة الاعتبار إليه. لكن مصر ضاعت واحتضر حلم تاليران بإنشاء مستعمرة فيها.

علـى الـرغم من ذلك فقد أدت هذه الحملة الأولى إلى شق قناة السويس وتنظـيم النيل وإلى تحقيق نهضة اقتصا دية وسياسية واكتشاف مصر لماضيها. هذا الـدرس هـو الذي استخلصه يوسف شاهين في فيلم سينمائي يحققه بالتعاون مع فرنسا عن بونابرت في مصر[19].

جان تولار

باريس 1983

(19) اخـرج الـسينمائي المصري يوسف شاهين بمناسبة مئويتها الثانية فيلما عن حملة مصر بعنوان: "وداعـا بونابـرت" أكد من خلاله المعاني التي يشير إليها جان تولار. سوى أن الفيلم لم يحظ بنجاح في فرنسا ومصر على السواء جراء إصرار المخرج على التأكيد المعاند للوقائع أن المصريين لم يعبأوا بالمماليك وكانوا متسامحين مع الغازي الفرنسي.

الباب الثانى

حريق القاهرة

أين ومن وكيف ولماذا؟

فيصل جلول

في 26 كانــون الثاني - يناير عام 1952 اندلع في القاهرة حريق هائل استمر من الثانية عشرة ظهرا حتى الحادية عشرة ليلا. وقع الحريق في وسط المدينة وطال بحسب الدكتور عصام الطاهر وهو شاهد عيان(1) مواقع ومبان يشغلها الأوروبيون أو يترددون علـيها وقدر عددها بــ 700 مبنى موزعة على الشكل التالي:300 محل تجاري. 117 مكـتب أعمــال. 13 فــندقا. 30 مكتبا لإدارة شركات. 40 دار سينما. 8محلات ومعــارض كبيرة للسيارات. 10 متاجر لبيع السلاح. 73 مطعما ومقهى وصالة. 92 حانة للخمور. 16 ناديا ومصرفا واحد هو الإنجليزي باركليز بنك. وتؤكد الدكتورة جليلة القاضي(2) أن العدد الصحيح هو 711 مبنى تقع كلها في وسط العاصمة وتحديدا في الأزبكـــية وعدلي وشوارع عماد الدين وفؤاد وإبراهيم وسليمان باشا وعبد الخالق ثروت وامتد الحريق إلى الظاهر والفجالة وشبرا وشارع الهرم.

تفــصح هــوية المــباني المستهدفة عن أن الحي الأوروبي أو ما كان يسميه الخديوي إسماعيل (في بلادي قطعة من أوروبا) أتت عليه نيران المتظاهرين (المجموعة المناضلة أو الجانحة أو السرية من بينهم) مما أدى بحسب الدكتورة القاضي إلى تغيير عمراني حاسم إذ انتقل وسط القاهرة بعد الحريق من الأزبكية إلى ميدان التحرير.

والحــق إن مــا حصل يومذاك هو مجموعة من الحرائق وليس حريقا واحدا يــصنفها المــتهم الوحيد في العملية أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة ومن ثم حزب مصر الاشتراكي يصنف الحرائق في مجموعات ثلاثة: المجموعة الأولى اندلعت صباحا مع إحراق كازينو بديعة (لبنانية من عائلة مصابني) والمجموعة الثانية امتدت من الواحدة إلى الثالثة بعد الظهر وطالت دور اللهو وصالات السينما ذات الصفة الــبريطانية والمــرحلة الثالثة التي استمرت حتى الحادية عشرة ليلا وطالت أماكن

---

(1) جريدة الشعب المصرية 24 - 1 - 2002.

(2) جريدة المصري الصادرة في كندا 29 - 1 2003.

متنوعة. ويرى حسين أن الذين قاموا بها هم "مجموعة من اللصوص والمتآمرين" ودائما بحسب جريدة الشعب المشار إليها أعلاه.

وتتعدد الروايات حول الوسائل المستخدمة في الحريق بتعدد شهود العيان، فالدكتور الطاهر يؤكد انه رأى بأم العين صبية وشبان يشعلون حريقا بقطع مبللة بالكاز وأعواد الثقاب في حين يرى آخرون أن المواد المستخدمة هي عبارة عن مسحوق على شكل "بودرة" شديدة الاشتعال وهي لم تكن متوفرة إلا في الثكنات البريطانية، في حين يجزم جورج مينان الذي نقدم شهادته مترجمة أن الحرائق كان يشعلها كوماندوس بواسطة صفائح البنزين وأن حرائق أخرى أشتعلت بواسطة مشعل أوكسيدريكي.

على الرغم من مضي أكثر من خمسين عاماً على الحريق مازال فاعله مجهولا. فالقضاء المصري فشل في العهد الملكي في إثبات التهمة على المناضل الراديكالي احمد حسين. و لم يحدد العهد الجمهوري الوليد بعد شهور من الحريق هوية الفاعلين و لم تبادر جهات مستقلة - على ما اعلم - إلى إجراء تحقيق تتضح من خلاله المسؤوليات وبالتالي القول أن الأيدي التي أحرقت قاهرة الخديوي إسماعيل الأوروبية فعلت ذلك من أجل أغراض محددة.

في غياب تحقيق جدي حول الحريق جرى تداول عدد من الفرضيات انطلاقا من سؤال عن المستفيد أو المستفيدين من الحادث وهو يطرح عادة في علم الجريمة لتحديد هوية المتهم فيها ونختصر الفرضيات التي ما برحت متداولة في الخطوط التالية:

أولاً: فرضية أحمد حسين المناضل الشعبوي والمتهم الوحيد في العملية. قيل أنه يمثل التيار الراديكالي الثوري المناهض للبريطانيين وللقصر الملكي والرافض لحكومة الوفد والذي يحتفظ بنفوذ في الأحياء الشعبية التي خرجت برمتها إلى الشوارع يومذاك وبالتالي لديه مصلحة حقيقية في توسيع الصراع بين الوطنين والقصر والمحتل البريطاني. سوى أن البكباشي جلال ندا يقول أن حسين كان مريضا يوم الحريق وانه قدم له العلاج بنفسه[3]. ولو كان حسين مسؤولاً فعلاً عن الحريق لأعلن تبنيه لاحقا إذا أفترضنا إنه كان خائفاً من العقاب في العهد الملكي. فالحريق

(3) البيان الإماراتية 24 - 7 - 2002.

ساعد في انبثاق ثورة يوليو - تموز 1952 التي لا تكن احتراما للأوروبيين والحادث مر عليه الزمن وبالتالي من السهل تبنّيه دون تحمّل تبعات هذا التبني. ناهيك عن أن محاكمة الرجل لم تتمتع بابسط شروط العدالة واتسمت بفضائح بالجملة من بينها أن البوليس السري اخترع شهودا مزورين فشل أحدهم في التعرف على المتهم في حين أكد علي ماهر رئيس الحكومة المعيّن بعد الحريق أنه اتصل بأحمد حسين في منزله في ذلك اليوم وبالتالي من الصعب أن يحرق القاهرة وهو في بيته.

ثانياً: فرضية الضباط الأحرار. وهي تستند إلى التطورات اللاحقة إذ هيأ الحريق مناخا أفضل للقيام بالثورة بعد أن تبين أن القوى السياسية المعارضة والموالية والقصر الملكي كلها عاجزة عن السيطرة على البلد وتلبية مطالب القسم الأكبر من المصريين برحيل بريطانيا، وتغيير الأوضاع الإقتصادية والاستجابة لتحدي الصراع مع إسرائيل. غير أن أحدا من الضباط المصريين أو المنفصلين عنهم لم يثبت التهمة على عبد الناصر وأصدقائه. ولو كان هؤلاء مسؤولين عن الحريق لما ترددوا في تبنيه في ذروة صراعهم مع القوى الاستعمارية بعد غزو السويس كعمل يدعو إلى الافتخار.

ثالثاً: فرضية القصر الملكي وهي ترتكز إلى حقيقة أن الحريق أطاح بحكومة الوفد التي كانت تحكم بإرادتها وليس بإرادة الملك وان هذا الأخير كان يعمل على رحيلها بفارغ الصبر. وقد رحلت بالفعل بعد حريق القاهرة ما يوحي بان القصر الملكي ربما يقف وراء ما حصل. هنا أيضاً لاشيء مؤكدا خصوصاً أن ثوريي يوليو استولوا على الأرشيف الملكي بعد الإطاحة بالملك وكان بوسعهم إثبات التهمة على العرش من خلال وثائقه أو من خلال رجاله لو كانوا فعلاً متأكدين من تورطه في الحريق[4].

---

(4) أكد لي سامي شرف في ربيع العام 2005 في الجزائر خلال عشاء على هامش "المؤتمر القومي العربي" أن اللواء في المخابرات محمد امام قائد البوليس السياسي اعترف بعد الثورة ان القصر الملكي كان متورطا في حريق القاهرة" لقد استدعيته إلى مكتبي لسؤاله عن بعض الامور ومن ضمنها حريق القاهرة فأكد لي أن الملك هو الذي حرقها وستجد تفاصيل الحوار معه في كتابي الذي سيصدر قريباً" والكلام دائماً لسامي شرف. وفي السياق نفسه أكد لي الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل أن تظيم "أخوان الحرية" المشبوه الذي كانت ترعاه المخابرات البريطانية اتهم أيضاً باشعال الحرائق في القاهرة وأن عدم ذكره في الوثائق البريطانية المنشورة لا ينفي مشاركته في الحريق.

رابعاً: فرضية بريطانيا. يرى البعض أن لبريطانيا مصلحة حقيقية في ما حصل بدليل أن الحريق أطاح بالحكومة الوفدية التي كانت تصر على الجلاء الأمر الذي جعل القوات البريطانية ضامنا وحيدا من انزلاق مصر في الفوضى وعودة الملك للالتصاق بالمحتلين، بعدما أخذ بالابتعاد قليلا عنهم لمسايرة الشارع المصري ناهيك عن الحديث عن المواد الحارقة التي استخدمت والتي لا تتوفر إلا في الثكنات البريطانية. لو صحت هذه الفرضية لكان من الصعب أخفاء تورط البريطانيين طيلة أكثر من نصف قرن خصوصاً أن الأرشيف البريطاني كشف النقاب عن أحداث تورطت فيها حكومة صاحبة الجلالة وكانت اخطر بكثير من حريق القاهرة.

خامساً: فرضية المؤامرة الصهيونية. وهي تستند إلى القول أن إسرائيل دبرت العملية لحمل اليهود والرساميل اليهودية على مغادرة مصر والهجرة إلى إسرائيل ولإلحاق الأذى بمسار التحديث والتطور المصري بعد 4 سنوات على نشوء دولة إسرائيل. وإذا كان صحيحا كل ما ينسب للصهيونية فلماذا لم تتوفر إثباتات دامغة حتى الآن حول الحريق ولماذا لا يكشف النقاب عن عملاء إسرائيل الذي احرقوا القاهرة الأوروبية ثم هل يعقل أن تحمل إسرائيل مئات الآلاف من المصريين إلى الشوارع في ذلك اليوم احتجاجا على مجزرة الإسماعيلية التي تمت في اليوم السابق وهل يمكن لها أن تكون مستفيدة من قتل الجنود المصريين في مبنى المحافظة وأن تركب انتفاضة مصرية للاحتجاج على مقتلهم وأن تدبّر حريق القاهرة خلال الانتفاضة؟

سادساً: فرضية الأطراف المتعددة. ربما تكون هذه الفرضية الأقرب إلى الواقع وذلك لأسباب عديدة من بينها أن الحريق لم يكن ناتجا عن مخطط معد سلفا بل ارتسم تدريجيا في مخيلة المحتجين على مجزرة الإسماعيلية. وللتذكير نشير إلى أن الوزارة الوفدية أمرت جنودا متمركزين في مبنى المحافظة وتكنتها بالمقاومة حتى الموت في مواجهة القوات البريطانية التي كانت تحاصرهم وقد سقط في المجابهة حوالى 150 مصريا بين قتيل وجريح. توج الحادث – بحسب تلخيص عصام الطاهر الهام لوقائع تلك الفترة – شهورا طويلة من الصراع بين الوفد واليسار الراديكالي من جهة وبين الملك وأحزاب الاحتلال والبريطانيين من جهة أخرى.

فقـــد فاز الوفد بانتخابات عام 1950 وشكّل حكومة خرجت تدريجيا عن سيطرة الملـــك واتخـــذت قرارات مناهضة للاحتلال، من بينها إلغاء معاهدة العام 1936 والطلـــب من البريطانيين البقاء في منطقة القنال وعدم الخروج منها والتغاضي عن حـــرب العصابات التي كان يشنها الوطنيون ضد القوات المحتلة أو دعم المشاركين فيها. وقد ازدادت هذه العمليات بعد تظاهرة المليون شخص التي نظمت في 14 – 11 – 1951 لـــدعم قـــرار إلغاء المعاهدة. في هذه الأجواء المحمومة وقعت مجزرة الإسماعيلية والرد الانتقامي عليها من خلال حرق كل ما يرمز إلى الوجود البريطاني والأوروبي في مصر.

في ضوء ذلك يبدو من غير المستبعد أن يكون الحريق قد بدأ بطريقة عفوية في كازينو بديعة وأن تكون أطراف عديدة استغلته فأشعلت حرائق في أماكن أخرى. وفي هـــذا السياق من المحتمل أن يكون أنصار أحمد حسين قد شاركوا في الحريق ومجموعات مرتبطة بالضباط الأحرار، خصوصاً أن شهادات عديدة تؤكد مشاركة عـــسكريين نظامـــيين في إشعال الحرائق، وكذا الأمر بالنسبة لأنصار الوفد وربما عمـــلاء اســـتخبارات أجنبية فضلاً عن اللصوص والجانحين والفقراء الذين كانوا يعيشون في أحياء فقيرة معدمة فيما القاهرة الأوروبية تتجمع فيها كل مظاهر الثراء والثـــروة والصفوة المصرية المؤيدة للقصر والاحتلال الأجنبي. ويبدو لي منطقيا أن يبادر الفقراء المعدمين إلى الانتقام من أحياء الغنى الفاحش في لحظة انتفاضة كتلك التي شهدتها القاهرة يوم ذاك.

أمـــا الامتـــناع عن كشف النقاب عن تفاصيل الحريق الدقيقة وتحديد هوية الفـــاعلين فقد يكون ناتجا عن تعدد الأطراف وتعذر حصر التهمة في طرف وعن الخوف من العواقب المالية التي يمكن أن تترتب على حرق ثروة أوروبية – مصرية هائلة، ولربما أيضاً لوجود مستفيدين كثر من الحدث في السلطة والمعارضة والجيش مـــا أدى إلى اعـــتقال أحمد حسين بوصفه كبش محرقة نموذجي في ظرف من هذا النوع.

ولعـــل من بين غرائب هذا الحدث الكثيرة أن البريطانيين والغربيين عموماً لم يجروا بشأنه تحقيقا جديرا بالاحترام؟

إذا ما تجاوزنا هوية المسؤول أو المسؤولين عن حريق القاهرة يمكن القول أنه كـــان مقدمـــة حاسمة للثورة المصرية في 23 تموز - يوليو. فقد لحقت هزيمة كبيرة بالغرب في عاصمة المعز في ذلك اليوم على ما يؤكد شاهدنا الفرنسي جورج مينان وكـــان الضباط الأحرار يستعدون خلال الشهور التالية لإشعال حرائق أخرى في مـــصر والعالم العربي والعالم الثالث ستؤدي إلى انهيار النظام العالمي الكولونيالي مرة واحدة وإلى الأبد.

الشاهد الفرنسي

النص الذي نقدمه مترجما في هذا الكتاب حول حريق القاهرة عدا عن كونه شهادة مباشرة وفريدة من نوعها من موقع الحريق فانه ينطوي على إضافة أساسية تكمن في انه يعبّر عن وجهة نظر غير محايدة ولربما حاقدة طرحها المؤلف الصحافي جـــورج ميـــنان بوضوح من خلال أوصاف ونعوت وأحيانا شتائم قبيحة تعكس إحساسا لا يخطيء بانهيار موقع نفوذ غربي من الدرجة الأولى في العالم العربي.

عندما نشر النص بالفرنسية في صحيفة" لو دوفينيه ليبيريه" في شباط - فبراير عـــام 1952 لاقى إقبالاً كبيراً وعندما أعيد نشره في العام 1986 في كتاب مستقل مـــع أربعـــين نصا آخر حول ابرز أحداث القرن العشرين، اعتبر أيضاً الأهم بين النـــصوص المنشورة ليس فقط بسبب بنائه المحكم ودقة ملاحظاته وإنما أيضاً بسبب لغته التي تمتزج فيها المشاعر الخاصة والانتماء القوي والخيال الخصب.

ولا بـــد من لفت نظر القارئ إلى أننا اعتمدنا ترجمة حرفية للنص مع بعض التدخل الذي حصرناه دائماً في هلالين وذلك في كل مرة وجدنا ضرورة من أجل المزيد من الإيضاح أو التأكيد أو ما شابه ذلك.

في تقديمـــه لهـــذا النص ولنصوص أخرى وقّعها أبرز نجوم الصحافة في فرنسا يـــستعيد هنـــري لاموريه قول ألبير كامو الشهير عن العمل الصحافي "انه تأريخ اللحظة" ولان النص هو بالفعل تاريخ لتلك "اللحظة العربية" الحاسمة في حياة مصر بعين غربية فأنه جدير بالوصول إلى من يرغب في الوقوف على المزيد من تفاصيل حدث أساسي في تاريخنا الحديث والمعاصر.

حريق القاهرة

بقلم: جورج مينان

لقد عشت ساعة بساعة تراجيديا سبت القاهرة.

القاهرة... "كل شيء على مايرام يا سيدتي المركيزة"[1].. هكذا يمكن تسمية الحـــوار القـــصير الذي دار قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، على خط الهاتف بين الإسكندرية والقاهرة.

– الو! شيبردز أوتيل؟هنا السيدة بـــ من بـــ وشركائه في الاسكندرية.

–... احمد حضر لي غرفتي. ساصل في الليل عبر الطريق الصحراوي. لاتنس يا احمد ان تحضر الشاي الخاص بي!

– هناك أمر ما يا سيدتي... أخشى كثيراً ألا تكون غرفة سيدتي جاهزة.

– غير جاهزة يا احمد؟! ستكون حتما المرة الأولى.

– نعم يا سيدتي. وللمرة الأولى لايوجد شاي في شيبردز ايضا.

– لا شاي في شيبردز؟! لكن يا احمد انها الثورة!

– بالفعل يا سيدتي. انها الثورة.. منذ ساعتين شيبردز اوتيل يشتعل.

ومـــع ذلك بدأ النهار بداية حسنة. كان شبيها بصباحيات الشتاء الافريقي، حـــيث لطافـــة الطقس تذكر بصباحاتنا الربيعية. مع فارق ان العطر المنعش الذي ينـــبعث مـــن النسغ النامي عندنا، حلت محله هنا رائحة القذارة الابدية الممزوجة بالتوابل والتي تثيرها الشمس. إنها رائحة الشرق. لتلطيف هذا الانتقال (من جو إلى جـــو) كـــان ما زال في اقصى حلقي اثر طعم منعش لاخر كأس" هايدسيك"[2] تناولـــته في بار "شركة الطيران الفرنسية" التي اقلتني قبل ساعتين إلى مطار القاهرة. وكان في جيبي أيضاً بعض الاحتياطي من علب سجائر" الغولواز"[3].

---

(1) تطلق هذه العبارة في فرنسا للإشارة إلى حالة اللامبالاة في ظروف بالغة الصعوبة أو الخطورة.

(2) نوع من الشمبانيا ما زال متداولا حتى اليوم في فرنسا.

(3) نوع من السجائر الفرنسية التي كانت مشهورة عالميا وربما ما زالت في الدول الناطقة بالفرنسية.

شباط/فبراير 1952.

بائعـــو راحـــة الحلقـــوم، جاذبة الذباب، وماسحو الاحذية بواسطة البصاق، ومقعدون مقطوعة اقدامهم يرتدون خرقا من القماش البالي، كل هؤلاء كانوا يحتلون زوايا الشوارع، بينما الملصق الاعلاني للقاهرة المتعدد الالوان يوحي بشرقية جديدة.

شـــعرت وأنـــا اســـتهلك خلسة كيسي الأول من الفستق المحمص، انه من الـــصعوبة بمكان ان يتقمص المرء، في مثل ذلك الصباح، نفسا أخرى غير تلك التي تميّز سائحاً أوروبياً كاريكاتوريا.

الكوماندوس يضرب في الساعة 11 صباحا

بـــدأت القـــضية بغرابة شديدة. فجأة شيء ما بدا وكأنه لايتطابق مع هذه البانوراما. شيء ما لايمكن ادراكه. شيء غريزي لكنه في الوقت نفسه مؤكد تماما. اولا لجهة التفاصيل:كان بائع الفول، الساكن فوق فطائره، يضب بضاعته بهدوء. والكهـــل الـــذي كان يجر عنـــزته (الشاة) بين السيارات، بدأت عنـــزته تجره، والنـــسوة السود السمينات، واطفالهن كالصرر على اذرعهن، يهرولن على طول الرصيف بحركات مروحية ثم اخذت صفائح النوافذ تقرقع في الجو.

ادركت خلال ذلك ان الجميع يسير في نفس الاتجاه. حاولت السيارات شبه المـــتوقفة، وســـط هـــذه الجمهرة المتضخمة تدريجيا، ان تواجه الموقف بزماميرها، فالميكانيك يضمن مناعة ما حيال ما تنويه تلك السيقان الضامرة، أي غريزة التمرد القاتل. اما انا المذهول فقد حطيت في تلك المعمعة.

بعدها لعلعت هرجة الزمامير ومن ثم لا شيء البتة. الشارع فارغ تماما. وساد صمت عجيب.

ثم بدأ ت العراضة.

لم يكـــن عددهم كبيراً في عمق جادة فؤاد الأول - شانـــزيليزيه القاهرة - خمـــسون من الصبية يتأطرون مقابل العمارات ويتصدرهم علم. بدون ذلك العلم الاخضر، ذي الهلال الابيض، كان يمكن اعتبار التظاهرة مجرد تجمع لشبان يمرحون خلال عيد رأس السنة. كان يتوجب الاقتراب من التظاهرة للتحقق من أن الفرح لا يسكن تلك الوجوه.

في الــصف الأول كــتفان غــير مرئيين يحملان بزهو شخصا يرتدي الزي العسكري الرسمي و"البيريه" الخضراء: " انه متطوع من القناة". كان الشاب الاسمر يهــتف بعبارات قصيرة ويؤكد عليها بحركة حاسمة من ذراعيه. ويستعيد الجمع، كما في الكورس القديم، ما يقوله الشاب، بصوت واحد اصم بغرابته.

في الخلف كانت الاقدام العارية تتمدد مخربشة الاسفلت بأظافرها السوداء. في رأسي انا الاوروبي كان لأول ضجة احدثها زجاج تكسر للتو، وقع منبه الصباح. فعلى بعد خمسين متر مني كان الكوماندوس يضرب سينما أل" ريفولي".

انذار في البار

ادركــت فندقــي في الــوقت المناسب. هناك لمحت فراشين نوبيين يقفلان بقبضاهم السوداء العملاقة بوابة المدخل الحديدية. قبل ذلك اقفلت بوابة البار وبهو التدخين. فتحول بذلك، البالاس المحروم من النور، إلى معقل مظلم، حيث الخوف بدأ يقتفي اثري. لمحة بصر خفيفة من تحت الباب جعلتني اعرف ان الريفولي "لؤلؤة سينمات الشرق" تشتعل.

في ظلمــة الفــندق المــصفحة، عود ثقاب يقرقع منيرا للحظة، جلد المقاعد المهجورة اللماع. هناك التقيت صاحب الفندق. انه يوناني حاذق، تحدث معي قبل قلــيل بلغــات مــتعددة وجعلني اتسلى لساعة من الزمن. الآن اقلع عن ترحيبه الاحــتفالي: هذا أنت يا سيدي؟ اصعد بسرعة إلى المطعم. الآخرون فوق. سألحق بكــم. قبل أن يختفي اثر عود الثقاب رايت مسدس البراوننغ المنكل الصغير الذي يحمله في وسطه.

في الطابــق الأول، وفي قاعــة الطعــام الكبرى كان الشحم الرخيص الثمن المــتجمع حــول اللمــبات الصغيرة يبحث عن انعكاس في الكريستال الشاحب للثريات المعلقة على مقربة من السقوف العالية. في هذا المكان اجتمع ذلك القطيع (النــزلاء) غير المرئي والهامس، الذي لجأ إلى المطعم. من جهتي ارتأيت ان المكان يفتقــر إلى الهواء الكافي فخطر لي ان اعمل وفق المبدأ القديم التقليدي الذي يقضي بالصعود إلى السطح في مثل هذه الحالات.

في هـــذا الـــوقت كان انقطاع الكهرباء قد ادى إلى تعطل المصعد. سرت على الادراج بعكس حركة النازلين عبرها والذين يهرولون نحو قاعة الطعام. في مـــستوى الطابق الثالث كانت سيدة إيطالية مسنة قد حوصرت في المصعد بين طـــابقين، وتطلـــب النجاة في الآن معاً من السيدة العذراء ومن ابناء الله على الارض، الـــذين جـــاؤوا بسلم صغير وشمعدان. الخدم. الخدم ما زالوا يطيعون (الأوامر) وكانت هذه اشارة طيبة فذلك أفضل بكثير من ان نكون أيضاً بحاجة لحماية مؤخرتنا.

ستتيح لي (من الآن فصاعداً) شرفة البناية الاسمنتية الدائرية االعريضة التي تطل من علو طبقاها الثماني، على ملتقى جادة فؤاد الأول مع جادة سليمان باشا (ستتيح لي) مركـــزا للمراقبة فريدا من نوعه وهو ما لم اكن احلم به في حالتي تلك. منها ساشاهد طوال عشر ساعات ما لم يجرؤ نيرون على القيام به.

في الاســـفل، أي في الساحة، حيث فاجأتني الأحداث قبل قليل بدأ المكان يمتلـــئ من جديد، عبر كافة الازقة الموصلة اليه. ها هي الموجة المهتاجة والمؤلفة من اولئك الذين هربوا من الساحة من قبل، ها هم يرجعون الآن نحو الريفولي. علـــى شـــرفة السينما كان رسم" سبنسر تراسي" ذو الخمسة أمتار يتلاشى في اللـــهب وتتلاشى قسمات وجهه المتجهمة على الكرتون. الآن امسكت جمهرة الـــناس بالقضية، هؤلاء هم جمهور البطاقات البريدية الحار والملون المؤلف من لابسي الجلابية، أي قميص النوم الطويل الذي يعتبر الزي الرسمي للفقر في هذا البلد.

ماســـحو الاحذيـــة وبائعو البطاطا المقلية والشحاذون والمشردون والاطفال البناديق وخدم كل العالم، كل هؤلاء خرجوا من جحورهم، يركضون بين البنايات البـــشعة ويـــستعيدون منتصرين السيطرة على أرصفة القاهرة الجميلة البيضاء التي كانت في حريق ذلك اليوم تقود إلى موعد مع القيامة.

كـــان الحـــريق يتأجج منذ ساعة عندما جاءت سيارة الإطفاء الأولى مخترقة المكـــان كعربة في ساحة للسباق. الشاحنة جديدة ويواكبها صفان من الاطفائيين السود الشجعان. كانت قبعاهم النحاسيةتلمع تحت اشعة الشمس كعرف الديك.

لـــن يدوم الحماس الكبير الذي ترافق مع وصولها الا لومضة من الزمن. فقد افترش اربعة من المتظاهرين الأرض، وجلس كل منهم تحت دولاب بقرب الحاجز الواقي مـــن الـــصدمات. كان جرس الانذارالضخم في الشاحنة يرن كجرس رئيس احد المؤتمـــرات لكـــن بلا جدوى. بدأت المفاوضات (مع الاطفائيين) وكانت تتخللها شـــعارات معهودة: "الموت للانجليز! الرحيل للأجانب! دماء إخوتنا الذين سقطوا في الاسماعيلية تنادي بالثأر".

ثم هتفوا بصوت واحد. "الاطفائيون معنا"!!

خـــلال خمس دقائق كف جرس الاطفائية عن الاحتجاج وبعد خمس أخرى بـــدأ جـــنود النار يصفقون للشاب الذي يهتف وخلال ربع ساعة اختفت عربة الاطفائية في زاوية شارع سليمان باشا قبل ان تمد مترا واحدا من خراطيمها.

في نار الحقد

في هذا الوقت كانت الريفولي تبصق كتل اللهب من فتحات طبقاتها الخمس. لقـــد تمكن المشاغبون الاكثر جرأة من غيرهم من الدخول إلى البناء واضعين محارم رطبة على انوفهم، ثم انتشروا في باحة. كانوا يرقصون على حافة الفراغ (بعيدا عن اللهب)على طول الكورنيش، كحشرات صغيرة رشيقة الحركة ومستديرة كسلسلة ويتناقلون كل ما لم يحترق بعد من هذه البناية الفخمة. في أعلى السطوح، وبهدوء علـــى ما يبدو، كانت تتساقط كالمطر، طاولات اللعب الطويلة والتي استقبلت في السابق لاعبي البريدج الأكثر تميّزاً في المدينة. وكانت تتساقط أيضاً المقاعدالضخمة وكراسي البار، واطقم اقداح الشراب واواني الجاد وسجادات الموسكي الساحرة. كل هذه الاغراض كانت تجمعها في الاسفل، مجموعة من الحاضرين، وتدفعها إلى مجمرة ذات شكل هرمي، تتأجج دورياً وبلا توقف. كان لهيب المجمرة يتداخل مع لهـــيب البناء ليتحول إلى مشعل ضخم ترتفع قمته عاليا إلى السماء دون ان تدرك مداها العين المجردة.

... وأحيانا كانت تقع من اعلى السطوح قطعة اثاث وتتكسر على الجمهور فيحمل جسد أو جسدان ويتواصل الاحتفال دون توقف.

البوليس معنا

حوالى الساعة الثانية ظهر رجال البوليس الذين اختفوا بسحر ساحر في البداية. جاءوا في شاحنة مكشوفة تقل فصيلا من الجنود من رتبة شاويش. يرتدي افراد الشرطة هؤلاء خرقا بالية ويعتبرون هنا حراس الامن والمسؤولين عن السلام. لقد فرض الانجليز على مصر شرطة مسلحة لها من العدة بالتمام والكمال قصب الخيزران، مستندين إلى فعالية هذا الاسلوب في الجزر البريطانية.

حذار...

ماذا سيفعل هؤلاء البائسون ضد من هم أكثر بؤساً منهم؟

البارحة برزت قضية الاسماعيلية الشهيرة – المبرر الأكيد لأحداث هذا اليوم – خلال ذلك قام سراج الدين باشا وزير الداخلية الدموي، بأعطاء اوامر بالهاتف من مكتبه في قيادة الوفد تقضي بتزويد شرطة قضبان الخيزران الموجودين في القناة بالاسلحة. واعطى الشرطة اوامر بالمقاومة حتى الموت في وجه القوات الانجليزية التي تحاصر مركز الجندرمةهناك. كان يوجد 48 من" البولوك نظام" أي افراد الشرطة الملحقين. هؤلاء ماتوا في سيدي ابراهيم. ماتوا من أجل ماذا؟

هذا السؤال كان يطرحه المتظاهرون على رجال الشرطة الذين جاءوا لقمعهم. جرت الامور مع هؤلاء المدافعين عن النظام بسرعة اكبر مما جرى مع الاطفائيين قبل قليل. استغرق الأمر دقيقتين من التخاطب ثم صارت القضية في الجيب. لقد تكررت حكاية الدواليب ثم اتجهت الشاحنة بدورها نحو الطريق مرورا بزاوية شارع سليمان باشا يرافقها هتاف الجمهور بصوت واحد، هذا الجمهور الذي سهى للحظة خلال وجود الشرطة ثم استأنف اعمال التخريب بحماس متصاعد.

قادة الاوركسترا السريون

لكن مالذي حل بكوماندوس البداية؟ ساعرف الجواب حين القي نظرة شاملة على المكان بكامله. فحتى الآن كنت وحدي في هذا البرج الاسمنتي، وكنت قد

تــركت عــيوني مسمرة على هجوم الريفولي. لم اكن اعرف انه خلال الساعات التالــية ســتختفي بدورها 25 صالة سينما أخرى وتاكلها السنة اللهب من مواقع أخرى بالطبع. وما حسبته حتى الآن ضبابا كان في الواقع دخانا رهيبا تصاعد من الحــريق الــذي يمــتد عبر المدينة الاوروبية. ما فعله الكوماندوس في الريفولي ربما اســتغرق عشر دقائق أي الوقت الكافي لدس النار في البارود. سأعرف من بعد ان فــريق الصدم هذا كان يتجول منذ ساعتين في الشوارع برفقة فرق أخرى، ليفجّر الاهداف التي اختارها بدافع الحقد الذي يختزنه الشحاذون لمدة طويلة من الزمن.

انهــا المــرة الأولى التي نشهد تظاهرة عبيد مسلحة بصفائح البنــزين، لكن اخرين هم الذين وضعوها في ايديهم.

في الــرابعة بعــد الظهرتحول قلب المدينة إلى محرقة واسعة الاطراف، يغطيها دخان كثيف. وشيئا فشيئا كانت قرقعة الحريق تحل محل ضجيج الاصوات المتنافرة والصادرة عن الانتفاضة.

مــن برجي الذي لم يعد بالامكان البقاء فيه جراء شهب اللهيب المتصاعدة، رأيت النار تمتد متتالية إلى المخازن اليهودية" سيكوريل" الواقعة في جادة فؤاد الأول وهــي مخــازن كبرى تتألف من ست طبقات. ها هي جدران سيكوريل تتهاوى جزءا بعد جزء في الجمرة وتليها من ثم مخازن شملاخ المجاورة وهي يهودية أيضاً فقد احترقت طبقاتها الأربع في أقل من نصف ساعة.

كيف مات جيمس أ. كريغ؟

علــى يميني كان يحترق "تورف كلوب"النادي الفخم الذي يلتقي فيه النبلاء غير المتوجين من كل انحاء العالم وبصورة خاصة البريطانيون منهم. سيدات وسادة مــن كل المقامات المميزة، كانوا يأتون كل مساء ليجدوا نعيم الراحة والرفاهية في صــالونات النادي وبرودة العشب الانجليزي المنعشة وغير المتوقعة في هذا المكان.
ساعرف فيما بعد ان المشاهد الاكثر وحشية وهذيانا قد دارت في هذا المكان

كانت نوافذ النادي مغلقة بأحكام بقضبان من الحديد المقوى الامرالذي جعل المهاجمين يتخيلون انهم وقعوا في الفخ. اندفعوا إلى الداخل ووصلوا إلى وسط القاعة

المخصصة للتدخين فوجدوا عجوزا يستقبلهم بكل الهدوء الانجليزي اللطيف الذي يمكـــن ان يراكمه رجل مثله في اخر حياته المهنية بعد ان عمل كمصرفي في الشرق انه السير جيمس أ. كريغ الإداري السابق في اهم مصارف القاهرة. لن نعرف ابدا ما اذا كان هذا العجوز قد رأى الموسى التي ستقطع رقبته.

الـــسير جيمس ايرلند كريغ كان عمره 84 عاماً "لكنه كان يبدو اصغر من سنه بكثير" هكذا وصفه كل من يعرفه في القاهرة ممن وصل اليهم نبأ موته في اليوم الـــتالي من خلال الصحف التي فرضت عليها الرقابة وبالتحديد من خلال اعلان خجول عن موت المصرفي كريغ" على اثر توقف في القلب".

عـــدا السيد كريغ وضع الفوضويون يدهم على سكرتيرة شابة فلفوها بغطاء ورموها من نافذة الطابق الثالث وبعد صرخة مخيفة ستسحق هذه التاعسة في الموقد الملتهب في الشارع وسط اثاث الصالونات.

في هذا الوقت كان آخرون قد اوثقوا على مقعد" ميشال كوتز" مالك السفن الذي سيحرق حيا. وهناك أيضاً احد ضيوف النادي الذي لم تكشف هويته رسميا. لجأ هذا منذ بداية الهجوم إلى الطبقة العليا، وعندما تبين له انه لن يتمكن من تفادي المهـــاجمين والحرائق قام الرجل بعقد شراشف وصلها ببعضها البعض وربطها إلى قاعدة المدخنة، في محاولة للهرب وكان خطأه انه لم يحسب حساب النوافذ. لذا مر احدهم وكان على الارجح مسلحا بنفس الموسى التي قتلت كريغ قبل دقائق فقطع سلم القماش الذي هوى مع صاحبه وسط الحريق.

شيبردز التعيس!

اذا كـــنا نملك تفاصيل أقل حول ما جرى في أماكن أخرى فلا شيء يحمل على التفكير ان الوحشية لم تكن سائدة في كل مكان.

هـــل ســـيعرف عدد اولئك الذين قضوا في بناية باركليز بنك؟ وفي شيبردز اوتيل؟

شـــيبردز هـــو بلا أدنى شك الخسارة الأكبر التي منيت بها المدينة. ليس فقط للقـــيمة العقارية لهذا البناء الكبير القصر، الأكثر فخامة من قصور الف ليلة وليلة

والــذي ما كان ممكنا لكاتب رواية اكزوتيكي في أدب الغرائب أن يتخيله، ليس لهذا فقط وانما لقيمته التي لاتقدر بثمن من حيث كنوز الفن العربي المجمعة منذ قرن في هــذا المتحف - الفندق. انه مدينة صغيرة حقيقية تعج بالنشاطات التي تبدأ من تحضير راحة الحلقوم إلى تصنيع السجاد والاواني. الجناح الوحيد الذي سلم فيه هو الــصغير الخاص بالمكاتب، حيث دار وسط الدمار الكامل الاتصال الهاتفي الذي نقلــناه في بداية هذا المقال اما ما تبقى فسيظل يحترق لمدة اربعة ايام متواصلة. دام اخلاء شيبردز اوتيل - 190 شخصا - حتى المساء. جمع صاحب الفندق عالمه هذا تحــت نخــلات الحديقة التي نجت من الحريق واستفاد من فترات الهدوء كي يخرج ضيوفه إلى الشارع. عبر مجموعات صغيرة محاولا تهدئة الجمهور الذي يطالب بموت تلــك الــسيدة الشقراء كلون سنابل القمح والتي ولدت على ضفاف نهر البو. او ذلك الجنتلمان ذو العظام النافرة الذي وصل توا من البرازيل.

عندما انتهت عملية الانقاذ تبين لنا عند التعداد ان نــزلاء كثر غير موجودين وبعضهم من اهم النــزلاء كالسيدة" دورا" التي ستنشر الصحف صورها في اليوم التالي على الصفحات الأولى تحت اعلان يمنح" لكل من يوفر ادلة عنها كمية خيالية من الذهب.

مــن اعلى الشرفة حيث لجأت كنت اسعل كسجين الاشغال الشاقة وسط الــدخان الــذي يلفــني و لم يكن بوسعي ان اتخيل الرعب الذي يخيم على المدينة المجنونة. في مثل هذه اللحظات نتحول إلى انانيين.

كانــت شــبكة الدخان المنسوجة بمئة شعلة تتوسع بلا حصر حول جزيرتي الصغيرة. كانت كل مستودعات السيارات الكبيرة تحترق. "فورد" و"الستود بيكر" و"القاهــرة كايرو" و"موتورز انكليز"الذي احرق بقاذف اللهب الاوكسيدريكي فــضلاً عن 300 سيارة جديدة كانت خزاناها تنفجر الواحدة بعد الأخرى. كل ذلــك وســط الــصراخ الذي يطلقه كل اولئك الذين طردهم بالامس الزمامير السلطوية. لقد احرقت كل البارات وكل الكازينوهات وكل النوادي وكل محلات الحلــوى وكــل ما يرمز إلى الملذات.والغنى وكل ما له وجه اجنبي او كافر حتى قنصلية السويد البريئة. كل ذلك تعرض للحرق.

لم يتسنّ لي الا الساعة الخامسة رؤية الاشياء عن قرب وبأكثر قدر ممكن مع ان الامـــور كان يمكن ان تدور بشكل سيء بالنسبة لي بسبب هويتي الكاثوليكية فقـــد كانت لدي فرصة هامة لأكون فكرة عن الطريقة التي اعتمدت لانه توجد فعلاً طريقة صارمة وجدية اكد جديتها كل اولئك الذين اداروا وشاركوا في تنفيذ هذا الحفل الختامي المتعدد الالوان.

في الطـــبقة الارضية حيث وجدت هناك "ميلك بار أميركي" هو واحد من عـــدد لايحصى من الميلك بارات التي اقيمت في المدينة. ميلك بار الفندق هذا كان الاكثـــر شـــهرة في القاهـــرة بسبب النيون والنيكل اللذين يسبحان فيه ليلا نهارا والأنـــوار الدائمة الحركة فيه والتي لا تطاق، وكذلك الكوكا كولاالتي تضخ هنا بكميات كبيرة وبموجات متتالية. منذ بدء الاضطرابات اشارت الاصابع إلى ستائره المعدنية التي اغلقت بسرعة ولكنه لم يتعرض للهجوم الا في الساعة الخامسة.

التقنيون

عندما شاهدت سيارة الجيب تتوقف فجأة فهمت فورا. كل شيء تم بسرعة. قفز رجال اربعة من السيارة، كان مظهرهم ولباسهم الذي لا غبار عليه يميزهم عن الجمهـــرة الباقـــية من ذوي الخرق البالية كانوا مجموعة من التقنيين. احدهم يحمل صفيحة والاخر يمسك ما يشبه العمود الخشبي والثالث يحتفظ بخطاف والرابع كان خـــالي اليدين. فور نـــزوله من السيارة بدأ هذا الاخير يخطب في الجمهور. خلال الخطاب الذي استغرق وقتا قصيرا تحول الرصيف الأميركي أي الميلك بار إلى قفير متـــراص يـــسوده العـــداء. في هذا الوقت كان الرجل الذي يحمل الخطاف يمزق بـــضربات عنيفة ستائر المدخل المعدنية حينئذ امتدت مئة يد إلى الباب ثم جاء دور الـــرجل الـــذي يحمـــل العمود الخشبي ودار مشهد على غرار مشاهد الحضارات القديمـــة. خمـــس عشرة يد مسمرة السواعد اخذت تلقي بضرباتها بواسطة العمود الخشبي على الباب الحديدي الذي استسلم خلال وقت قصير.

... خـــزانات ورفوف وبارات للصودا وطاولات وكراس ومرايا وكل شيء في الـــداخل باســـتثناء الجدران ذلك كله كان يصل إلى الشارع في حركة قذف

متواصـــلة. هنا وبحسب السيناريو الذي تم في الريفولي وكل مكان، جرى تكديس الحطام امام الواجهة المبتورة وجاء دور الرجل الذي يحمل صفيحة البنـــزين فالقى قطعة فتيل مشتعلة وفي لحظة واحدة تحولت كومة الانقاض إلى مجمرة وما ان بدأت النار تتأجج حتى توارت سيارة الجيب عن الانظار.

كـــان من حسن حظ اولئك الذين كانوا داخل الفندق ان الحريق لن يجد ما يغذيـــه في المفروشات المتبقية لانها معدنية وعلى الأخص في الميلك بار. اذ حاولت السنة اللهب خلال نصف ساعة ان تنفذ إلى البار لكن دون جدوى وقد جرب من في الشارع وبطريقة صبيانية اعادة اشعال الحريق بورق الصحف لكن دون طائل.

في هـــذا الوقت كان صاحب الفندق يحرس امام باب مخزن المازوت يصحبه صـــبيان مـــسلحان بالمطافـــئ. عندما رآني اصل إلى اسفل السلم سحب مسدسه الاوتوماتيكي بدون تسرع ومن ثم استؤنف الروتين فأشار إليّ مجاملاً بأن أتوجه إلى البار.

... وباستثناء ما هو غير متوقع كنا قد سلمنا.

العراضة الاخيرة

عندما صعدت مجددا إلى الشرفة تبين لي ان عملية التحطيم لم تتوقف بعد. لا بـــل كانت قد تجددت وبشكل واسع. كان الغضب يأكل المشاغبين لعجزهم عن احراق الفندق، فكانوا يثأرون من المواد التي لم تعد صالحة للاستعمال وكان حشد الناس الملتحي بالايس كريم غير عابيء بالدخان الذي يفسد الهواء ويجعله غير قابل للتـــنفس فعقـــدوا حول المجمرة حلقة راقصة تتصف بوحشية عبثية ووسط الزعيق الهـــستيري الذي كان يتصاعد إلى السماء المشحونة بالروائح النتنة، كانت السيقان المسحورة تدفع الجلابيات الطويلة إلى اعلى بحركة مروحية. في الوقت نفسه كانت الايدي السوداء تقذف الجمر في الهواء فيتساقط على الارض كالبصاق ويتحول إلى شـــرارات. اما علب الحليب المجفف فكانت تقذف كالقنابل اليدوية نحو الواجهة فتنـــسحق مخلفـــة غـــيوما بيـــضاء. وأيضاً كانت تقذف المقاعد وادوات المطبخ والأغراض الأقل استعمالا كانت تقذف باتجاه الجدران ثم تستعاد وتسحق وتبعثر.

كانت غريزة العنف الثائرة تضفي على هذا المقصف الاهوج خصوصية طقوسية. لم يكـــن ما شاهدته مجرد شغب كما نعرفه في الغرب. لقد كان موكبا همجيا مدفوعا من كل شياطين الصحراء. كنا امام نشوة عارمة، امام عراضة طاغية.

في هذا الوقت كان البوليس الشكلي يمد يد العون بقوة للانتفاضة في أماكن عديـــدة. هنا كوكبة توزع قنابلها المسيلة للدموع على الحشود وهناك عريف اول شـــاويش يهـــرع حـــاملا ماكينة خياطة وهنالك اخر من ممثلي النظام يصعد إلى الطبقات ويدق الجرس محذرا النـــزلاء من انه سيأتي بالمشاغبين ان لم يدفع له كل منهم وعلى الفور خمسين قرشا.

سيادة الفوضى المطلقة

اما الحكومة الوفدية فلكم كانت تتمنى ان يكون رحيلها لائقا. ها هي تتخبط وسط جدال عقيم حول مجموعة من النارجيلات.

الـــنحاس باشا الذي لم يكن قد تلطف حتى ذلك الوقت بمغادرة منـــزله رفع اخـــيرا سماعـــة الهاتف في منتصف الظهيرة لا ليتخذ اجراء معينا بل ليطلب مقلمة اظافـــره... في هذا الوقت وحتى لايبقى في الظل كان سراج الدين وزير الداخلية يوقع شيكا ب80 مليون جنيه ثمنا للعمارة التي كان قد اشتراها في الصباح نفسه.

حـــوالى الـــساعة السادسة بدا ان في الافق ما هو أسوأ. في هذا الوقت فقط اجتاحت الشوارع قرقعة من كل صوب: لقد وصلت القوى النظامية.

وصـــلت اولا فرقة الخيالة التي كانت تفتح الطريق وتطلق النار من اسلحتها القديمـــة نحـــو السماء، ومن ثم الكتيبة المدرعة الثقيلة وهي بالتأكيد أقل زينة من ســـابقتها لكـــنها اكثـــر فعالية وقوة وأخيرا كتيبة جنود المشاة التي تمركزت على المفتـــرقات مطلقـــة رصاصا وهميا فوق الرؤوس. اما الشرطة التي التحقت بالجبهة الاكثر اشتعالا فقد اخذت تقذف قنابل الغاز المسيلة للدموع باتجاه قطيع المشاغبين الـــذي اخذ يتراجع، في حين ان رجال الاطفاء وعلى رغم الموسى التي تقطع لهم خـــراطيم المـــياه هنا وهناك فقد كانوا يحاولون بلا اقتناع كبير اطفاء الحريق الذي كان يلتهم كل شيء.

لكـــن مـــا الذي جعل الموقف يتغير؟ بكل بساطة حدث ما يأتي: معتبرا أن "المـــزحة" طالت كثيراً اعلم السير صمويل ستيفنسون السفير البريطاني في القاهرة نظـــيره الأميركي الذي اوصل الرسالة للحكومة المصرية بناء على طلب ستيفنسون وهي مصاغة بعبارات دبلوماسية لكنها تعبّر عملياً عن الموقف الحاسم التالي: ان لم تعلنوا حال الطوارئ فستكون قوات القناة (الانجليزية) هنا خلال ساعتين.

واذا كان قد تبقى بعض الوقت لتفادي الاسوأ فمن المؤسف ان الوقت كان قـــد تأخـــر كـــثيراً لـــتفادي الكارثـــة. لقد حصد السبت الاحمر 80 قتيلا. اما الاضـــرارالمادية فـــأن التقديرات الاكثر موضوعية ستخمنها بـــ 50 مليار فرنك فرنسي على الاقل.

الغرب امام هزيمته

في الـــوقت الـــذي كان يطلق فيه الرصاص الوهمي ذي السحر المهدئ كان صـــفير سيارات الاسعاف الحاد يخيم على الشوارع. في ذلك الحين تركت مقري (الـــبرج) ورجعـــت إلى بهو الفندق مع هبوط الليل. على ضوء الشمعدانات التي اشعلت من جديد كان بالامكان رؤية وجوه التجار ورجال الاعمال التي اكتست بجمـــود ابلـــه، وهـــم الـــذين يغلفون وجوههم عادة بابتسامة كانوا يظنون انهم ســـيحتفظون بها إلى الابد بعدما الفوا تركيبها. لقد برهنت الاحداث إلى أي حد كان كل هؤلاء الناس الذين يسكنون في مصر منذ سنوات قد ظلوا عميانا... لذا كانوا يتساءلون:

الشرطة اين الشرطة؟

رجـــل شرطة مع رشاش واحد في الشارع، واحد فقط، كان كفيلا بتسوية كل شيء من البداية.

ويـــتحاورون: لقد تمادى هؤلاء الاوغاد كثيرا. لقد قضوا بضربة واحدة على الثروة الوطنية.

"الثروة الوطنية"؟ ماذا تعني" الثروة الوطنية" لاولئك الذين لم تكن راحة يدهم قد لامست ليرة واحدة من قبل. ما الذي كان يمكن ان يخسره هؤلاء الناس في هذه

المغامرة. نسألكم؟! ولكن احدا لم يكن يريد او يحاول ان يفهم.

في تلــك الاثناء، هنالك، على طريق الصحراء، كانوا يشعلون النار أيضاً في ملهى الاهرام الفخم، أي في الكباريه المفضل للمجون الملكي.

وفي المطــار، كانــت طائرات ثلاثة تابعة لشركة الطيران البريطانية" بريتيش اوفرسايز"احتلت مكانا على المدرج في محاولة للاقلاع على مسؤوليتها بعدما رفض بــرج المــراقبة تــأمين الاتصال لها. واحدة منها فقط خاطرت بالاقلاع وبثلاث محركات.

في بهــو الفندق ادار احدهم مفتاح المذياع للاستعلام عما يجري، لكن راديو صــاحب الجلالة كان يبث ربع ساعة من موسيقى التانغو. في هذا الوقت بان لي جــسد غــارق في كنبة. انه ذلك العجوز الشاحب الذي لاحظت في ملامحه نبلا كبيراً هذا الصباح في البار.

انــه باشــا من الشمال قال لي صاحب الفندق، ينــزل عندنا كل اسبوع ليحصل على جرعته.

لقــد فهمت الآن فقط. كان هذا العجوز النبيل غائبا عن المأساة من بدايتها يسترخي براحة على اثر جرعة المورفين، بالنسبة اليه لم يحصل شيئاً البتة، ولن يشعر ابدا بما جرى.

في الظلمــة التي تنيرها الشموع امتدت يد واخمدت انفاس الذياع. فأغتنمت الفرصــة، ساعة الحائط السويسرية الساحرة بهدوئها لتعلن السابعة مساء أي ساعة الويسكي والتشييس. لكن من من الحضور كان جائعا؟

بهــدوء طيور الصحراء الكبرى كانت دواري هذا البلد تدور وتدور وسط الدخان الذي هجرها من اعشاشها وكما الرجال ستحاول البحث طيلة الليل عن النوم الذي هجر جفونها.

LE DA UPHINE LIBERE

الباب الثالث

العدوان الثلاثي

حملة السويس: الأسباب والنتائج

فيصل جلول

توج غزو السويس سلسلة من التطورات المحلية والإقليمية التي أحاطت بالقنال منذ العام 1952 تاريخ ثورة يوليو - تموز المصرية. فعلى الصعيد المصري ألغى الضباط الأحرار الملكية في حزيران - يونيو عام 1953 وأطاحوا بمحمد نجيب في شباط - فبراير عام 1954[1]. ثم انكب جمال عبد الناصر على معالجة الاحتلال البريطاني لبلاده مستفيدا من علاقاته الجيدة بالولايات المتحدة الأميركية وتمكن في العام 1954 من فرض اتفاق على البريطانيين يقضي بسحب قواتهم من مصر خلال عشرين شهرا. أدت هذه الخطوة إلى وضع حد لتفاهم بريطاني - فرنسي - أميركي بالحفاظ على نتائج حرب العام 1948 بين العرب وإسرائيل وبالتالي عدم السماح للطرفين بالحصول على أسلحة تهدد التوازن بينها.

خرقت إسرائيل التفاهم المذكور بحصولها على أسلحة فرنسية. كانت باريس حينذاك تملك دوافع قوية لتسليح الدولة العبرية فهي تخشى المد التحرري الناصري الذي يطال مستعمراتها بخاصة في الجزائر وفي إفريقيا عموماً وتعتقد إن تسليح إسرائيل يساهم في احتواء الثورة الناصرية الصاعدة. بدورها سارعت مصر إلى طلب أسلحة من الولايات المتحدة الأميركية. قبلت واشنطن الطلب لكنها عرضت على المصريين أسعارا تفوق طاقتهم المالية فكان أن اتجهوا نحو الكتلة السوفياتية التي لوحت لهم بأسلحة متدنية الكلفة. بيد أن فرضية أخرى تقول أن واشنطن كانت ترغب في ان توقع مصر صلحا منفردا مع إسرائيل مقابل مدها بالسلاح الأميركي وتمويل بناء السد العالي وأنها دفعت لناصر عربونا لذلك عبر المساهمة باخراج الانجليز من قناة السويس. بالانتظار كانت واشنطن تعرض على ناصر سلاحا

---

(1) استقال محمد نجيب في 23 فبراير - شباط عام 1954 لكنه عاد عن الاستقالة بعد ايام ثم تخلى عن رئاسة الحكومة لجمال عبد الناصر في 14 افريل - نيسان عام 1954 وعزل من رئاسة الجمهورية في نوفمبر - تشرين الثاني من العام نفسه. (المصدر: رسالة شخصية من الصديق الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل الذي ادين له بضبط تواريخ مهمة في هذا الباب).

لقوى الامن الداخلي فقط وتضع شرطا آخر يقضي بتوقيع اتفاقية امن متبادل تنطوي على وجود بعثة إشراف أميركية على القوات المسلحة المصرية. رفض عبد الناصر الشروط الأميركية فوقعت غارة إسرائيلية على غزة في فبراير عام 1955 توجه الريس بعدها إلى موسكو عبر بكين طلبا السلاح[2].

كان الاتحاد السوفيتي حينذاك خارج التفاهم الغربي الثلاثي المذكور ويرغب في الدخول إلى الشرق الأوسط وإفريقيا من البوابة المصرية لذا عرض السلاح على مصر بأسعار متهاودة الأمر الذي توج بما سيعرف من بعد بصفقة الأسلحة التشيكية التي عقدت في سبتمبر - أيلول عام عام 1955.

بيد أن سباق التسلح لم يكن كافياً وحده لاستدراج حملة السويس. بعد شهور قليلة من تسلمه السلطة قرر جمال عبد الناصر بناء سد مائي تاريخي على نهر النيل في منطقة أسوان. يرمي المشروع إلى تحقيق أهداف كبيرة، فقد أريد له أن يكون العمل الأكثر أهمية في مصر منذ تشييد الأهرام الفرعونية وبالتالي أن يمنح الثورة المصرية شرعية على الصعيدين المحلي والدولي.

في التفصيل أن سد أسوان - أو السد العالي بحسب العامة - من شأنه السيطرة على دورة مياه النيل السنوية والتحكم بالفيضانات المفاجئة وانخفاض مياه النهر في سنوات الشح وبالتالي تفادي الجفاف ناهيك عن إنتاج الطاقة الكهربائية واستصلاح مئات الآلاف من الهكتارات في الأراضي الصحراوية. في نهاية العام 1955 علمت بريطانيا وأميركا أن الاتحاد السوفيتي يعرض على مصر تمويل السد[3] فتقدمت بعرض لتشييده بواسطة البنك الدولي لكنها اشترطت امتناع مصر عن شراء الأسلحة السوفيتية. رفض عبد الناصر الشرط وخاض الطرفان مفاوضات عقيمة امتدت لأشهر وانتهت إلى سحب لندن وواشنطن عرض التمويل الأمر الذي اعتبره ناصر إهانة غير مقبولة وبادر إلى عقد صفقة الأسلحة التشيكية ومن ثم تأميم قناة السويس لتغطية نفقات بناء السد.

---

(2) ملاحظة الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل في المصدر نفسه.

(3) يؤكد الدكتور الطويل أن العرض السوفياتي حصل في العام 1957 خلال زيارة الفريق عبد الحكيم عامر لخروتشيف في موسكو... المصدر نفسه.

كـــان تأمـــيم القـــنال عمـــلا خطيرا يصعب السكوت عنه. فهي تعتبر ممرا استراتيجيا حيويا بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية إذ تربط بين لندن وممتلكاتها ما وراء الـــبحار في الهـــند بخاصة وتختصر المسافة بين لندن وبومباي بمعدل النصف تقريبا. بداية قررت بريطانيا وفرنسا اللجؤ إلى مجلس الأمن لمعالجة المشكلة وتلقت وعـــدا بدعم أميركي في مسعاها غير أن المجلس أصدر قرارا لصالح مصر إذ تحدث عن حرية الملاحة في القناة وعن حق القاهرة بالسيادة على أراضيها.

مـــن جهـــة ثانية ذكر قرار التأميم المصري بمنع البوارج الإسرائيلية من عبور القنال وبذلك اكتملت حلقة المتضررين من الخطوة المصرية فكان أن اتفقت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على غزو السويس[4].

احـــتلت إسرائيل سيناء في 30 تشرين الأول – أكتوبر عام 1956 بذريعة أن الأســـلحة الـــتي حصلت عليها مصر من شأنها أن تلهب الشرق الأوسط. في هذه الاثـــناء تحججـــت فرنسا وبريطانيا بعجز مجلس الأمن عن حل المشكلة فوجهت إنذارا منافقا للطرفين يقضي بالابتعاد 13 كلم عن ضفتي القنال. ومن ثم أنـــزلت قواها في بور سعيد. في 5 نوفمبر – تشرين الثاني وبعد مضي أسبوع على الاحتلال الثلاثي. هدد الاتحاد السوفيتي البريطانيين والفرنسيين بالصواريخ النووية. من جهته شـــن الرئيس الأميركي داويت آيزنهاور وكان يخوض حملته الانتخابية هجوما ماليا ضاغطا على الجنيه الإسترليني وطالب بانسحاب المعتدين معتبرا إن اعتداءهم يشكل ضـــربة قاصمة للأمم المتحدة. تراجع المعتدون وقبلوا وقف إطلاق النار ومن بعد الانسحاب من مصر. هكذا تحولت هزيمة ناصر العسكرية إلى نصر سياسي مدو.

شكلت أزمة السويس منعطفا حاسما في تاريخ الشرق الأوسط والعالم.

فعلـــى الصعيد المصري لم يعد احد ينازع مصر سيادتها على القنال منذ ذلك الحين وحتى اليوم، وتحوّل ناصر إلى زعيم للأمة العربية بلا منافس وإلى قطب عالم ثالثي ودولي بارز في القرن العشرين وطرحت الأزمة ضرورة أن يسيطر العرب على مـــواردهم وفي طليعـــتها النفط فكان أن تأسست الأوبيك بعد خمس سنوات من

(4) اتخذت مصر إجراء في العام 1948 يقضي بمنع الملاحة الاسرائيلية في القناة وكانت تربط التراجع عنه بتطيق القرارين الدوليين 181 و194، المصدر نفسه.

الغزو وبفضل النفط أصبح العالم العربي لاعبا قويا على المسرح الدولي.

وعلى الصعيد الإقليمي تعزز نهوض العالم الثالث الذي بدأ في مؤتمر باندونغ (ابريل - نيسان عام 1955) وتعزز دور الدول الفقيرة بعد الغزو وسار الجميع على النهج المصري في المطالبة بالسيطرة على الموارد الوطنية وبالتالي التخلص من السيطرة الكولونيالية. وسيمضي العالم الثالث فترة الحرب الباردة معتمدا على تكتيك يقضي بتهديد الكتلتين الشرقية والغربية بالانتقال إلى الكتلة الأخرى واستطاع بعد قرون من الذل التخلص من السيطرة الاستعمارية القديمة.

وعلى الصعيد الأوروبي بينت الأزمة أن الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية اشتركتا للمرة الأولى في معركة واحدة بعد قرون من التنافس، فكانت هذه المعركة سببا في تعجيل انهيارها معاً وصعود القطب الأميركي.

أما الاتحاد السوفيتي فقد اكتسب حليفا أساسيا في الشرق الأوسط ومدخلاً واسعاً للنفوذ في العالم العربي والعالم الثالث.

تبقى الإشارة إلى أن إسرائيل نجحت للمرة الأولى في الحصول على مشروع نووي فرنسي كشرط مسبق لاشتراكها في الحرب وتمكنت أيضاً من استدراج قوات دولية للمرابطة على الحدود في غزة وشرم الشيخ واستطاعت أن تؤمن لبوارجها المرور في البحر الأحمر عبر مضائق تيران.

على الرغم من أهميتها الحاسمة في تغيير وجه مصر والعالم العربي والتوازن الدولي لم تحظ أزمة السويس بدراسات تتناسب مع حجمها الحقيقي في العالم العربي وظلت تقدم لسنوات بطريقة دعاوية. حتى أن المعلومات الدقيقة حولها ظلت بمعظمها طي الكتمان إلى وقت قريب نسبيا علما بأن مئات الكتب والدراسات الغربية تناولتها بالتحليل والبحث وبقدر أقل من المعلومات الصحيحة إلى أن أفرج البريطانيون عن وثائقهم في النصف الثاني من الثمانينات ومثلهم فعل الفرنسيون.

في الجانب العربي يقدم محمد حسنين هيكل في كتابه الوثائقي الضخم "ملفات السويس" الحدث بأبعاده المصرية والعربية والاسرائيلية والدولية، ويتضمن الكتاب وثائق في غاية الأهمية. وعلى الرغم من الدور الفرنسي الحاسم والتخطيطي في هذه الحملة لم يذكر هيكل في كتابه مصدرا فرنسيا واحدا بصورة مباشرة. وكان عندما

يتـــناول الموقـــف الفرنسي يلجأ إلى مصادر غير فرنسية. وتفسير ذلك ان المصادر الفرنسية المباشرة ربما لم تتوفر له او ربما حال عائق لغوي دون وصوله اليها. وربما لسبب آخر هو ندرة المصادر الفرنسية المنشورة أصلا عن هذه الحرب.

بعـــد شـــهور من صدور "ملفات السويس" المصرية وتحديدا في مطلع العام 1987 عقـــد راديو فرنسا الدولي ندوة حول حرب السويس أذيعت على حلقتين وكـــان أن سجلت الندوة في حينه وارتأيت أنها جديرة بان تترجم إلى العربية وان يعاد نشرها كوثيقة مهمة تحفظ في كتاب مستقل خصوصاً أنها تحمل للمرة الأولى شـــهادات مباشرة لمخططي الحملة الذين رووا وقائع ما حصل بقدر لا بأس به من التجرد وأحيانا بالكثير من المرارة.

نظـــم الـــندوة وأدارها باتريس جلينيتا وشارك فيها كل من: 1 - موريس بورجـــيس مونـــوري وزيـــر الدفاع الفرنسي في العام 1956. 2 - لوي مونجان مستشار مونوري في وزارة الدفاع. 3 - كريستيان بينو وزير الخارجية. 4 - جاك ماســـو قائد فرقة المظليين الفرنسية التي انـــزلت في السويس 5 - برتو فاري سفير فرنـــسا في القاهـــرة في ذلك الحين وعقدت الندوة في منـــزل مونجان في بولفار مونـــبارناس الواقع في الدائرة السادسة من العاصمة الفرنسية وفي نفس الغرفة التي اتخذ فيها قرار الهجوم على السويس

تحـــدث هؤلاء السادة عن كل اشكال مشاركتهم في الحدث واذاعوا اسرار تلـــك المـــرحلة ولم يترددوا في اظهار عواطفهم الشخصية تجاه التفاصيل. ويعتبر مجمـــوع ما قاله المسؤولون الخمسة الرواية التفصيلية الحية عما جرى. وقد كشفوا سراً ظل مجهولا طيلة 30 سنة وهو اشتراك الطيران الحربي الفرنسي مباشرة في توفير الغطـــاء الجوي لاسرائيل وفي نقل المظليين الاسرائيليين إلى مواقع تبعد 15 كلم عن قناة السويس. ولم يتردد أحدهم في وصف سيناريو الهجوم الثلاثي بالنفاق الشديد. واذا كانـــت الندوة قد ختمت باستنتاج تقدم به مديرها بقوله: "تلك الحرب ادت إلى انهـــيار الجمهورية الرابعة" في باريس فان ما يجدر اضافته هو ان الحرب نفسها ساهمت في خسارة فرنسا لحرب الجزائر وفي استعجال انهاء الدور السياسي لرئيس الوزراء البريطاني انطوني إيدن.

غزو قناة السويس عام 1956
شهادات مخططي الحملة الفرنسيين
السويس... الحرب الأقصر في القرن العشرين

شهادات مخططي الحملة

مدير الندوة:

شكل الهجوم الثلاثي على قناة السويس في العام 1956 فرصة حقيقية للدول المشاركة فيه، للتخلص من جمال عبد الناصر الذي كان يجابه نفوذها في العالم العربي. كان عبد الناصر يزود الثوار الجزائريين بالسلاح بل كان المصدر الأول لسلاحهم. وكانت البعثة الخارجية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية التي يديرها احمد بن بللا تتخذ من القاهرة مقرا لها وتنشط انطلاقا من العاصمة المصرية. في فرنسا كان الجميع يطالبون باتخاذ موقف قوي من ناصر ويباركون بالتالي سياسة رئيس الحكومة غي موليه ووزير الدفاع موريس بورجيس مونوري وفرانسوا ميتيران وزير العدل. كان الجميع يبارك مواقف هؤلاء باستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي. والكل كان يطلب منهم ان يحسموا الموقف. وكان جاك شابان دلماس الديغولي والذي سيصبح من بعد رئيسا للوزراء يقول ان لا شيء يدعو إلى وضع حد لتصميمنا المشترك وحل هذه القضية. ونحن من جانبنا، يقول دلماس نؤيد الحكومة في سعيها لايجاد حل ننتظره منذ وقت طويل، ذلك ان التراجع سيكون مؤشرا على انحطاط غربي لا راد له من بعد.

وكان وزير الدفاع موريس بورجيس مونوري يقول ان بلدا كبلدنا فرنسا تاريخه معمر لم يعامله احد طوال تاريخه بمثل السخرية التي يعامل بها الان. وهو لا يستحق ان يعامل بمثل هذا الاستخفاف من قبل شخص (ناصر) لم يتمكن حتى الآن من تقديم الحد الادنى الضروري لشعبه حيث الفقر منتشر في صفوف 21 مليون من المصريين. يحق لفرنسا ان تعامل كدولة كبيرة تنتمي إلى مجتمع الامم

المـــتحدة. ويحق لفرنسا ان تطلب من الاخرين احترام توقيعها (المقصود اتفاقية قناة السويس) كما تحترم هي توقيع الاخرين. ويضيف مونوري قائلا: اذا اختفت هذه القاعـــدة مـــن العالم فان السلام يصبح تحت رحمة المغامر الأول الذي يتجرأ على مواجهتها. من أجل الا يحدث ذلك يقول مونوري ومن أجل انقاذ السلام واحترام قواعد الحضارة فان فرنسا يجب الا تكون ضعيفة.

وفي شباط – فبراير امم عبد الناصر قناة السويس كيف علمتم بذلك؟

م. ب. مونـــوري: تـــولد لدي انطباع ان ناصر قد صمم على الاندفاع إلى الامام وانه كان يأمل من خلال ذلك (التأميم) ان يحقق مجدا حاسما في المحيط الذي يتحرك فيه (الوطن العربي) وفي وسط الشعب الذي يؤيده وهذا ما حصل بالفعل. لم اكـــن مقتنعا بانه يريد استخدام عائدات القناة من أجل تمويل سد اسوان. كان يتحجج بذلك وقد تحدثنا عن هذا الأمر غي موليه وأنا مرارا. كنا نرى ان ما فعله شـــبيه بمـــا فعله هتلر قبل الحرب العالمية الثانية. طبعاً لم تكن تلك هي الحال تماماً حينذاك ولكن هذا ما كنا نعتقده. لكن المؤكد ان ناصر كان يبدي رغبة واضحة في لعب دور المنقذ في افريقيا. ومعروف ان الدور والتأثير العربي احرزا تقدماً هائلاً في تلك الفترة في افريقيا.

مدير الندوة: بعد تأميم القناة وفي بونكر تحت الأرض في لندن وضعت خطة لعملية عسكرية فرنسية بريطانية اطلق عليها اسم عملية" موسكيتير" ولحظت فيها كـــل التفاصيل ومن بينها ايكال القيادة إلى الانجليز على ان يكون الجنرال كاتلي رئيـــساً للأركان ونائبه الاميرال الفرنسي بارجو. وان تكون القوات البرية بقيادة الامـــيرال الا نجليزي ستوكول وان يكون مساعده الجنرال الفرنسي بوف في حين عيّن الجنرال الفرنسي ماسو مساعداً للجنرال باتلر. هكذا قبل الفرنسيون ان يكونوا منذ البداية تحت رحمة الانجليز. وكانت الحلقة المجهولة في هذه القضية تتصل بدور واشنطن. لقد اعتقدت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ان بوسعهما الاعتماد على وزيـــر الخارجية الأميركي جون فوستر دالاس المعروف برجل الحرب الباردة وقد التقـــى بـــه وزيرالخارجية الفرنسي كريستيان بينو سريعا في لندن في أول آب – أغـــسطس. لاحظ الفرنسيون يومها ان الموقف الأميركي بارد، علماً بان الولايات

المتحدة وبريطانيا قررتا بعد تأميم القناة العمل معاً ضد ناصر. ولم يكن وارداً بالنسبة لهما اشراك اسرائيل في هذا العمل بل التحرك في اطار ما يعرف اليوم بالحلف الاطلسي. كنتم تتوقعون اذا دعماً أميركياً لكن الاعتقاد السائد حينذاك ان فوستر دالاس اعلن رغبة بلاده ومنذ الأول من اب - اغسطس في التوصل إلى حل من خلال المفاوضات.

لوي مونجان: بداية كانوا يدفعون الفرنسيين والبريطانيين (للقيام بعمل عسكري) وفيما بعد حملوا القضية إلى الامم المتحدة. عندما بدأنا التحضير للعمليات بدون الأميركيين طبعاً لم يقل فوستر دالاس لا. لم يرفض.

كريستيان بينو: اذكر انني التقيت فوستر دالاس من قبل في كراتشي خلال اجتماع للحلف الاطلسي وكان حذرا مني لانني اشتراكي. وكانت الجملة الأولى التي بادرني بها عندما صرنا وجها لوجه وبدون شهود: "انا اعتقد يا سيد بينو انه يوجد في العالم نوعان فقط من الافراد. اولئك المسيحيين المناصرين لحرية المنشأة والآخرين". وعندما جاء في الأول من اب - اغسطس إلى لندن كان رد فعله على تأميم قناة السويس سلبيا للغاية ولكنه كان يقول: لا نستطيع ان نتدخل ولا نعرف حقيقة نوايا عبد الناصرويجب ان ننتظر لمعرفة مواقف كل الذين وقّعوا اتفاقية القناة. اثار هذا الموقف دهشتنا كثيراً لاننا كنا ننتظر وخاصة البريطانيين، معونة من الأميركيين. وكان الأمر نفسه يصح على الهند الصينية. لكن الامور اتضحت فيما بعد. في حينه قال لي شخص أميركي رفيع المستوى ولن أذكر اسمه: ان سياسة دالاس تقضي بازاحة الفرنسيين والانجليز من كل النقاط الاستراتيجية في العالم وتمثيل الأميركيين فيها.

كان الأميركيون يتحدثون عن التفاوض لكن دون اندفاع كبير. كنا نحن أيضاً نجري مفاوضات. ولكن هم كانت لهم مفاوضات من جانب اخر. هل فهمت ماذا اعني؟ (يريد الحديث عن مفاوضات أميركية - مصرية).

مدير الندوة: خلال شهر لم تسفر المفاوضات عن نتيجة. فالمؤتمر الدولي الذي التأم في لندن اولا في 16 اب - اغسطس اقترح انشاء شركة دولية جديدة لتشغيل القناة. وفي 9 ايلول - سبتمبر رفض عبد الناصر الاقتراح. ولتجنب الحرب

عـــرض دالاس انـــشاء جمعية من المنتفعين من القناة. لكن ناصر رفض أيضاً هذا العرض لانه كان يعرف ان الأميركيين لن يدخلوا في اختبار قوة معه.

لـــوي مـــونجان: حـــوالى 20 ايلول - سبتمبر وبمواجهة التباطؤ الأميركي، اعتقدت فرنسا أي بورجيس مونوري وانا، انه يجب عمل أي شيء وبالتالي يجب اشراك الاسرائيليين لكي نضغط بذلك على انجلترة.

الجنرال جاك ما سو: كان اشراك اسرائيل امرا في غاية الاهمية بالنسبة لنا اذ كـــنا نود تخفيف الاعباء التي نتحملها في الجزائر عبر ازالة عبد الناصرلكن القضية بالنسبة للاسرائيليين كانت تكتسب اهمية اخرى. فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية لم تقـــبل مـــصر بوجود اسرائيل ومنعت مرور السفن الاسرائيلية عبر قناة السويس وحاصـــرت في 1954 - 1955 خليج العقبة. وكانت الدول المحيطة باسرائيل أي مـــصر وسوريا والاردن قد تلقت كمية من الاسلحة الروسية الأمر الذي يشكل مـــصدر تهديـــد لاسرائيل. اضافة إلى ذلك كانت اسرائيل ترغب في القضاء على الارهابـــيين (الفدائـــيين الفلسطينيين) في قطاع غزة. اذن اسرائيل صاحبة مصلحة حقيقـــية في الاشـــتراك بهذه العملية. وكنت معجبا بالجنرال موشي دايان إعجابا شديدا لأنه يشبه الجنرال لوكليرك بمنهجية قيادته (هو مساعد الجنرال ديغول ومحرر بـــاريس من الاحتلال النازي). كان دايان قائداً للجيش الاسرائيلي وكنت اراهن على ان يتمكن من اقناع بن غوريون بعمل شيء ما (ضد عبد الناصر).

مديـــر الـــندوة: في 20 ايلول - سبتمبر في هذه الغرفة (حيث تدور الندوة) جـــرى اول اتصال على مستوى عال بين اسرائيليين وفرنسيين وكنت انت لوي مونجان طرفاً في الاتصال. فكيف تم ذلك وماذا دار في الاجتماع؟

لـــوي مـــونجان: كان الاتصال على مستوى حكومي وهو تلا الاتصال بين رئيسي الاركان (دايان - ماسو) وكان ايجابيا للغاية. في ذلك الحين قرر غي موليه (رئيس الحكومة) ان يناقش القضية بعمق مع مسؤول اسرائيلي. حضر من الجانب الاسرائيلي غولدا مايي روشيمون بيريس الذي يعتبر أميناً على اسرار بن غوريون. وحـــضر مـــن العسكريين الفرنسيين ابيل توما والجنرال شال وبورجيس مونوري وكريـــستيان بينو وانا. كنا جميعا نأمل مشاركة الانجليز. والاسرائيليون يشددون

على ذلك لانهم كانوا يخشون ان تطعنهم بريطانيا في الظهر. بعد هذه الجلسة ذهب الجنرال شال للقاء بأيدن في لندن وليحدثه عن عملية وخطة اسرائيلية.

مديـــر الـــندوة: زار رئيس الوزراء البريطاني انطوني ايدن فرنسا على الاثر وصـــرح بأن الزيارة ملحوظة من قبل وانه جاء ليبحث مع غي موليه سبل الحفاظ علـــى التضامن الفرنسي البريطاني. وما لم يقله ايدن في 16 اكتوبر – تشرين الأول هو ان الزيارة تمخضت عن اتفاق على عقد لقاء بعد ايام في ضاحية سيفر (ملاصقة للعاصـــمة) الباريـــسية للبحث في تفاصيل عملية عسكرية بريطانية – فرنسية – اســـرائيلية مـــشتركة. وقـــد ظلت هذه الجلسة سرية لمدة 20 عاماً وقد حضّر لها بورجـــيس مونـــوري ولـــوي مونجان وابيل توما. في 20 اكتوبر ذهب الثلاثة إلى اسرائيل للقاء دايفيد بن غوريون وموشي دايان. في 22 اكتوبر جاءوا وبسرية تامة بالرجلين إلى باريس. فكيف تم ذلك؟

لوي مونجان: كانت الرحلة طويلة ومتعبة. فقد حلقنا 4 ساعات فوق باريس بانـــتظار جـــواب حول المكان الذي سنهبط فيه. اذ لم يكن هذا المكان محدداً من قـــبل. في ذلـــك الوقت سرّبت انباء إلى الصحافيين عن استعدادات في مطار فيلا كوبلاي (مطار عسكري صغير يقع بالقرب من العاصمة) تحدثنا ابيل توما وانا إلى وســـائل الاعـــلام وقلنا لهم ان الاستعدادات العسكرية ناجمة عن تحضير استقبال لمبعوث خاص للحبيب بورقيبة.

كريـــستيان بينو: كان الاسرائيليون مصممين على اقتحام سيناء في الايام التالـــية ومهما حصل. ولكن كانوا يقولون نخشى ان تقصف مدننا ونخاف من الطيران المصري. وطلبوا ان نؤمن لهم دعما عسكريا من خلال قصف المطارات الحربية المصرية لأنهم لا يملكون ما يكفي من الطائرات القاذفة. كان ذلك امرا حـــيويا وحاسمـــا بالنسبة لهم. اما قضية احتلال بور سعيد فقد طرأ ت من بعد وبـــناء علـــى اقتراح من البريطانيين وبالتحديد من سالوين لويد شخصيا. كان يقول لي انا بحاجة خاصة لكي يضرب الاسرائيليون أولاً. انا بحاجة لهذه الذريعة لـــتهدئة الاردن. وبـــذلك يمكـــن القول ان العملية ليست موجهة ضد الدول العربية.

بورجيس مونوري: كان بن غوريون حريصا على الا تكون مدنه تحت مرمى العدو. لذا اصّر على التمتع ليس فقط بالدعم البريطاني وانما بالفرنسي ايضا. كان منفـــرجا للغايـــة يـــومها وأذكر احدى خواطره فقد كان صديقا قديما لي. قال: "بورجيس، قل لي ما الذي يجعل الاشجار لا تتقاتل أبداً مع بعضها البعض".

مديـــر الندوة: في 24 اكتوبر – تشرين الأول مساء وبعد موافقة او علم رئـــيس الجمهـــورية والبرلمان ومعظم الوزراء تم توقيع بروتوكول" سيفر" الذي ينطوي على سيناريو شديد النفاق. فهو يلحظ ضربة عسكرية لمصر بعد 5 ايام مـــن توقـــيعه ويتيح لفرنسا وبريطانيا التدخل من بعد دون ان تكونا معتديتين وذلـــك بعـــد ان توجه الدولتان انذاراً إلى مصر واسرائيل وتتدخلان من أجل الفصل بين المتحاربين. وفي الحقيقة من أجل احتلال القناة والعمل على اسقاط جمال عبد الناصر.

بعـــد ظهر 29 اكتوبر – تشرين الأول 1956 شن الاسرائيليون هجوما كبيراً ضد القوات المصرية بغية الوصول إلى القناة في اليوم التالي. وعندما علِمَت بالامر، الـــذي تعرفه سلفاً، وجهت حكومتا فرنسا وبريطانيا مجتمعتين ومنفردتين نداء إلى الطرفين فيما يلي ابرز نقاطه:

1. إلى الحكومة المصرية: القبول بوقف اطلاق نار شامل وسحب القوات إلى بعد 15 كلم من القناة والقبول باحتلال قوات فرنسية – بريطانية لمواقع اساسية في قـــناة الـــسويس لضمان حرية ملاحة السفن التي تنتمي إلى كل البلدان وحتى التوصل إلى اتفاق نهائي بين الطرفين.
2. الى الحكـــومة الاسرائيلية: القبول بوقف اطلاق نار شامل وسحب القوات إلى بعـــد 15 كلم من القناة. واذا لم تقبل الحكومة المصرية بالشروط المقترحة في مهلـــة محـــددة فـــان القوات الفرنسية – البريطانية تهاجم القوات المصرية في الساعات الأولى من 21 اكتوبر – تشرين الأول.

وكما كان مرسوما قام الجيش الاسرائيلي بمساعدة خفية من الطيران الفرنسي بالهجـــوم على سيناء في اطار عملية" قادش" ما سمح لموشي دايان بزعزعة الجيش المـــصري والوصـــول إلى منطقة القناة وباحتلال كامل سيناء. في هذا الوقت كان

لــوي مــونجان في اســرائيل ينتظــر انتهاء مهلة الانذار الفرنسي البريطاني الذي سيستخدم ذريعة لتدخل البلد ين.

لــوي مــونجان: قــضيت اليوم الأول من المعركة في تل ابيب وفي مكان تقدسه اسرائيل. كنت مع شيمون بيريس ومع ضباط ارتباط. تابعت من هناك سير العمليات ساعة بساعة من الجانب الاسرائيلي ثم ذهبت للقاء بن غوريون. بعــد انــتهاء الوقت المخصص لاذاعة الانذار اتصلت بباريس وقلت لهم ننتظر الانــذار فقيل لي نحن بدورنا ننتظر البريطانيين. اذكر انه في الساعة 11 وثلاثين دقيقة خرج بن غوريون عن طوره وصار يقول: الانذار، اين الانذار؟ ذكر ذلك بلكنته البولونية التي تطبع انجليزيته وفرنسيته في الآن معاً. وعندما وصل الانذار تنفسنا الصعداء.

بورجيس مونوري: كانت قضية التغطية الجوية لاسرائيل في غاية الاهمية، فقد قمــنا حينذاك بارسال وحدات فرنسية والبسناها الزي الحربي الاسرائيلي وموّهنا طائــراتنا بالرموز الاسرائيلية. وهذه المرة الأولى التي يحصل فيها مثل هذا الأمر في تاريخ فرنسا. و لم يسقط أي من طيارينا او طائراتنا في ذلك الحين.

مدير الندوة: وتم حفظ السر فيما بعد.

مونــوري: ... بدلــيل انك لم تكن تعرفه من قبل. طائراتنا هي التي حملت المظلــيين الاســرائيليين وقذفتهم على بعد 15 كلم من القناة في الساعات الأولى للقتال[5].

لــوي مــونجان: كــان البريطانيون على علم بوجود طائراتنا على اراضي اســرائيل. وكــي لا نــثير مــشاكل للاسرائيليين وضعنا الطائرات تحت الرموز الاسرائيلية. وقد زرت شخصيا طيارينا في ذلك الوقت للتأكد من ذلك.

بــرتو فــاري: كــنت في القاهرة حينذاك. لم تشعر العاصمة المصرية كثيراً بالحرب. لم يقلقنا الاسرائيليون في اية لحظة.

(5) كشف هيو توماس النقاب عن اتفاق سيفر في العام 1966 بعد مضي عشر سنوات على الغزو في مقــال كتبه في التايمز اللندنية وفي العام نفسه نشر محمد حسنين هيكل كتابه الأول عن اسرار حرب السويس وضمنه المعلومات المذكورة حول المظلة الجوية الفرنسية. المصدر نفسه.

مديـــر الـــندوة: رفض ناصر الانذارالبريطاني الفرنسي فأغار الطيران الحربي للبلدين على مصر في وقت كان فيه الجيش المصري في حالة ضياع. وتباطأ مظليو الجنرال ماسو وباتلر في قبرص لكي لا يتولد انطباع بان العملية معدة سلفا. انتظروا اسبوعا كاملا قبل الانـــزال. هذا الاسبوع سمح لناصر ان يحرك الرأي العام الدولي ضـــد فرنسا وبريطانيا. وفي نيويورك في 2 تشرين الأول - نوفمبر طالبت الجمعية العامة للامم المتحدة بوقف النار.

كريـــستيان بينو: طالبت مجموعة عدم الانحياز والمجموعة السوفياتية اسرائيل بوقف النار الفوري وطلبت منا ذلك فيما بعد لاننا اضعنا عدة ايام قبل ان تنـــزل قواتـــنا في مـــصر. كانت تلك غلطة كبيرة من جانبنا. لقد جوبهنا بمجابهة عنيفة في الامـــم المتحدة واصيب ممثلنا هناك بانهيار عصبي. وكان يجب استبداله. انها بالفعل لحظـــات صـــعبة جدا. لكن في الوقت نفسه وفي اروقة الامم المتحدة كان البعض يقـــول لـــنا استعجلوا وتخلصوا من عبد الناصرقبل ان نقترع. لن افضح اسماء هنا. هـــناك كـــثيرون ممن طالبونا بذلك وبصورة خاصة ممثلو بعض الدول العربية[6]. الحقـــيقة ان ناصـــر كـــان يتمتع بشعبية في الاكواخ وليس في السفارات العربية. بالمحصلة كنا نعيش حالة صعبة جدا بكل تاكيد.

لوي مونجان: قررت الذهاب إلى الاركان في اليوم الرابع للعملية التي كانت قد انتهت من الجانب الاسرائيلي. وتحدثت إلى الاميرال بارجو وقلت ماذا تنتظرون لم يعد هناك عدو فانا عائد من اسرائيل واعرف ان الاسرائيلين اوقفوا عمليتهم لانه لايـــوجد امـــامهم عدو فلماذا لا تقومون بالانـــزال؟ قال لي الجنرال" بوفر" ليس ممكـــنا لأن المخطط لا يلحظ ذلك. بالنسبة له كان الأمر يشبه الانـــزال الذي تم في الـــنورماندي في العام 1944 (يوم انـــزل الحلفاء قواتهم على الشواطئ الفرنسية نهاية الحرب العالمية الثانية).

الجنرال ماسو: كان الطيران المصري محطما بالكامل مساء 2 نوفمبر. في ذلك المـــساء جاءني إلى مركز القيادة الفرنسية - البريطانية الجنرال" برونت" الذي كان

(6) تكـــرر هـــذا الموقـــف حرفيا خلال حرب تموز - يوليو العدوانية الاسرائيلية ضد حزب الله في جنوب لبنان.

يقـــود الطيران الفرنسي وقال لي انا مستعد لحماية القوات البرية بشكل كامل وانا جاهـــز للمشاركة شخصيا في هذه العملية. هذا يعني انه كان بوسعنا منذ مساء 2 نوفمـــبر التحـــرك بواســـطة قـــوات محمولة. لكن التعارض في الطرق بيننا وبين البريطانيين اخّر ذلك. هم كانوا يفضلون الدخول من الطرق البحرية قبل انـــزال المظليين وذلك يكتسب اولوية بالنسبة اليهم وهو في نظرنا امر غير ضروري. ولكن كـــان علينـــا اقنـــاعهم بان انـــزال المظليين يجب ان يتم اولا. عندما علمت ان الاسرائيلين صاروا على القناة قلت حسنا فلنبدأ الانـــزال.

مدير الندوة: في 1 نوفمبر 1956، تم تحطيم المقاومة المصرية ونـــزلت الفرقة المظلية العاشرة التابعة للجنرال ماسو في بور فؤاد بالقرب من قناة السويس. فكيف تم ذلك؟

الجنـــرال ماسو: في 4 نوفمبر اتصلت بالجنرال" بوفر" وتم الانـــزال. عندما نـــــزلنا تجولنا بالسيارات برفقة دراجات نارية تسير بسرعة عادية. لم نلق مقاومة تذكر في حين ان الانجليز جوبهوا بمقاومة أكثر أهمية في بور سعيد.

مدير الندوة: في الوقت الذي كانت فيه المدرعات السوفياتية تسحق انتفاضة بودابست في هنغاريا اراد الاتحاد السوفياتي ان يحرّف أنظار الرأي العام. ففي ليلة 5–6 نوفمبر ارسل الماريشال" بولغانين" رسالة تهديد إلى بن غوريون وانطوني ايدن وغي مولـــيه. قال فيها ان الحرب التي اشعلتها بريطانيا وفرنسا وجرتا اسرائيل اليها هي حرب خطيرة جدا في نتائجها على السلام العالمي واعتبر ان" من واجبي ان اعلمكم ان الحكومة السوفياتية مصممة على اللجوء إلى القوة لوقف المعتدين واقامة السلام في الـــشرق الأوسط، ومازال هناك وقت للبرهان على التعقل ووقف القتال ونأمل في هـــذه الساعات العصيبة ان تستخلص الحكومة الفرنسية النتائج المناسبة من هذا الوضع"

كريـــستيان بيـــنو: لقد هدد الروس الانجليز باطلاق قنبلة نووية على لندن وتتذكرون الشكل الذي اطلق فيه هذا التهديد. وعندما قابلت" خروتشوف" بعد أشـــهر قال لي: بالتأكيد لم يكن مطروحا الهجوم على لندن و لم اكن اعتقد انكم اغبياء لحد تصديق ذلك. من جهة ثانية مارس الأميركيون ضغوطا على البريطانيين

واوصـــلوا الجنـــيه الاسترليني إلى حافة الهاوية. يومها تلقى ايدن اتصالا هاتفيا من ايـــزنهاور قال له فيه: ساسقط الجنيه اذا لم تتركوا القناة بسرعة وفورا. الانتخابات الرئاســـية الأميركـــية لعبت دوراً في هذا التحرك الأميركي السريع. يومذاك قال ايزنهاور لسفير فرنسا: انا رجل متقدم في السن واصعد على سلم يقود إلى السماء وهـــناك أرغب ان اتقدم امام خالقي ويداي نظيفتان. هذه الجملة انقلها حرفياً عن سفيرنا في الولايات المتحدة. اعتقد انهم تحركوا لاسباب انتخابية. نحن كنا اخطرنا الولايات المتحدة بواسطة السي أي اي وبالتحديد شقيق فوستر دالاس الذي كان يقـــود المخابـــرات المركـــزية في حينه. وقد وصل تقرير شقيق دالاس إلى الرئيس الأميركـــي بعد 15 يوماً من العملية وكأن ذلك حدث بمحض الصدفة. ما الذي يمكن قوله بعد هذا؟!!!

مدير الندوة: هل كانت لديهم تفسيرات خاصة بذلك؟

كريستيان بينو: هناك الكثير من الشروحات (قالها بسخرية)

مدير الندوة: في الوقت الذي كان فيه مظليو" باتلر" و"ماسو" يقتحمون بور ســـعيد ويـــتجهون نحو القنطرة في السويس تعرض" غي موليه" و"انطوني ايدن" لهجمـــات مـــن كل صوب. في البرلمان البريطاني هوجم ايدن الذي كان مريضا حيـــنذاك مـــن حزب العمال واستقال العديد من وزرائه. في باريس نقل السفير الأميركـــي" غـــيوم" رسالة من" ايزنهاور" إلى "غي موليه" تطالب بوقف عملية" موســـكيتير". في الـــساعة الحاديـــة عـــشرة من اليوم نفسه واثناء استقبال موليه وكريـــستيان بينو المستشار الالماني "اديناور" الذي كان يقوم بزيارة لفرنسا مبرمجة من قبل، اثناء ذلك تلقى موليه اتصالا من ايدن الذي بدا منهارا.

كريـــستيان بيـــنو: اتصل ايدن هاتفيا واخذت السماعة واعطيتها لغي موليه فقال له ايدن: كما تعلم هناك ضغوط أميركية قوية جدا علينا وانا مضطر لايقاف العملية. اجابه موليه ستكون كارثة. ليست هذه اللحظة المناسبة للتوقف. يجب ان ننتظـــر بضعة ايام اخرى. كان موليه يعتقد بانه يمكن السيطرة على القناة بسهولة. فـــرد ايدن بقوله: لقد اعطيت الاوامر بوقف النار. في واقع الأمر ان اعلان وقف النار قبل مشاورتنا لم يكن موقفا سليما. هنا اجابه موليه: حسنا ساتصل بك فيما

بعد. بعد ذلك طرحنا السؤال على انفسنا ادیناور وغي موليه وانا: ماذا نفعل، هل نعطـــي الأمـــر بوقف النار؟ في الحقيقة لم تكن لدينا اية وسيلة لتأمين الامدادات لقطاعاتنا، اذ كان علينا ان نمر عبر البحرية البريطانية. تدخل اديناور وقال: لاحاجة للتردد في ما يفترض عمله. يجب التراجع والا ستكون لديكم متاعب كريهة ما لم تتوقف النار. وبالفعل قررنا نحن الثلاثة التراجع واعطاء الاوامر بوقف النار.

الجنرال ما سو: حوالى الساعة السادسة مساءً تلقى الكولونيل" شاف" من رئاسة الاركان رسالة شفهية من الجنرال بوفر يخطره فيها ان وقف النار قد بدأ منتــصف الليل. علمنا بذلك من زميل شاف الكولونيل الفرنسي" غودار" فما الـــذي كـــان بوســعنا عمله؟ لقد كان ناصر جاثيا. نحن العسكريون لم يكن بامكاننا توقع النتائج السياسية لما يجري. في الساعة 9 و45 دقيقة مساء علمنا ان وقـــف النار سيبدأ رسميا في منتصف الليل، لذا اتجهنا بواسطة دبابات سنتيريون إلى طـــريق الجـــنوب وصرنا أقل اندفاعا لأن وقف النار اقر وبدا ان كل شيء انتهى.

بـــرتو فاري: كان لدى ناصر الوقت الكافي ليحول هزيمته إلى انتصار. لقد خسر الحرب عسكريا وكسبها سياسيا. كان ذلك نصرا سياسيا هائلا له.

مدير الندوة: في 9 نوفمبر – تشرين الثاني وبعد مضي 3 ايام على العملية العـــسكرية استخلص غي موليه النتائج من قضية السويس فاكد انه يجب على كـــل منا ان يعرف اثارها وقال: انا متاكد ان عبد الناصر فقد ماء وجهه. لقد انهـــارت في عدة ايام، بل في عدة ساعات قوته العسكرية وفرقه التي كان يقول عنها انها فرق النخبة العسكرية. هذه الفرق لحقت بها هزيمة منكرة. لقد سحق طيرانـــه والـــياته دمـــرت في المستودعات او على ارض المعركة. بحريته الحربية اغرقت او اسرت في اعالي البحار، وهذا من النادر ان يحصل في تاريخ البحرية العالمـــية. لقد فرّت بعض قطع البحرية اسيرة إلى الموانئ. إلى ما يمكن رد هذه الهـــزيمة؟ ان شـــهادات الـــسجناء العسكريين وغيرهم اجمعت على ان الجنود المـــصريين لم يكونوا مستعدين للموت من أجل عبد الناصر. اما الضباط فكانوا يبادرون للهرب تاركين رجالهم وراءهم.

برتو فاري: في القاهرة بدا وكأن الاجماع تحقق للمرة الأولى حول جمال عبد الناصر. والسبب الاساسي في هذا الاجماع هو الهجوم الاسرائيلي ثم الهجوم الفرنسي وذلك على كل المستويات بما فيها اعداء الناصرية. في الصالونات كان الفرنكوفونيون يرددون نحن نحب فيكتور هيغو بالفعل، لكننا نعارض غي موليه واحيانا كان البعض من هؤلاء يقول: انا لا اتحدث بالفرنسية ويقولها للفت الانظار. اذكر ان احدى صديقاتي المصريات، وكانت معروفة بكونها باسيوناريا المعارضة المصرية ضد الناصرية، التقتني ذات يوم في الشارع وقالت لي فجأة: ابتداء من الآن لا تحدثني بالفرنسية بل بالعربية.

مدير الندوة يختمها بقوله: حلت قوات الامم المتحدة محل القوات الفرنسية التي حرمت من النصر في السويس. وكان على مظليي الجنرال ماسو ان ينسحبوا إلى الجزائر بعد الهند الصينية. بعد عدة أشهر أي في ايار - مايو 1958 سيقلبون الجمهورية الرابعة في فرنسا.

الباب الرابع

هزيمة حزيران

تسألني بائعة الكبريت

عن أعداء الوطن متى يأتون

فقلت لها نامي

فعدو الوطن سيختتن الليلة تحت جدار المبكى.

أمل دنقل

اذا خسرنا الحرب... لا غرابة

لاننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة

لاننا ندخلها

بمنطق الطبلة والربابة.

نـــزار قباني (1)

---

(1) يمكـــن العثور على تفاصيل أكثر في موقع الخامس من حزيران الذي يحتوي على قصائد عديدة حـــول الحرب. في هذا السياق يلاحظ أن نقاد الهزيمة ينتمون بمعظمهم إلى الأوساط التي تقف على يسار الناصرية وبخاصة التيار الماركسي وبالأخص التيار الماركسي اللينيني الذي كان يعتقد بـــان الانتصار على إسرائيل رهن بتغيير الأوضاع المحيطة بالدولة العبرية بطريقة جذرية. بكلام آخـــر الانتصار على إسرائيل يتطلب ثورة اجتماعية تتوج بأنظمة سياسية تحكمها الطبقة العاملة وفكـــرها وتـــتكون هذه الأنظمة في إطار الصراع مع إسرائيل. وضمن تحالف استراتيجي مع الاتحـــاد الـــسوفييتي أو بمعزل عن هذا التحالف بل بالتضاد معه بالنسبة ليسار حركة القوميين العرب الماركسي. كانت الحرب الأهلية في الأردن عام 1970 أو ما عرف من بعد باسم أيلول الأسود نموذجا تطبيقيا لهذا الطرح الذي أصيب بفشل ذريع دون أن يبادر دعاته إلى إعادة النظر في الأسس التي انطلق منها ومن بينها الحملة على الناصرية.

نكسة أم نهاية المطاف؟

فيصل جلول

تعكس المقتطفات الشعرية أعلاه جانبا من الأجواء المهولة التي انتشرت توا عقب هزيمة الخامس من حزيران - يونيو عام 1967. في المسرح قال سعد الله ونوس (حفلة سمر من أجل 5 حزيران) ما قاله الشعراء. وفي الدراسات السياسية والاجتماعية كان للهزيمة وقع الزلزال ولعل كتاب صادق جلال العظم (النقد الذاتي بعد الهزيمة) شاهد على صورة الكارثة التي حلت بالعرب، والتي بدت وكأنها لم تكن متوقعة أو محسوبة أو اقله محتملة في الأوساط العلمانية في حين كانت محسوبة كفعل إيمان لدى التيارات الدينية التي كانت ومازالت ترى أن الهزيمة والنصر على الأعداء يتقرر وفق البعد أو القرب من الإيمان، لذا كانت صورة الهزيمة مهولة لدى الإسلاميين أيضاً ويمكن العثور على تعبيراتها بخاصة في أدبيات الأخوان المسلمين[2].

كان حجم الكارثة موازٍ للرهان الإعلامي اليقيني الذي عقدته القيادة الناصرية على الحرب:سحق إسرائيل. فإذا بالدولة العبرية تطيح بوسائل الحرب العربية خلال ستة أيام وتسيطر على أراض جديدة تفوق مساحة تلك التي احتلتها في العام 1948.

يصعب فهم حجم وانعكاس الهزيمة في المخيلة العربية عموماً ولدى النخبة حصرا دون التذكير بالظروف التي قادت إلى هذه المأساة، خصوصاً أن عملا من هذا النوع بات ميسرا إلى حد ما، بعد أن أدلى لاعبو تلك الفترة بشهاداتهم ومذكراتهم. في الخطوط العريضة التالية سيرورة مكثفة لسيناريو الكارثة:

1. كانت العلاقات الدولية محكومة بالحرب الباردة واستقطاب القوى بين واشنطن وموسكو. وكان الطرفان يعملان على ترسيخ نتائج الحرب الكونية الثانية وانهيار النظام الإمبراطوري المهيمن على العالم قبل الحرب، وبالتالي

---

(2) راجع مذكرات الشيخ القرضاوي في موقع التجديد.

تقاســم مــناطق نفوذ الإمبراطوريات الأوروبية ومنها بلاد العرب. في هذه المــرحلة الانتقالية انبثقت الناصرية في مصر بوصفها حركة تحرر قومية عربية واختارت التحالف مع الاتحاد السوفييتي بعد محاولات فاشلة للتفاهم مع الولايات المتحدة الأميركية. كان التحالف مع السوفييت يتيح هامشا أكبر للمناورة بالمقارنة مــع المعسكر الغربي الذي أشرف على نشوء إسرائيل ويحتفظ بسمعة كولونيالية سيئة للغاية لدى العرب، ناهيك عن انه يفرض على حلفائه آليات محكمة يصعب الفكــاك مــنها (راجــع مقال مكسيم رودنسون المترجم في الباب السادس من الكتاب). وفي سياق الاستقطاب كان الشرق الأوسط منطقة مصالح استراتيجية أميركــية وغربية من الدرجة الأولى وكانت موسكو تبارك ضمنا هذا التصنيف مقابل مباركة أميركية لمناطق نفوذ سوفييتية أخرى في العالم.

كان على الناصرية أن تتحرك وسط هذه الظروف فسددت ضربات قوية لبقايا الــنظام الإمبراطوري المتهالك خصوصاً في مصر والسودان والجزائر والمغرب العــربي عمــوماً وجــنوب الــيمن والخليج (راجع الباب الثاني حول حرب الــسويس) وانخــرطت في قواعد اللعبة الدولية في منطقتنا والتي تنطوي على ســقف لا يمكن تجاوزه هو سلامة إسرائيل وعدم السماح بزوالها، سوى أن هــذه القواعد ليست منــزلة من السماء وبالتالي يمكن تغييرها عبر معطيات جديدة. وفي ظني أن الناصرية كانت تعمل في هذا الاتجاه[3].

2. احتــرمت القاهــرة قواعد اللعبة وأخذت تبني اقتصادا وجيشا يسمح بفرض وقائــع جديدة في المنطقة وقواعد لعبة جديدة لكنها لم تكن قادرة دائماً على ضــبط إيقــاع العرب الآخرين. إذ كان عليها أن تواجه منذ مطلع الستينات عــرب أميركا من جهة وعرب البعث من جهة أخرى. الطرف الأول اختار الــتحالف مــع الولايات المتحدة وبريطانيا وضغط بقوة على الوضع الداخلي المــصري وفي الــشرق الأوســط عبر التيار الإسلامي، واختار الطرف الثاني

(3) استفدت كثيراً في هذا العرض من مخطوط هام أعده الدكتور كمال الطويل حول ظروف الهزيمة وتلاه مخطوط آخر حول تصور افتراضي لسلوك مختلف أثناء الحرب وأثره الافتراضي طبعاً على نتائج الحرب.

الضغط على القاهرة عبر السياسة الخارجية وبخاصة الصراع العربي الإسرائيلي مستندا أيضاً إلى السوفييت الذين لا يقيمون وزنا يذكر للتطلع العروبي نحو الوحدة، لا بل يرفضونه كما تبين من تجربة الجمهورية العربية المتحدة. ويمكن القول بلا تردد أن موسكو لم تنظر ولن تنظر بعين الرضا إلى عالم عربي موحّد على مقربة من مداها الاستراتيجي في الشرق الأوسط، ناهيك عن أن توحيد العالم العربي كان سيمر بالضرورة بانتقال مخزون الطاقة الأول في العالم إلى المجال السوفييتي وهو أمر يوازي إعلان الحرب بالنسبة للدول الغربية.

كان من السهل على ناصر أن يحتوي ضغوط عرب أميركا المتضررين من المد الناصري لكن كان من الصعب عليه أن يواجه ضغوط عرب البعث الذين يلعبون في الملعب القومي والسوفييتي نفسه، أي في المكان الذي تستمد منه الناصرية القسم الأساسي من شرعيتها بوصفها حركة لمجابهة الاستعمار والرجعية والصهيونية وليست تيارا إصلاحيا مصريا بحتا. ضغط عرب البعث مرتين على الناصرية وفي المرتين كانت نتائج الضغط سلبية على مجمل الحركة القومية. في المرة الأولى كان على ناصر أن ينقذ سوريا من الانضمام إلى المعسكر الشرقي أو من اجتياح تركي وشيك عبر الوحدة المصرية – السورية التي انفضت من بعد بمبادرة سورية وفي المرة الثانية كان عليه أن يدخل الحرب مع إسرائيل لإنقاذ دمشق من اجتياح إسرائيلي قالت تل أبيب مرارا انه سيقع بسبب رعاية السوريين للكفاح الفلسطيني المسلح.

هكذا أدى الضغط السوري بالورقة الفلسطينية إلى انكشاف الاستراتيجية المصرية واستدراج ناصر إلى صراع مفتوح مع الدولة العبرية يمر بالضرورة عبر الدعوة إلى تحطيمها أي التعرض في الوقت غير الملائم للأساس الذي يحكم قواعد التوازن الدولي في الشرق الأوسط.

أكبر الظن أن ناصر كان يدرك استحالة تحطيم إسرائيل لأنه لا يملك الوسائل من جهة ولأنه يعلم أن حلفاءه السوفييت يرفضون هذا الخيار ولأنه يعرف أن الولايات المتحدة لأميركية والغرب عموماً لا يتسامح مع خطوة من هذا النوع، خصوصاً في ظل إدارة ليندون جونسون التي صعّدت الحرب على

فييتنام و لم تنظر بعين الرضى لخسارة السعودية لشمال اليمن وتصاعد الثورة في جـــنوبه واستمرار الإندفاعة التحررية في إفريقيا والعالم العربي وكلها تدور في فلـــك الناصرية أو تتأثر بها. أضف إلى ذلك أن هذه الحركة التحررية تسيطر على قناة السويس التي تتدفق عبرها إمدادات الطاقة إلى الأسواق الغربية ناهيك عـــن الـــدور الحاسم الذي لعبته الناصرية في الضغط من أجل تشكيل منظمة الأوبيك أي كارتيل المصالح الوحيد في العالم الذي تشرف عليه دول عالمثالثية بحـــسب التصنيف السائد حينذاك. والحاصل أن الناصرية كانت تجمع أوراقا ومعطيات من أجل تغيير وجه العالم العربي والشرق الأوسط على أن يتوّج هذا التغيير بحسم الصراع مع إسرائيل فإذا بها تدخل مضطرة حربا بلا عدة كافية[4].

3. عـــشية الحرب راهن ناصر على احتواء تهديد إسرائيل باحتلال سوريا وتغيير نظامهـــا عبر تصعيد التوتر واللعب على حافة الهاوية. فشل في تجميع وحدات الأمـــم المتحدة على الحدود فاضطر للمطالبة بسحبها. أغلق مضائق تيران أمام الملاحـــة الإسرائيلية ظنا منه أن بالإمكان استخدامها ورقة تفاوضية في مجلس الأمـــن فأصبح عرضة للضغط الدولي من أجل التراجع عن قراره. افترض أن تحذيـــر القوى العظمى من الحرب ومعاقبة البادئ بها يكفي للعمل تحت سقف الـــلا حـــرب، وبالتالي حصر التصعيد في إطار التفاوض الدولي فبدا أن أفق الـــتفاوض شـــبه مـــسدودة. اكتشف بعد فوات الأوان انه لم يعد قادرا على التـــراجع فأرسل فرقه العسكرية إلى سيناء. واكتشف أيضاً انه غير قادر على التحكم بتوقيت الضربة الأولى عندما حذره السوفييت من البدء في الحرب وتم بالـــتالي إلغـــاء الضربة الإستباقية المصرية للمطارات الاسرائيلية في 27 ايار – مايـــو. حسب انه في حالة الحرب سيكون قادرا على الصمود تمهيدا لتحريك الوضـــع الدبلوماســـي الدولي، وبالتالي الاعتماد على السوفييت لإيجاد مخرج مـــشرف وفي ذهـــنه ربمـــا تجربة غزو السويس لكن أعداءه كانوا على علم

---

(4) يتحدث الخبير النفطي الدولي بيار ترزيان عن دور الناصرية الحاسم في تأسيس الاوبيك في كتابه الشهير "المدهش في تاريخ الاوبيك" صدر مترجما عن دار الحداثة في بيروت عام 1991.

– pierre terzian - l'étonnante histoire de l'opeq-jeune afrique paris 1984

بمناورته ويرغبون في دفعه أكثر فأكثر نحو الحرب.

4. في إسرائيل كان الجيش يضغط باتجاه الحرب فيما الحكومة تنتظر الضوء الأخضر الأميركي. كان لدى واشنطن دوافع كبيرة لوضع حد للظاهرة الناصرية التي تشكل كابوسا حقيقيا يخيم على مصالحها وعلى حلفائها في المنطقة. والراجح أنها كانت راغبة في حمل عبد الناصر على التراجع المهين عن الخطوات التي اتخذها، وبالتالي مواجهة منافسة حادة على السلطة مع كتلة عبد الحكيم عامر العسكرية وخسارة الشارع العربي الذي ما برحت وسائل الإعلام المصرية تعده بتدمير إسرائيل وما يعنيه ذلك من نصر سياسي إسرائيلي مدو أو خوض حرب تنطوي على هزيمة عسكرية محققة.

دعت واشنطن إلى إشراف دولي على طرق الملاحة في المضائق بيد أنها فشلت في مجلس الأمن بسبب تدخل السوفييت الذين حالوا أيضاً دون صدور قرار أممي بمعاقبة مصر. مع تعثر الحل السياسي باتت الحرب حتمية وبات زمام المبادرة في قبضة الإسرائيليين الذين كانوا واثقين تماماً إن الولايات المتحدة لن تكون محرجة أمام العالم إذا ما بدأ الإسرائيليون الحرب، طالما أن محاولات ثني ناصر على العودة عن قرار إغلاق المضائق قد باءت بالفشل وتفيد المصادر الإسرائيلية أن واشنطن وافقت ضمنا على الضربة الإسرائيلية الأولى[5].

(5) شاعت إثر الحرب تحليلات إستصغارية حول العرب تقول إن إسرائيل دولة الثلاثة ملايين نسمة قهرت العالم العربي المؤلف من 200 مليون نسمة و22 دولة. ترمي هذه التحليلات إلى تعظيم إسرائيل فالصحيح أن سبع دول عربية كانت مازالت غير مستقلة بعد وهي قطر (1971) الإمارات (1971) البحرين (1971) جيبوتي (1977 الصومال (1974) وجنوب اليمن (نوفمبر 1967) ودولتان لم تنضما إلى الجامعة العربية هي عمان مستقلة منذ العام 1950 ولم تنضم للجامعة إلا في العام 1971 وموريتانيا مستقلة منذ العام 1960 ولم تنضم للجامعة إلا في العام 1973 وجزر القمر استقلت عام (1975) وانضمت للجامعة عام (1993) ولم يكن قد مضى بعد على استقلال أربع دول عربية إلا بضعة سنوات فقط وهي الكويت عام (1961) الجزائر 1962)السودان (1956) تونس (1958) المغرب (1956) ليبيا (1951). انسحبت القواعد العسكرية الإيطالية والأميركية منها في العام (1970).

كانت الدول المستقلة الوحيدة في حينه هي مصر (1922 استقلال شكلي حتى العام 1952 لكن الجلاء البريطاني تم عام 1956) وسوريا عام (1946) ولبنان عام (1946) والسعودية (1932) والعراق (1932) والأردن عام (1946).

5. في السياق نفسه يبدو أن السوفييت كانوا يحبذون قائداً مصرياً يحتاج إليهم أكثر مما يحتاجون إليه. فقد كان ناصر يملك قدراً كبيراً من الاستقلالية ويلعب لحسابه الخاص ويحتفظ بطموح إمبراطوري عبر بناء الدولة العربية الكبرى. ولعل ذلك يفسر اعتراض الروس على الوحدة المصرية - السورية وتحذيرهم مصر من المبادرة إلى ضربة إستباقية في 27 أيار - مايو وعدم موافقتهم على إزالة إسرائيل وعدم قدرتهم على التحكم في السياسة الناصرية الهجومية، ما يعني أن موسكو وان كانت لا تتمنى الهزيمة لناصر إلا أنها ربما كانت تشعر بارتياح أكثر لناصر يحتاج إليها تماماً أكثر من ناصر تحتاج إليهً تماماً ولعل ذلك يفسر أيضاً انضباط ناصر في الإيقاع السياسي الروسي بعد الهزيمة وصولاً إلى موافقته على مشروع روجرز واستعداده للتخلي عن السياسة الهجومية المصرية في العالم العربي ومن ابرز مظاهرها المصالحة مع السعودية وسحب الجيش المصري من اليمن.

5. وسط هذه الظروف كان من الصعب الرهان بصورة جدية على الفوز في الحرب ويلاحظ ذلك من خلال أسئلة ناصر المتكررة للقيادة العسكرية، ليس عن قدرة الجيش المصري على تدمير إسرائيل، وإنما عن مدى صموده في حالة حرب معها. بكلام آخر كان ناصر يراهن على المناورة السياسية للخروج من الأزمة عبر الصمود في الحرب وليس كسبها وذلك أمر لا يمكن التحكم به لأنه يفترض انضباط الطرف الآخر في الحسابات المصرية في حين أن للطرف الآخر حساباته الخاصة في منطقة مصنّفة كما أشرنا منطقة مصالح غربية استراتيجية.

6. أطاحت نتائج الحرب التي ظهرت في اليومين الأول والثاني بكل الحسابات السياسية لناصر والسوفييت وحررت الأميركيين من الضغوط الدولية وجعلت إسرائيل في موقع من يفرض شروطه المطلقة. لقد أدت الحرب إلى انكشاف استراتيجي مريع لم تخفف منه حركة الاصطفاف العربي المصطنع قبيل الخامس من حزيران: انتقال الدول العربية المناهضة لناصر إلى موقع المؤيد له أو المحارب معه (السعودية - الأردن) دون تنسيق ودون خبرة تذكر في خوض الحرب ودون عتاد ملائم. (أبادت إسرائيل وحدات عسكرية عراقية بسبب تصرفات

صـــبيانية من طرف المسؤولين العراقيين) و لم يكن بوسع ناصر الإفادة من دعم العرب المخلصين خصوصاً الجزائر التي جاء وزير خارجيتها عبد العزيز بوتفليقة بعـــرض بهذا الخصوص للرئيس المصري فور بروز ملامح الهزيمة ناهيك عن أن الجزائر نفسها لم تكن تشكل قوة عسكرية مهمة فقد نالت استقلالها منذ خمس سنوات فقط[6].

7. لعـــب التـــنافس بين ناصر وعامر دوراً مهما في توسيع حجم الهزيمة وليس في جوهـــر الصراع، يضاف إلى ذلك القرارت العسكرية السيئة التي اتخذت بعد الضربة الجوية الإسرائيلية والتي زادت من حجم الهزيمة ومن هولها. كما لعب الارتباك وركاكة التنسيق على الجبهات الأخرى دوراً مهما في سقوط الضفة الغـــربية والجـــولان دون أن يكون هذا الدور جوهريا ذلك أن الحرب كانت تخـــاض بقيادة مصرية وعندما ضربت القيادة المصرية باتت الأطراف الأخرى مكشوفة في مسرح عمليات مفتوح أمام آلة الحرب الإسرائيلية.

دروس الهزيمة

الـــسؤال الكـــبير الـــذي طرحته الهزيمة ما زال مطروحا مع الأسف حتى الـــيوم:هل ما أصابنا نكسة أم كارثة تضعنا على حدود نهاية المطاف؟ جاء رد الناصـــرية علـــى السؤال سريعا وربما بعد أيام من الهزيمة عبر القول: ما حصل نكسة يمكن تجاوزها. كل الشعوب تهزم لكنها تهيء نفسها لمعركة أخرى يمكن مـــن خلالها محو آثار الهزيمة وبالتالي الانتصار مجددا. و ينسب وصف الهزيمة بـــ "النكـــسة" لمحمد حسنين هيكل احد أعمدة النظام الناصري قبل الحرب. كما ينـــسب للناصـــريين الـــذين أحاطوا بـــ "الريس" ترتيب أسس هذا الوصف وأبـــرزها: ســـبب النكـــسة هو خروج جيش عبد الحكيم عامر عن السيطرة وضـــعف تأثير عبد الناصر في القرار العسكري ما يعني أن الهزيمة نتيجة منطقية لانحراف عامر وأدائه الركيك وسوء تدبيره للمعركة وانعدام كفاءته لا بل تآمره

(6) حول الموقف الإسرائيلي يمكن الإطلاع مع التحفظ واليقظة على كتاب الإسرائيلي مايكل أورين ستة أيام من الحرب.six days of war, Michael B. oren oxford, university press. new york

علـــى الثورة والنظام الناصري. وجرى عرض أدوار "المشير" السلبية في المعارك الناصـــرية البارزة:حرب السويس. الوحدة المصرية السورية. حرب اليمن. إلى حرب حزيران. في حين يرى أنصار عامر - كانوا قلة في حينه ولا اثر لهم اليوم - يرى هؤلاء أن رفض ناصر الهجوم الجوي الإستباقي في 27 أيار - مايو عام 1967 علـــى المطارات الإسرائيلية هو السبب في الهزيمة وأن ناصر وليس عامر مسؤول عما جرى. والحق أن هذا السجال هو من تداعيات الهزيمة وكان يراد مـــنه تحرير الريس من مركز قوة في الجيش ما زال يتضخم ويهدد بالخروج عن السيطرة.

دافـــع القائلـــون بـــ "النكسة" بقوة عن تصورهم وقالوا بضرورة الاستعداد مجددا للحرب. وبرهنوا من خلال معارك أكتوبر - تشرين الأول عام 1973 على صـــحة توقعاتهم انطلاقا من افتراض مفاده أن "يوم الغفران" لم ينبثق من فراغ بل ارتـــسمت معالمـــه تدريجيا منذ يوم التاسع من حزيران واعتبروا أن "نصر أكتوبر" ممحـــاة أكـــيدة ل"هزيمة يونيو" وأن كبوة "الأيام الستة" ليست أكثر من عثرة في مـــسيرة مظفرة وبالتالي فإن الناصرية إيديولوجية راعية وصالحة للنصر في الصراع العربي - الإسرائيلي.

لا يـــسمع معارضو الناصرية القدماء والجدد خطاب حزيران الناصري من هـــذه الأذن، فهـــم يعتقدون أن هزيمة الأيام الستة كارثة تنطوي على أسباب عمـــيقة وجوهرية موجودة في صلب النظام السياسي العربي عموماً والناصري بخاصـــة وذهب البعض الآخر إلى حد القول إن النظام الاجتماعي العربي أنجب الهـــزيمة وان الفكر العربي برمته والديني بخاصة هزم في حزيران وان النصر يحتاج إلى نظـــام سياسي واجتماعي وثقافي مختلف جذريا ويحمل في مضاعفاته فرص النصر الحقيقية.

وذهـــب الـــبعض الـــثالث إلى القـــول إن السبب يكمن في العلمانية البعثية والناصرية وان الله خذل العرب في يونيو لأنهم ابتعدوا عن شرعه، ويرى هؤلاء إن الإسلام يحمل وحده النصر المبين على اليهود وسائر الكافرين. وأخيرا اعتبر البعض الرابع إن الهزيمة نهاية المطاف لأنها بالضبط ناجمة عن ميزان قوى حضاري غير قابل

للـــتعديل، وان الاعتراف بهذا الواقع يستدعي التفاوض مع الدولة العبرية بشروطها واعتبار الحق العربي في فلسطين حقاً نسبياً وان كان مطلقا من حيث المبدأ وبالتالي التفرغ للتنمية والتحديث والخضوع لشروط الهيمنة الغربية المطروحة على العرب[7].

عمـــق انتـــصار العرب الجزئي في حرب أكتوبر - تشرين الأول عام 1973 الخلاف بين الطرفين حول أسباب ونتائج حرب حزيران - يوليو عام 1967. فبدلاً من أن يمحو آثار الهزيمة جعلها مؤبدة في الذهن العربي وجعل إسرائيل قدرا لا راد لـــه وصارت الهزيمة منطلقا للنظر في أحوال العرب في شتى مناحيها مثال: القومية العربية انتهت مع الهزيمة. العمل العربي المشترك يقود إلى هزيمة جديدة لأنه يتمحور بالـــضرورة حـــول العداء لإسرائيل... الخ. النفط العربي ليس سلاحا ولن يكون ســـلاحا في المعـــركة لأن شـــروط إنتاجه سياسية ومتصلة بموازين القوى الدولية وإســـرائيل عنـــصر حاسم فيها. يجب أن تكف مصر عن سياسة الدوائر الناصرية العـــربية والإفريقية والإسلامية ويجب أن تنتهج سياسة خارجية متلائمة مع الغرب وغير مناهضة لمصالحه... الخ.

ما من شك أن الولايات المتحدة وإسرائيل لم تكن تحلم بان تعتبر مصر وبعض العـــرب إن مـــا حصل في حزيران نهاية المطاف، وان دور الهزيمة التأديبي في العقل العربي فاق التوقعات خصوصاً أن ناصر أوحى قبل وفاته بان سياسته الخارجية بعد حزيـــران لا تحمل المعنى السابق على الحرب. فكان أن دفع أنور السادات الابتعاد الناصري الغامض عن حلبة الصراعات العربية إلى الأقاصي واخرج مصر من الصف العـــربي ومـــن الصراع العربي الإسرائيلي ولعل الحاصل من بعد يصب في الاتجاه نفسه. ما يعني أن الهزيمة كانت نهاية المطاف بالنسبة للسياسة الخارجية المصرية فهل تتحمل الهزيمة خيار نهاية المطاف؟

---

(7) حـــول فرضـــية نهاية المطاف راجع حازم صاغية وصالح بشير في "تصدع المشرق العربي" دار رياض نجـــيب الريس للنشر بيروت 2004 وصاغية منفردا في "دفاعا عن السلام" دار النهار. بيروت 1998 ورد فيصل جلول في "دفاعا عن السلام العربي" المؤسسة العربية للنشر. بيروت - عمان 1999 ومـــن المفـــيد في هـــذا الـــصدد مـــراجعة الكاتـــب الإسرائيلي عمانويل سيفان بالفرنسية في Mythes politiques arabes. Emmanuel Sivan. Fayard. Paris. 1995

يصف جان لاكوتير هزيمة حزيران ب" سيدان" العرب ويبدي إعجابه ببراعة ناصـــر في الخروج منها ويرى أن أحدا غيره لم يكن قادرا على الخروج سالما من هذه الكارثة ويدرك لاكوتير تماماً عمق ما يقول لأن معركة "سيدان" محطة حاسمة في تاريخ فرنسا السياسي الحديث. فلنر إذن كيف خرجت فرنسا من كارثة سيدان التي تشبه مرة أخرى كارثة حزيران لا بل تتعداها. (راجع رؤية لاكوتير للناصرية في الباب الخامس من الكتاب)

معركة سيدان: نكسة أم هزيمة ماحقة؟

في العـــام 1870 اســتدرجت ألمانيا فرنسا لإعلان الحرب. وبالفعل أعلن الإمـــبراطور نابلـــيون الثالث الحرب ورافق بنفسه الجيش الفرنسي الخامس إلى مديـــنة سيدان الواقعة على بعد كلمترات من الحدود البلجيكية، لملاقاة الجيش البروسي الذي يقوده بيسمارك. في الأول من أيلول - سبتمبر شعر الإمبراطور الفرنسي أن الحرب تدور لمصلحة ألمانيا بعد معارك فاشلة خاضتها قوات فرنسية علـــى طـــول الحدود. قرر أن يسحب جيشه المؤلف من 170 ألف رجل نحو بـــاريس للدفاع عنها غير أن زوجته الإمبراطورة أوجيني الوصية على العرش في غيابه قررت العكس وطلبت من الجيش الذي يقوده الجنرال "دو مكماهون" أن يقاتل دفاعا عن فرق عسكرية فرنسية محاصرة. لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يقـــوم بهـــذه المهمة، إذ جرح في السادسة من صباح الأول من سبتمبر خلال معـــركة عـــسكرية وتولى قيادة الجيش الجنرال ديكرو الذي أدرك أن الجيوش الألمانـــية في ســـبيلها لحصار الجيش الفرنسي فأعطى أوامره بان يتجمع الجيش اســـتعدادا للانسحاب شمالاً نحو مدينة ميزيير الفرنسية. لكن في العاشرة صباحا تغـــيرت قـــيادة الجيش مرة أخرى إذ تسلمها الجنرال دو ويمفين الذي عاد من إفـــريقيا في اليوم السابق ووصل إلى سيدان ومعه قرار من وزير الدفاع بتعيينه قائـــدا للجيش الخامس الذي يشرف عليه الإمبراطور. فور تسلمه منصبه ألغى قـــرار الانسحاب شمالاً ووضع مخططاً جديداً ينص على انسحاب باتجاه الشرق لكـــن الألمان شددوا حصارهم على الفرنسيين خلال ساعات مهددين بإبادتهم.

في هـــذا الـــوقت قرر نابليون الثالث الاستسلام مخالفاً رأي عد د من جنرالاته ورفـــع الـــراية البيضاء على سارية إحدى الكنائس فلم تستمر حربه أكثر من يومين. تم أسره وجيشه على يد بيسمارك ووقع وثيقة استسلام مهينة. ثم اقتيد إلى ألمانـــيا عبر بلجيكا. بعد يومين خلع النظام الإمبراطوري في باريس وأعلنت الجمهورية الثالثة. علم بونابرت بقرار خلعه من الصحف البلجيكية. حصل على إذن ألمـــاني بالـــسفر إلى بـــريطانيا ليلتحق بزوجته وبابنه. وبعد ثلاث سنوات سيموت في لندن اثر عملية جراحية لاستئصال حصوة في الكلية. أما ألمانيا فقد اقـــتطعت الألزاس وقسم كبير من اللورين. ولن ترجع هذه الأراضي إلى فرنسا إلا في العام 1918. ولعل الحدث الأبرز بعد الهزيمة هو إعلان الوحدة الألمانية في قـــصر فرســـاي الفرنـــسي وتلـــك هزيمة تفوق أضعافا مضاعفة هزيمة سيدان العسكرية[8].

ما من شك أن الهزيمة المصرية كانت مشرفة بالقياس إلى الهزيمة الفرنسية ذلك أن مجمل الخسائر المصرية لم يتعدى الثلاثين ألفا بين شهيد وجريح وأسير، ولم يوقع عبد الناصر وثيقة استسلام ولن يتأخر الجيش المصري في خوض حرب ناجحة في العام 1973 لاسترداد أرضه. وبخلاف مصر استمر الفرنسيون في التحضير للحرب حوالى أربعين سنة إلى أن استردوا الالزاس واللورين في الحرب العالمية الأولى. أما في مـــصر فقـــد قرر الرئيس أنور السادات استعادة سيناء مقابل الخروج من الصراع العـــربي – الإســـرائيلي وارتضى أن تكون الأراضي المسترجعة شبه منـــزوعة من السلاح وكل ذلك لا يتناسب مع حجم الهزيمة المصرية عام 1967 ولا يتناسب مع النـــصر العسكري الأولي في العام 1973 ما يعني إن إسرائيل التي ربحت في حزيران حربا فاقت تصورها وحساباتها نجحت في فيما اخفق به الألمان في سيدان أي جعل الهـــزيمة العسكرية في العقل المصري حجة على نهاية المطاف في الصراع العربي – الإســـرائيلي تقـــزيم السياسة الخارجية المصرية وحصرها في حدود ضيقة لا تخترق سقف السياسة الخارجية الأميركية في العالم العربي والإسلامي وأفريقيا.

(8) ملخص جزئي لرواية أحداث تلك الحرب. يمكن العثور على تفاصيل معركة سيدان ونتائجها في أي من كتب التاريخ الفرنسية الكلاسيكية.

خلال المرحلة التحضيرية لاستعادة الالزاس واللورين كان السياسي الفرنسي الاشتراكي الشهير جان جوريس يقول لمواطنيه لا تتحدثوا عن المقاطعتين لكن لا تنسوا التفكير بها لحظة واحدة. فالهزيمة لا تكون كاملة إلا إذا حولها المهزوم إلى قدر لا مناص من الخضوع لأحكامه.

في شهادته على الهزيمة في القاهرة في الثامن من حزيران - يونيو عام 1967 يصف الصحافي الفرنسي - اليهودي - والمصري الأصل اريك رولو مشاعر المصريين الذين غضبوا لدى موافقة بلادهم على قرار وقف النار بعد مضي ثلاثة أيام على بدء الحرب. هؤلاء أنفسهم سيحملون جمال عبد الناصر على الرجوع عن استقالته في التاسع والعاشر من حزيران وبالتالي مواصلة القتال الذي اتخذ شكل حرب استنزاف ستؤدي في نهايتها إلى رحيل الريس بعد مضي ثلاثة أعوام على الهزيمة تماماً كما هي حال نابليون الثالث. فإلى شهادة رولو.

حرب الأيام الستة
انهيار الجيش المصري

اريك رولو

لم تغــرق العاصمة المصرية في أي يوم مضى في ظلام شامل كما تغرق هذه الليلة. و لم تكن في أي يوم مضى مسحوقة بمثل هذا القدر من الصمت المطبق فيما الــساعة لا تتعدى العاشرة والنصف. تبدو القاهرة في هذا المساء من يوم الخميس الثامن من حزيران – يونيو وكأنها مدينة ميتة. التزم السكان بيوتهم مرعوبين مع أن الخــوار المشؤوم لصفارات الإنذار لم يلعلع و لم تنبح الكلاب منذرة بالموت. حتى الــسيارات القلــيلة ذات الأضواء المطلية باللون الأزرق التي كانت عشية الأمس تجــوب الشوارع ظلت بلا حراك. الجميع كان ينتظر غارة إسرائيلية شاملة. لكن ما حصل هو شيء آخر تماماً حمله "فلاش" مؤلف من بضعة كلمات وردت على الطابعة البرقية وكان لها وقع القنبلة المدوية على الجميع: "مصر توافق على وقف إطلاق النار"

كــان الــصحافيون المــصريون في قاعات التحرير، مرتابين، مذهولين، ســاخطين، أو مستــسلمين. ذلــك أن البرقيات المتتالية كانت قاطعة: وافقت حكومــتهم ولأسباب مجهولة بعد، أن تلقي السلاح بلا شروط. "لماذا؟ لماذا؟" كان السؤال يتردد في كل مكان. فالأخبار الواردة من جبهة سيناء طيلة النهار كانت مشجعة. الجيش المصري انتقل إلى الهجوم المضاد. وحدة إسرائيلية أبيدت. الطيران أو مــا تبقــى منه اشتبك مع طائرات تابعة للدولة العبرية وبعضها سقط. وعلى الجبهة الداخلــية بدأ تنظيم المقاومة الشعبية ومعنويات الناس لم تكن مرتفعة كما هي اليوم: كــان القادة يبدون وكأنهم مصممون على المقاومة حتى النهاية. الم يسر احد نواب رئيس الوزراء لأصدقائه الخلص قبل قليل إن" الإملاء الأميركي – الإسرائيلي سيرفض بالازدراء الذي يستحقه؟". ألم يكن يردد بإصرار إن الحرب لا تربح ولا تخسر خلال 48 ساعة؟

لم تنشر وكالة أنباء الشرق الأوسط و لم يبث راديو القاهرة النبأ بعد أكثر من

ســاعتين على إعلانه في نيويورك. لذا كانت الطروحات المذكورة جذابة إلى حد أنهــا احــتوت الــيأس، لكــنها سرعان ما انهارت خلال محادثة هاتفية مع أحد المسؤولين. كان هذا الشخص في العادة مقتصدا في كلامه لكنه أكد فورا نبأ وقف النار قبل أن يسترسل في كلام مستفيض تحت وقع الإعياء المؤكد.

أم كلثوم في الراديو

قال المسؤول "لم يعد بوسعنا أن نقاتل العظماء وحدنا. لقد ظهر لنا بوضوح من خلال هذه التجربة الأليمة إن العالم منقسم إلى معسكرين: القوى العظمى من جهــة والبلدان الصغيرة من جهة أخرى. إن مواصلة النضال ضمن هذه الشروط كــان ســيقودنا إلى انتحار جماعي. بعد ظهر هذا اليوم كان جيشنا في سبيله لأن يحقــق نصرا كبيرا. لقد تمكن بعد معارك محتدمة من قهر 40 ألف جندي إسرائيلي وحاصرهم عمليا. ثم ظهرت فجأة 300 طائرة ميراج إسرائيلية في السماء واندفعت تقــصف وحداتنا البرية في موجات متتالية فأبادتها بلا شفقة. لقد طويت الصفحة مــن الآن فصاعدا. ابتداء من الغد سنخوض معركة جديدة بالأسلحة التي مازالت بحوزتنا: قناة السويس والنفط"

إنها الساعة الواحدة والنصف ليلا بالتوقيت المحلي. في الراديو المغنية أم كلثوم تــشرع بالقسم الأخير من آهاتها سوى أن معبودة الجماهير العربية كانت في هذه اللحظة وحيدة بصورة مأساوية. كان صوتها الحار الذي يلهب الجماهير عادة مبددا في ظــلام هذه الليلة العاصفة. لا حركة حتى الآن من طرف السكان ولكن خلف الشبابيك المغلقة كان الرجال والنساء الذين يعيشون أقصى حالات التوتر ينتظرون نشرة الأخبار.

"التلفون العربي" يعمل بصورة مدهشة. لذا كان عدد كبير من القاهريين على علــم مــسبق إن خــبرا مصيريا سيعلن. مذيع راديو القاهرة يقرأ بصوت رتيب مختــصرات إخــبارية غير مترابطة ظاهريا ولكنها تقود إلى خاتمة محتومة. أعلن إن ناصــر بعــث هذا المساء برسائل إلى عدد من رؤوساء الدول الصديقة. ثم استقبل الــسفير السوفيتي. وفي مجلس الأمن تقدمت الولايات المتحدة بمشروع قرار قبل أن

يقدم السوفييت مشروعهم. أخيرا انقطع حبل الانتظار والترقب بعد أن أعلن المذيع إن مصر وافقت على وقف إطلاق النار.

أذيع النبأ عرضا قبل قراءة البيانات العسكرية الصادرة نهارا والتي تتحدث بمحاباة عن "نجاحات" الجيش المصري. لم يقدم أي تفسير لهذا القرار الذي أصاب المصريين بالذهول. كان عليهم أن ينتظروا إلى ما بعد ظهر يوم الجمعة لكي يستمعوا من رئيسهم إلى الأسباب التي حملته على اتخاذ قرار متناقض مع قراراته السابقة.

خلال هذا الوقت انتشرت التخمينات على نطاق واسع في قاعات التحرير المحمومة. لم يكن احد قادرا على الرد عن سؤالين أساسيين:لماذا قرر الرئيس عبد الناصر أن يتخلى فجأة عن النضال العسكري لماذا خذل السوفيات مصر؟ إن نكسة الجيش المصري لا تشكل بنظر بعض المراقبين سببا كافياً لهذا الاستسلام المزدوج الذي يرتب نتائج كبيرة على مستقبل النظام وعلى مكانة الاتحاد السوفيتي في المنطقة.

بالفعل تمتلك موسكو والقاهرة في اللعبة أوراقا فعالة تضاهي الانتصار العسكري. إن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للعالم العربي الموحد والمصمم على مقاومة شرسة يمكن أن تشكل وسيلة ضغط معتبرة. لذا فإن القول بمشاركة الأسطول السادس – بحسب الصحافة القاهرية – والطيران الأنجلو – أميركي في المعارك الدائرة يوم الخميس يمكن ألا يكون كافياً لتبديد المرارة العميقة للهزيمة.

الجمعة فجراً. اختفت من العاصمة اليافطات والشعارات التي تعبّر عن إرادة دحر الإمبريالية والصهيونية. كان المصريون يتصفحون العناوين الكبرى للصحف التي تعلن عن وقف النار وبعضهم يرسل شتائم لم تكن كلها موجهة للعدو.

لوموند 1967/6/10

الباب الخامس

سيرة الريس

عبد الناصر: الأمل العروبي

بقلم: جان لاكوتير

كانـــت مـــصر منهكة لزمن هو الأطول في التاريخ، مكبلة بأحابيل القوى العظمـــى، غرق شعبها في سبات طويل وحيل دون أن يتولى مسؤولية بلده، هكذا كانـــت تبدو في العام 1918 وكأنها أصيبت بنوع من الموت المدني. فرضت عليها بريطانيا الغارقة في الحرب الأولى ومنذ ثلاث سنوات نظام حماية مكروه ليحل محل أحابـــيل "السلطة غير المباشرة" واللورد كرامر[1]، فرضت عليها نظاما كولونياليا

(1) السير افلين بارينغ المعروف بـــ اللورد كرومر هو القنصل العام لبريطانيا في مصر من سنة 1883 إلى سنة 1907. تفيد سيرته بأنه كان سيد مصر الفعلي في تلك الفترة. كانت السلطة التنفيذية بيده بما في ذلـــك الخديـــوي والوزراء. لا يتخذ قرار أساسي في مصر من دون علمه. لا يصرف بند في الميـــزانية إلا بعد موافقته. لم يكن يصدر أوامر فجة بل يقرر بالإيحاء وادعاء النصح. أعاد تركيب الجـــيش المـــصري بمـــا يخدم حكومة بلاده وطوّر الري وشجّع زراعة القطن التي كانت تحتاجها صـــناعات النـــسيج في بلاده. لا يتردد عند الحاجة بإهانة الشخصيات العامة المصرية. كل ذلك رسخه في قواعد لسلطة بريطانية غير مباشرة في مصر التي احتلها الجيش البريطاني عام 1882 لكنها لم تصبح تحت الانتداب المباشر إلا في العام 1914. لم يكن اللورد كرومر يحبذ تأهيل دبلوماسيين مـــصريين معتبرا أن هؤلاء يمكن أن يصبحوا نصف غربيين وان ينضموا إلى التيار الوطني المناهض للكولونيالـــية، كما أنه كان يهمل دعوات إصلاح أوضاع المرأة. كان يؤكد أن الإسلام غير قابل للإصـــلاح علـــى الطـــريقة الغربية. ويعتبر أن إدارة مصر يجب أن توكل للأقباط إن لم تكن بيد الأوروبـــيين. يتضح ذلك بدقة في خطاب افتتاحي ألقاه في المدرسة الفيكتورية في الإسكندرية إذ يقـــول: ".. في هذه المدرسة 196 طالبا بينهم 96 مسيحي و67 يهودي و33 مسلم. وإذا أحصينا الجنـــسيات نجـــد بينهم مصريين وأتراكا وأرمن وسوريين ومالطيين ويونانيين وأسبانا وفرنسيين وسويـــسريين وبلجيكـــيين وإيطاليين وفي ذلك تكثيف للتنوع القائم في المجتمع المصري. آمل أن يساهم هذا الخليط في وئام القوميات وأملي هو أن يعي الناس الذين يتعلمون هنا كما الأوروبيين في هذا البلد بأنهم أبطال الحضارة الغربية لهذا السبب ولأسباب أخرى احيي إنشاء هذه المدرسة" أعلـــن رسمـــيا عن استقالة كرومر من منصبه لأسباب صحية ويرجح أن يكون السبب مرتبطا بحـــادث خطير وقع في قرية دنشواي في الدلتا المصرية عام 1906 حيث كان خمسة من الضباط البريطانيين يصطادون الحمام. رشقهم الفلاحون بالحجارة فردوا بإحراق منـــزل في القرية وتوفي احـــدهم بالـــسكتة القلبية الأمر الذي أدى إلى محاكمة أربعة من المزارعين وإعدامهم والحكم بالسجن 15 عاماً على آخرين ما أدى إلى إشعال موجة اضطرابات وطنية وصلت أصداؤها إلى بريطانيا حيث قال جورج برنارد شو معلّقاً على الحادث تخيلوا لو أن ضباطا صينيين يصطادون

صـــرفا. لكن الحرب لعبت دورها التقليدي كمولدة للثورات. قبل ذلك كانت قد بـــدأت تترسخ في أعماق البلاد حركة ليبرالية وطنية ستطلق على نفسها في نهاية السنة المذكورة اسم "الوفد" سوف تحرك خلال ثلاثين سنة الجسم الأساسي لمصر النيلية. وفي اللحظة التي كان فيها سعد زغلول يحضر للانتفاضة التي ستنتزع مصر من المكتب الكولونيالي البريطاني، ولد في الإسكندرية في 15 يناير عام 1918 الأبن الأول لموظـــف بريد مصري يدعى عبد الناصر حسين. (بعد أربعين سنة سيتظاهر الطلاب في القاهرة ضد النظام العسكري وسيسمونه نظام إبن البوسطجي).

كـــان ناصر من اصل اجتماعي معتبر، ذلك أن البوسطجي هو ابن فلاح من قـــرية بـــني مر الواقعة في أعالي النيل بالقرب من أسيوط في قلب الصعيد في وادي النـــيل الأعلـــى الذي أعطى هذا البلد أبناءه الأكثر تصميما واضطراما. هكذا هم أسلاف الريس أولئك الفلاحين ذوي الأقدام المحمرة من ماء أقنية الري الموحلة هم المـــزارعون الأكثـــر مـــزارعة على وجه الكرة الأرضية وأولئك الموظفين الصغار المجذوبين نحو المدن في مجتمع على طريق التحديث.

في مدرسة "النهضة"

كان يمكن لجمال عبد الناصر أن يظل حبيس قريته زمنا طويلا كما غيره من المصريين الكبار من أمثال سعد زغلول أو طه حسين ولكن مهنة والده ستنقله من مـــنطقة إلى أخرى. إلى الإسكندرية حيث ولد وحيث كان بوسعه أن يشعر وهو تلمـــيذ باســـتلاب بلـــده الكامل ذلك أن هذه المدينة المتوسطية الكبيرة مكرسة للكوسموبوليتية التي يصفها داريل[2] جيدا في رواياته. بعد الإسكندرية تبع والده إلى الخطاطبة في الدلتا وهي قرية شديدة الفقر و" منسية من الله" إلى حد انه لا توجد فيها مدرسة ابتدائية.

الحـــبش في الـــريف الـــبريطاني فماذا سيكون رد فعلنا غير ما فعله المصريون في الدلتا؟ استقال كرومر بعد الضجة في بريطانيا وتوفي في العام 1917 بعد أن جمع ثروة طائلة.

(2) لـــورانس داريـــل كاتب ايرلندي (1912 - 1990) عاش في الإسكندرية في الثلاثينات واهتم بطابعها الكوسموبوليتي وعرف من بعد بروايته الشهيرة والضخمة "رباعية الإسكندرية".

في الثامنة من عمره وبعيد وفاة والدته التي طبعته بصورة حاسمة، عهد به والده إلى عمه خليل وهو أيضاً موظف صغير ولكنه أكثر انشدادا إلى السياسة من أخيه عبد الناصر حسين، فاستقر جمال في مدرسة النحاسين – احد مراكز الوطنية المصرية – وهي واقعة في محيط الأزهر في الحي الأكثر حيوية والأهم موقعا في القاهرة: انه حي الجامعة الإسلامية وخان الخليلي حيث تختلط التجارة مع الإيمان الديني.

كان عمره 15 عاماً عندما عين والده مجددا في القاهرة عام 1933 فأقام في الحي الشعبي كورونفيش المحاط بالزواريب الحاشدة في باب شرقية: هنا اكتسب جمال الذي دخل مدرسة "النهضة" تجربة شعبوية وطنية. هنا برنامج كامل سيتبعه الفتى جمال الذي كان يتمتع أصلا بحيوية وبقدرة على النقاش شديدة الاضطرام وباستعداد لمواجهة السلطة إذ سوف يتلقى خلال إحدى عطله في الإسكندرية أول ضربة نبوت من احد رجال شرطة "راسل باشا"[3] خلال مظاهرة شهدتها المدينة ضد البريطانيين. وهو لن يتأخر في البحث عن تنظيم يندمج فيه لكي يناضل بصورة أفضل. في العام 1934 تقاعد صدقي باشا، رجل الدولة المحافظ والوحيد الذي كان قادرا على اعتراض الاندفاعة المصرية التحررية الأمر الذي أعطى دفعا للشبيبة المصرية وحزب الوفد.

بيد أن حزب زغلول والنحاس الكبير كان يمثل أصلا في نظر جمال حزب القدماء لذا جذبه الحزب "الاشتراكي" بزعامة احمد حسين الذي كان يحمل مناضلي مصر الفتاة على ارتداء القمصان الخضر. فهل انتسب جمال إلى هذه الرابطة ذي الميول الفاشية؟ من المؤكد انه ظل مخلصا لبعض قادتها حيث سنجد رجال مثل فتحي رضوان ونورالدين طراف في الصف الأول بين قادة نظام العام 1952. والظاهر انه خاض تجربة في هذا الحزب أكثر من تقديم ولاء الطاعة له.

وتصف وثيقة مؤرخة في العام 1935 بطريقة أخاذة شخصية هذا المراهق المتمرد الذي سيتحول إلى ثوري. الوثيقة عبارة عن رسالة كتبها إلى صديقه حسن النشار وفيها يؤكد "يقولون إن المصري جبان وبأنه يخاف من أدنى جلبة. في الواقع هو بحاجة إلى زعيم يقوده في النضال من أجل بلده. هكذا يصير المصري صاعقة

(3) اللواء راسل باشا كان حاكما عسكريا بريطانيا للقاهرة وقائدا للشرطة المصرية.

يمكنها أن تزلزل بنيان الاضطهاد (..).. لقد قلنا أكثر من مرة إننا سنعمل معاً من أجـــل إيقـــاظ الأمة من سباتها، (..). من أجل هذا سأنتظرك يا عزيزي عندي في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم 4 سبتمبر عام 1935 لنقاش هذه القضية". يلاحظ من هذه الرسالة أن حلمه الملحمي لا يطغى على حسه التنظيمي: هذه الرسالة هي باكورة صارخة لريس العام 1970.

جمـــال لا يكتفي بإثارة الحمية الوطنية لدى الآخرين: لقد أصيب في 12 نوفمـــبر 1935 برصاصة في جبهته عندما كان يقود مظاهرة أمام بيت الشعب وهو المقر السابق لسعد زغلول. وعندما وقعت مصر مع لندن اتفاقية عام 1936 وهي وثيقة استقلال مرجو ولكنه ما زال بعد مقيّداً بالتحالف مع بريطانيا، في هذه المناسبة قام الشاب عبد الناصر بتنظيم وقيادة مظاهرات ضد تسوية كانت تبدو له مخزية.

ضباط الصف في معسكر منقباد

في الثامـــنة عـــشرة من عمره كان عليه اختيار مهنة فأيها يختار؟بدأ دراسة الحقـــوق لكـــن دون الكثير من النجاح. في هذا الوقت حدّثه رفاقه عن الجيش. حينذاك أحدثت حكومة الوفد ثورة عندما فتحت أبواب الأكاديمية العسكرية لأبناء الفلاحـــين والمـــوظفين الصغار وكان يتوجب الاندفاع من هذه الثغرة المفتوحة. بالطـــبع كـــان الجيش المصري حينذاك أشبه بناد للبولو[4] معطوفا على حلقة من الـــضباط الـــبدن: الكـــرامة كانت تقاس بعرض الخصر ولكن الشبان المسيسين والطامحين كجمال ورفاقه سيغيرون ذلك كله.

هـــو ذا في الأكاديمـــية العسكرية في العام 1937 يحصل بسرعة على رتبة

(4) نـــادي البولو ينسبه الكاتب إلى لعبة البولو وهي رياضة قديمة كانت معروفة قبل آلاف السنين في فـــارس والـــصين ثم الهـــند واليابان وتعلمها البريطانيون خلال استعمارهم لبلاد البنغال ووضعوا قـــواعدها في القـــرن الثامن عشر. وتقضي شروط اللعبة بان يتبارى ثمانية فرسان في جهتي ملعب بطول حوالى 300 متر على ملاحقة كرة كبيرة بمضارب خشبية وتصويبها في هدف الخصم الذي يـــشبه هدف كرة القدم لكنه اصغر حجما منه ويقال بان كلمة بولو يعود أصلها إلى التيبت وهي تعني الكرة. والظاهر اليوم أن هذه اللعبة شائعة في بريطانيا أكثر من أي مكان آخر في العالم.

مـــلازم أول. في العـــام 1938 سيكون ترتيبه الأول في معسكر منقباد في أعالي مـــصر في مكـــان غير بعيد عن "بني مر" مسقط رأس عائلته. هناك تعرف على رفـــيقين سيلعبان الدور الأكثر أهمية في مساره: زكريا محي الدين (سيعينه في 9 حزيـــران - يونيو من العام 1967 خليفة له في كتاب استقالته) وأنور السادات نائـــب الـــرئيس الحالي وقد أخبرنا ذات يوم انه في هذه الثكنة اقسم مع رفيقيه للمرة الأولى على" تحرير مصر".

بعـــد ذلـــك سينقل ناصر إلى السودان (كان في حينه تحت الوصاية المصرية الـــبريطانية). هنا سيجد احد رفاقه في الأكاديمية العسكرية والذي سيصبح صديقه الحمـــيم وظله الوفي وعرابا لابنه قبل أن يسقط في "مؤامرة" غريبة: انه عبد الحكيم عامر.

غواية المحور

هـــا قـــد انـــدلعت الحرب العالمية الثانية وفيها كانت مصر" الحليف الدائم" لانجلترا. قلة هم المصريون الذين كانت لديهم رؤية تاريخية كافية الوضوح ليعتبروا أنـــه في هذا الظرف يكمن طريق الحرية. كثيرون رأوا في المحور ليس المثال الأعلى لكـــن القـــوة القادرة على تحطيم العدو البريطاني. ذلك كان تفكير معظم الضباط الشبان ومن بينهم عدد من رفاق ناصر المقبلين (حسن إبراهيم، حسن صبري) وقد اعـــتقلوا خلال محاولتهم الاتصال بروميل بطلب من المارشال العجوز عزيز المصري الموالي لتركيا.

جمـــال المتـــزن باكرا قياسا بالآخرين يبدو أنه نأى عن هذه المغامرة، ولكنه شـــارك في الـــسخط العام في 4 شباط - فبراير عام 1942 عندما أرسل المندوب الـــسامي الـــبريطاني العام آلياته لإجبار الملك فاروق على تعيين وزارة وفدية. لقد أدركت قيادات الحزب الكبير (لم تتبعهم قواعدهم) أن عليها التعاون مع لندن ضد المحـــور وقـــبلوا بالتالي أن يفرضوا على الملك بواسطة الأسلحة البريطانية. جمال لم يتـــبعهم هـــذه المرة فهو كان يؤيد جنرالا شابا قدم استقالته إلى الملك فاروق: انه محمد نجيب الذي لم يكن معروفا في ذلك الحين.

عيّن النقيب جمال عبد الناصر مدرسا في المدرسة الحربية في العباسية. في هذا الوقت تعرف إلى قاض ماركسي شاب هو احمد فؤاد سيؤثر تأثيرا كبيراً على تطوره الفكري. وفي هذا الوقت أيضاً بدأ يجمع من حوله عدداً من الرفاق: لم يكن الأمر متصلا بالمجموعة السرية التي ستستولي على السلطة في تموز - يوليو من العام 1952 ولكنها مجموعة تضم رجالا مثل ثروت عكاشة وصلاح سالم وخالد محي الدين ورفيق معسكر منقباد أنور السادات الذي أقام صلات مع الأخوان المسلمين - الأخوية المتشددة - والذي سيتعاطى قليلا من الإرهاب. هكذا انطلقت الحركة (الانقلابية).

نصف حرب في فلسطين

كان لا بد من حرب أخرى أيضاً لتوليد الثورة. في 15 أيار - مايو عام 1948 أعلن عن قيام دولة إسرائيل. في اليوم نفسه دخلت الدول العربية الحرب ضدها. أو على الأقل قيل إنها دخلت الحرب. لدينا رواية مفيدة للغاية عن حرب فلسطين كتبها جمال عبد الناصر وهي منشورة في مجلة آخر ساعة في آذار - مارس عام 1955. يبدو فيها المقدم الشاب تارة مناضلا متحمسا للقضية الفلسطينية وتارة أخرى يشعر بالمرارة والارتياب تجاه الحلفاء العرب وتارة ثالثة يشعر بالخيبة من الجيش المصري وبالمرارة أكثر فأكثر من سلوك قيادة هذا الجيش وإهمالها لقطاعاته. بعد ثلاثة أشهر من الحرب جرح في صدره. وبالكاد شفي من جرحه حتى وجد نفسه محاصرا في جيب الفالوجا الشهير حيث برهن مع مئات من الرجال والضباط بقيادة العقيد طه القائد الأسود البشرة والمعروف باستبساله برهن إن المصريين يجيدون أيضاً القتال.

خلال مفاوضات الهدنة في حزيران - يونيو تعرف إلى ضابط إسرائيلي هو الكابتن كوهين والذي سينقل رواية حيوية وزاهية عن كيف كان المقدم ناصر يسأله بحماسة عن مناهج قتال الهاغاناه وعن النجاحات التي حققتها المنظمات اليهودية ضد البريطانيين. ولم يخف ناصر أيضاً من جانبه في كتابه "فلسفة الثورة" الانطباع الايجابي الذي خلفه لديه الضابط المذكور.

في مصر حيث المعركة الحقيقة

عـــاد الـــضباط المصريون إلى القاهرة مهزومين ومكلومين يغلي في داخلهم غـــضب ضد الملك ونظامه أكثر من العدو. لقد روى ناصر أن العقيد عبد العزيز الذي يكن له أكثر الإعجاب مات بين يديه خلال الحرب وقبل أن يموت همس في أذنه: "جمال. المعركة الحقيقية ليست هنا إنما في مصر". في مصر؟ هكذا بدأ النضال الفعلي ضد السلطة وتنظيم "جماعة الضباط الأحرار" الذي سيكون أداة الانتفاضة المـــسلحة. ولكن ناصر لم يكتفي بإقامة عصبة انقلابية في الجيش بل قاد حملة ضد "الأسلحة الفاسدة" التي تسببت بالهزيمة والتي اتهم بشرائها المحيطون مباشرة بالملك.

في هـــذا الـــوقت أيضاً سيبحث ناصر بخاصة عن حلفاء جدد وأفكار أخرى للمعركة. كي يتصل بالإخوان المسلمين كان الوسيط صديقه أنور السادات وطيارا مـــتهورا يدعـــى عبد الرؤوف. مع الحركات الماركسية وبخاصة منظمة "حد تو" المصرية أقام علاقات بواسطة أصدقائه التقدميين خالد محيي الدين ويوسف صديق أو أحمـــد حمروش. من جهة الوفد كان لديه صديق عزيز هو احمد أبو الفتح نقيب الصحافة وصهر المخلص له ثروت عكاشة.

كـــان عليه أن يبحث عن" مدير" للحركة التي يشكلها والتي لم يكن يتوقع اتـــساعها بعـــد. ذلك انه في مجتمع كالمجتمع المصري لم يكن لمجموعة من الصبية العـــسكريين ذوي الثلاثين عاماً أن توحي بالثقة. لذا اتصل بعدد من الشخصيات العـــسكرية من بينها المشير عزيز المصري الذي يشبه ببرنارد شو[5] لكن في ثياب عـــسكرية و لم يكن يوحي بالجدية. والجنرال صادق (رئيس الأركان الحالي) الذي رفـــض العرض. و لم يبق إلا الجنرال محمد نجيب الذي اشتهر عام 1942 ومن ثم في فلسطين فلم يرفض.

---

(5) جورج برنارد شو (1856 – 1950) روائي ومسرحي ايرلندي مشهور بروح الدعابة (.. أدين بشهرتي إلى أنني أفكر مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع) ينتمي إلى عائلة بورجوازية بروتستانتية لكنه انقلب على البورجوازية والكنيسة الكاثوليكية. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1925. ومـــن مؤلفاته المشهورة "مهنة السيد وارن" و"بيغماليون" توفي عن 94 عاماً دون أن يفقد شيئاً من قواه العقلية.

حريق القاهرة

وجـــاء العـــام 1952 وفيه تجمعت عناصر مؤاتية. كان فاروق محتقرا بصورة مكشوفة ويحقّر على أبواب صالات السينما. وكان حزب الوفد الكبير قد تراخى وفك شراكته مع السلطة. والجيش مازال يشعر بالإهانة التي تلقاها في العام 1948. و الـــسودان يبدو انه انفصل نهائيا عن وادي النيل الأدنى جراء السياسة الإنجليزية. وعلى القنال كانت قوات تشرشل تمسك بحزم بالقواعد العسكرية الأساسية.

في 26 ينايـــر - كانـــون الثاني قتلت المدفعية البريطانية حوالى مئة من رجال الـــشرطة المصريين في منطقة القنال وكانت تلك إشارة الإنذار لانفجار وطني في القاهـــرة تحـــول إلى فوضى غوغائية ومن ثم إلى منهبة ومقتلة وأخيرا إلى حريق لم يقتـــصر فقط على الأحياء الراقية في العاصمة بل امتد إلى النظام الملكي نفسه. من أشـــعل الحـــريق ولحـــساب من؟ طلب احد الوزراء من احد قادة الجيش إنـــزال وحـــدات عـــسكرية لقمع المتظاهرين فرد عليه بالقول" مستحيل ففي هذه الحالة ينضم الضباط الشبان إلى المتظاهرين".

لـــن تعـــرف أبدا مشاعر جمال عبد الناصر في هذا اليوم. هل كانت مشاعر خزي؟ أو رعب؟ أم شعر في سره بالرضى لانهيار دولة فاروق؟ في الواقع أطاحت هـــذه الكارثـــة الاجتماعية بالنظام والسلطة السابقة. لقد حاول الملك خلال ستة أشـــهر دون جدوى أن يحافظ على سلطته عبر تغيير الحكومات مستخدما أوراقه الأخـــيرة: تجـــربة علي ماهر وأحابيل حسين سري وسلطوية الهلالي. كل ذلك لم يجـــدي نفعا. لقد كانت السلطة جاهزة لمن يقبض عليها. ناصر الذي صار مقدما في الجـــيش أجـــرى اختبارا عبر ترشيح محمد نجيب لرئاسة نادي الضباط. اعترض الملـــك لعلمه أن رؤوسا لاهبة في الجيش تختبئ وراء هذا الجنرال. إذا حان الوقت للتحرك طالما أن المؤامرة باتت مكشوفة.

الانقلاب

في 22 تمـــوز - يوليو 1952 كان فاروق على الشاطئ في الإسكندرية برفقة بلاطـــه وحكومـــته كما هي عادته كل عام. ولكن على بعد 200 كلم من هناك

وحوالى الساعة العاشرة ليلا وفي الفيلا الصغيرة في منشية البكري في ضاحية القاهرة كان المقدم (البكباشي) ناصر يطلق العملية (الانقلاب) التي بدأت بتوقيف الجنرال فــريد رئــيس الأركان. سيطر الانقلابيون في منتصف الليل على مجموع المواقع العــسكرية في القاهرة. في الساعة الثانية ليلا اتصل وزير الداخلية مرتضى مراغي هاتفــيا بالجنــرال نجيب" قائلا: "ما هذا يا جنرال هيا. هيا هدئ صبيانك" تظاهر الجنــرال بالدهشة خصوصاً انه لم يكن قد اطلع بعد على سر العملية فهو لم يكن محــسوبا فــيها إلا في مرحلتها الأخيرة. في السابعة صباحا وبينما كان المصريون يغتــسلون استمعوا من الراديو إلى صوت أنور السادات يقرأ نصا صاغه ليلا جمال عــبد الناصر وعبد الحكيم عامر وفيه" لقد اجتازت مصر المرحلة الأكثر سوادا في تاريخها، المليئة بالفساد والمشلعة باللاإستقرار. إن مصر الآن في أيدي رجال تبعث مقــدرتهم وأصالتهم على ثقتنا. إن الجيش هو حامي المصلحة الوطنية ولن يسمح بأي عمل عنفي ولا تخريبي"

قتل فاروق؟

انقلابــيو الليل لم يختاروا بعد الاستيلاء على كل جهاز الدولة ولا حتى قلب فــاروق. لم يكتفوا بتعيين الجنرال الشاب محمد نجيب على رأسهم بتسميته القائد العام فقد ذهبوا إلى العجوز علي ماهر وهو أشبه بـــ "تيير"[6] مصر المعاصرة وهو ملكي جيد. هل ليمنحوا لأنفسهم فرصة للتفكير؟ أو للإفادة من خدمات محام جيد يمكنه إقناع فاروق – أفضل من المتمردين – بالانسحاب بدون مأساة؟ تم التداول خــلال ثلاثــة أيام حول ما إذا كان يجب قتل فاروق لتأمين سلامة الثورة؟ هل عارض ناصرذلك؟ في 26 تموز وضع الملك في يخته المألوف في مونت كارلو وأرسل

---

(6) أدولــف تــيير (1797 – 1877) سياسي ومؤرخ وصحافي فرنسي تقلب بين تأييد المونارشية والجمهورية. عمل محاميا في مدينة اكس ثم جاء إلى باريس عام 1821 ونشر كتاب تاريخ الثورة الفرنــسية ولعــب دوراً في إقامة مونارشية تموز – يوليو وصار وزيرا للداخلية عامي 1832 – 1834، ثم رئيسا للوزراء 1836 – 1840. حذر من الحرب على ألمانيا عام 1870. وبعد هزيمة فرنسا عين رئيسا للحكومة عام 1871 وقمع انتفاضة العمال المعروفة بعامية باريس إلى أن أصبح رئيسا للجمهورية. أطاح به ائتلاف حزبي ليعود مجددا إلى المعارضة وليموت معارضا.

إلى عالمــه الخاص عالم الكازينو والألعاب. يقاس من خلال هذا القرار اللا عنف الذي كان في اصل هذه الثورة وهو مصري نموذجي وفي الآن معاً يظهر القرار تلك الموهــبة السياسية للمخطط الاستراتيجي للحركة الذي يعرف انه كان بهذا القرار يدمر خصمه من دون أن يقتله.

كم كان الضباط الشبان فخورين بثورتهم البيضاء في ذلك الحين. ولكن بعد أسبوعين لن يقتلوا لا ملكا ولا باشا ولا مارشالا بل عاملين خلطا بين انقلاب 23 يوليو وسقوط قصر الشتاء[7].

لكــن في الواقــع ما هو اللون السياسي لحركة تموز؟ أهي حمراء لأنها كانت مدعومة من عدة حركات يسارية في مصر وخارجها (إلى حين إعدام العاملين). أم فاشــية وفقــا لعرض الناطقين باسم الحزب الشيوعي الفرنسي. أم مسلمة. لأنها مدعومة من فرقة الإخوان المسلمين الذين وصوفها بـــ "الحركة المباركة"؟ إن لونها ببــساطة كاكــي فهي في الوقت نفسه ذات لون مقرّب من أميركا حين كانت مباركة السفير الأميركي جيفرسون كافري مؤكدة مع ميل تقدمي وافد من بعض أصــدقاء ورفاق جمال كخالد محي الدين ويوسف صديق. ولكن عموماً سيتوجب الحكم عليها من خلال أعمالها.

مــا هــي أعمالها؟ ستكون ممثلة بإعلان الإصلاح الزراعي الذي يحدد نظريا الملكــية الزراعية بـــ 200 فدان أي 83 هكتارا. وهو وان لم يحقق المساواة والريع المطلــوب فقد دمر الإقطاعية وحمل راس المال العقاري على التوجه نحو الصناعة. ومــن ثم تطهير وإلغاء الأحزاب السياسية وهي كلها تقريبا فاسدة ومشينة ولكن وجــودها رغــم ذلــك كان ضامنا لشكل ما من الديموقراطية. ومن بعد إعلان الجمهــورية في مناخ كان معطوبا بالقلق الناجم عن شعور بوجود اختلافات بين زعمــاء الحركة. وأخيرا المفاوضات مع البريطانيين لجلاء قاعدتهم من القنال. عن تلــك الفترة كتب عبد الناصر في نظريته حول فلسفة الثورة التي صاغها في حينه قائلا" لقد فتحنا الثغرة ولكن أحدا لم يتبعنا".

---

(7) المقصود قصر الشتاء في موسكو وقد اجتاحه البلاشفة عام 1917 كفاتحة للثورة الشيوعية في هذا البلد.

مـــن هو ذلك الرجل الذي كان يسمى البكباشي؟(الطلاب اليساريون كانوا يسمونه الكولونيل جيمي في إشارة إلى صداقاته الأميركية في حينه). انه اسمر طويل القامـــة ذو نظرة لاهبة قليل الكلام خجول يفتقر إلى روح الدعابة حيث لا يروى عـــنه كلمة واحدة مرحة (علما إن المصريين يحبون المزحات الصغيرة التي يسمونها نكتة). كانوا يحبون نجيب الذي يذكرهم بالنحاس باشا وسعد زغلول في الآن معاً. كان ناصر بملامحه الحادة ودعوته إلى العمل والتوفير والعدالة والتقشف يبدو كمعلم ومدرب وليس قائدا أو "زعيما".

الجنرال والكولونيل

هكـــذا بـــدأت المواجهة بين الجنرال الذي يدخن الغليون والكولونيل ذو النظرة الحـــزينة. نجـــيب لم يكـــن سوى عامل الساعة الحادية عشرة (هامشي في المجموعة الحاكمـــة) لكـــنه اخذ يحمل نفسه على محمل الجد، لقد كانت شعبيته كبيرة إلى حد خطر له أن يستخدمها خصوصاً أنه لم يكن متفقا مع الآخرين في العمق إذ كان يرى أن علـــى الجيش أن يتحرك كرافعة ومن ثم يترك الأمر للمدنيين والسياسة مهنتهم. في حـــين ناصر – قالها لنا في حينه بوضوح شديد – الطبقة السياسية بكاملها عفنة وإذا استؤنف العمل بالنظام الانتخابي فانه سيعيد الإقطاعية حتما. وحدهم الضباط الشبان كانوا قادرين على الاحتفاظ بطهارة ما وتنظيف الدولة ومن بعد لكل حادث حديث.

حـــاول الجنـــرال نجـــيب أن يفرض نفسه وطالب بحق الفيتو في مجلس قيادة الـــثورة. جعله ناصر أقلويا فاستقال ووقف معه ضباط اليسار الذين كانوا يؤيدون هـــم أيـــضاً "العودة إلى الثكنات" والذين جاءوا به أصلا إلى السلطة. خلال ستة أسابيع كانت السلطة تحبو وتنتقل من يد إلى أخرى. ناصر لعب على روح التعاون بين الضباط ووجه نداء إلى النقابات العمالية وقمع المد الشعبي واستعاد زمام الأمور وخـــرج مـــن الأزمـــة رئيسا للوزراء. ولكنه مع ذلك ظل معزولا ناهيك عن أن الاتفـــاق الموقّع مع البريطانيين فرض عليهم الجلاء لكنه نص على إقامة صلات بين القاهرة والغربيين ما أثار ضده غضب أولئك الذي كانوا مثل جمال العام 1934 لا يقبلون إلا بتسوية غير مشروطة مع بريطانيا.

في نهاية العام 1954 كان جمال عبد الناصر أشبه بالفرعون فها هو يملك كل السلطات بعد أن استقال من الجيش وتخلى عن الزي العسكري – ما يجعل لقب الكولونيل الذي كان يطلق غالبا عليه بلا معنى – وصار يمسك بكل وسائل الإعلام وكل وسائل الضغط وبجهاز الدولة والإنتاج.

كانت سلطته تستند في الآن معاً إلى الجيش المعبأ بأكثريته الساحقة حوله وإلى قسم وافر من المزارعين الذين سمح الإصلاح الزراعي برفع مستوى معيشتهم قليلا (بخاصة عبر إجراء تخفيض إيجار الأرض) وإلى غالبية العمال قيد التأهيل ومن بعد إلى "الطبقة الجديدة" من الموظفين المثرين وصغار الصناعيين الذين حلوا محل التجار اللبنانيين والسوريين الأغنياء وعلى الضباط المسرحين من الجيش والذين عينوا في مراكز أساسية في الاقتصاد.

كان هذا النظام الذي تختلط فيه النزعة العمالية مع العسكريتاريا والدينامية الصناعية والنزعة القومية يوحي بنوع من الأتاتوركية والبيرونية[8] مطروحا منها

(8) الأتاتوركية نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك في تركيا والبيرونية نسبة إلى خوان بيرون في الأرجنتين. أتاتورك (1881 – 1938) هو مؤسس الجمهورية التركية الحديثة مطلع القرن العشرين. بدأ حياته ضابطا شابا ثم حصل بسرعة على لقب باشا الذي يعني الجنرال بالتركية بسبب بسالته في التصدي للغزو الأجنبي لبلاده. نجح في تنظيم المقاومة وتأسيس تيار جمهوري وفي حفظ وحدة الاراضي المهددة بالتفكك واستطاع أن يحصل على اعتراف دولي بذلك عبر معاهدة لوزان عام 1923. ألغى السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية عام 1922 وأسس الجمهورية عام 1923. أسس حزب الشعب الجمهوري واخرج بلاده من التقاليد العثمانية وحوّلها باتجاه الغرب. ألغى الحرف العربي واعتمد الحرف اللاتيني وأعطى المرأة حق الانتخاب وغير اسم عاصمة البلاد من القسطنطينية إلى اسطنبول، وفصل الإسلام عن الدولة ومنع الحجاب وتعدد الزوجات وفرض الزواج المدني. مات عن 57 عاماً وتحتل اليوم صوره وانصبته الأماكن العامة في تركيا. أما خوان دومينيك بيرون (1895 – 1974) فكان هو الآخر ضابطا في الأرجنتين ضمن مجموعة من الضباط الذين قلبوا نظام الرئيس رامون كاستيلو عام 1945. فاز بالانتخابات الرئاسية عام 1946. أسس كونفدرالية قوية للعمال للمرة الأولى في البلاد واكتسب من خلالها وزنا وشعبية كبيرة وحصل على تايد واسع بين النساء بفضل زوجته الأولى ايفيتا بيرون وزوجته الثانية إيزابيلا بيرون. اعتمد مفهوم الخيار الثالث بين الماركسية والرأسمالية وصارت هذه النظرية تعرف بالبيرونية. فشل في الصراع مع الإرهاب ومع الكنيسة فأطاح به انقلاب عسكري عام 1971. قاوم من منفاه في البيرو الانقلاب ودعم رفاقه اليساريين في التصدي له وعاد رئيسا للجمهورية عام 1973 وبادر إلى تعيين زوجته إيزابيلا نائبا للرئيس. توفي في العام 1974 فخلفته زوجته. دنس قبره في العام 1978 وسرقت يديه دون أن يعرف من فعل ذلك ولماذا. يتفق الجميع على أن اخفاق بيرون الاهم يكمن في منع الصراع بين مؤيديه اليمينيين واليساريين على حد سواء.

شعبية الزعيم لأن جمال كان مازال بعد غير شعبي. كان عليه أن يواجه أزمات دولية خطيرة ليظهر بمواجهة الدول العظمى كمدافع عن الكرامة المصرية ومن ثم العربية. في مؤتمر باندونغ في العام 1955 حيث كان إلى جانب نهرو[9] وشو إن لاي[10] اكتشف العـالم الثالث وتكلم ضد الكولونيالية ودعا إلى الحياد. لدى عودته إلى القاهرة كانت الجموع تحييه للمرة الأولى ومن بعد جاءت لعبة البوكر[11] الجبارة في السويس.

بـدأت القضية في غزة في شهر شباط - فبراير عام 1955 حيث جعلته غارة انتقامية إسرائيلية يلمس بأصابع اليد ضعف جيشه بمواجهة الجيش الإسرائيلي. بحث عـن الأسلحة بكل الوسائل في الغرب أولا ومن بعد في الشرق. وقع في سبتمبر - أيلـول صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا مثيرا بذلك ذهول واشنطن وعداء وزير خارجيـتها فوستر دالاس. وازدادت القضية تعقيدا مع إلغاء القرض الأميركي - الـبريطاني لبناء سد أسوان، وصله الخبر في 18 تموز - يوليو 1956 خلال مؤتمر في بريوني جمعه مع نهرو والماريشال تيتو[12]. كان رد فعله صاعقا. هكذا أعلن خلال

(9) جواهـر لال نهـرو (1889 - 1964) ينتمي إلى عائلة ثرية من كشمير. والده زعيم حزب المؤتمر الهندي. درس في كامبريدج في بريطانيا وتأثر بالاشتراكية الفابية. عمل محاميا عام 1912 وانتسب فـور عودته إلى حزب المؤتمر. تعرف عام 1916 إلى المهاتما غاندي وصار أحد مساعديه المقربين لكن الخلافات اشتدت بين الرجلين حيث كان تكوين الأول الفكري غربي والثاني تقليدي.
سـجن مرارا بين 1920 - و1945 وأصبح أمينا عاماً لحزب المؤتمر. دعم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية لقاء وعد باستقلال بلده. عيّن بعد الحرب رئيسا للحكومة الهندية الانتقالية. وصاربعد اغتيال غاندي عام 1948 الزعيم الأوحد للقومية الهندية. كان مناهضا للكولونيالية وأسس مع جمال عبد الناصر وجوزف بروز تيتو حركة عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ عام 1955.

(10) شو إن لاي (1898 - 1967) ينتمي إلى عائلة مثقفين. أصبح شيوعيا في وقت مبكر وقاد عدداً من الانتفاضـات الفلاحية في الصين وهو يقاتل في الصفوف الأمامية حاملا مسدسه بيده. شارك في قيادة الجيش خلال المسيرة الكبرى 1934 - 1935 وأصبح رئيسا للحكومة منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة عام 1949 وحتى وفاته. تميز بإخلاصه للزعيم الصيني ماو تسي تونغ.

(11) لعبة البوكر عنوان للمقامرة وهي غربية المنشأ يشترك فيها عدد من الأشخاص يتراوح بين أربعة وثمانية. وتقوم على الرهان والإيحاء والبلف نتيجة الأوراق المخفية والمكشوفة لدى كل لاعب.

(12) جـوزف بـروز تيـتو ماريـشال يوغوسلافي ولد في كرواتيا عام 1892 وتوفي عام 1980 حرر يوغوسلافيا من الاحتلال خلال الحرب العالمية الثانية. احد مؤسسي الحزب الشيوعي اليوغوسلافي وأمينـه العـام منذ 1937 وحتى وفاته وكذلك رئيسا للدولة خلال الفترة نفسها. عرف بنظريته الإصلاحية الاشتراكية التي تقوم على التسيير الذاتي. أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز.

خطاب عاصف في الإسكندرية في 26 تموز - يوليو عن تأميم قناة السويس. نعرف محاولــة الرد البريطانية - الفرنسية والعملية المخططة في لندن وباريس وتل أبيب - المنتصر الوحيد في هذه العملية - كان الريس قاب قوسين من الهزيمة العسكرية إلا أن واشنطن وموسكو أجبرت المجتاحين على الانسحاب. فربح ناصر.

لكــن خطاب الإسكندرية الذي تميز بضحكة مدوية لفلاح متعجب لجلوسه بمحض إرادته على كرسي صاحب القصر أضفت عليه في فرنسا وبريطانيا "صورة مشهورة" شبه إبليسية. باريس لن تغفر له إلا في وقت متأخر هذا "التحدي" فضلاً عن الدعم الذي قدمه مدربوه وإذاعته إلى القضية والثورة الجزائرية. ولكن النجاح الأكــبر حققــه الريس في الداخل. لقد تمكن من تحويل كارثة إلى انتصار. هكذا انــتهت صورة البكباشي المتجهم وجاء وقت "يحي جمال يعيش ناصر" لقد تحول الــريس القاســي إلى زعيم، إلى صانع كلمات، إلى صانع المطر والمعجزات. لقد أصبح سيد مصر القاسي أستاذا للأمل في العالم العربي كله.

انتصار وهلاك

هذا الانتصار كان ينطوي على هلاك فظيع:باختياره العروبة التي فتحت أمامه طريق تحالفات واسعة مع 80 مليون عربي من كازابلانكا إلى عدن انخرط ناصر في لعبة توازن دائم ومنهك بين الانتصار والتراجع والتحكيم. وعبر خط العروبة دخل طريق الحرب الدائمة مع إسرائيل. خلال 11 سنة بعد السويس سيلعب ببراعة ورقة "القــبعات الــزرق" على الحدود في سيناء ويمارس سياسة لا حرب ولا سلم التي حددها على ما يبدو في العام 1957.. ولكن العروبة لا تتحمل الجمود.

11 عامــاً مــن الجمود على الجبهة الإسرائيلية المصرية كانت بالنسبة للزعيم المبجل والمحسود وقتاً طويلاً. لقد جعله السوريون يرى ذلك في أيار - مايو 1967. وعلــى الرغم من أن جيشه ما زال غارقا في جبال اليمن وعلى الرغم من أن سد أسوان استنــزف موارد البلد الأساسية وأن" الجبهة العربية" كانت منقسمة أكثر من أي وقت مضى فقد ارتكب الخطأ المركزي في حياته. لقد كان يجهل رد فعل الإسرائيليين على فرض حصار على خليج العقبة وعلى انتشار الشعارات القاتلة عبر موجات الأثير العربية.

باختصار لقد استدرج الصاعقة نحوه وضرب فيها. أي زعيم غيره كان سينتهي في هذه الـ "سيدان"[13] التي فبركها ضحيتها. لقد خاطب شعبه بصراحة فائقة معطوفة على ما يشبه السذاجة الفياضة معلنا استقالته. ولكن الجماهير المذهولة منحته عطفا هائلا لاعتقادها انه في الهزيمة ليس لديها قائد أفضل من ذلك الذي قادها فرجته أن يبقى.

في ذلك المساء من 9 حزيران – يونيو عام 1967 استفتي على جمال عبد الناصر وسط الكارثة كما لم يحصل لأي كان من قبله. لقد رفع جمال عبد الناصر إلى الذروة فنا استخدمه بثبات غريب: تحويل الهزائم إلى انتصارات.

أفخاخ العروبة

رغم ذلك كان عليه أن يتراجع مرتين دون مقابل. مرة في سوريا ومرة في اليمن. قضية سوريا بدأت بطريقة هي الأكثر غرابة. لقد جاءت حكومة أجنبية من الناحية القانونية راجية رئيس هذه الدولة أن يأخذها تحت رعايته. ناصر تردد. وقد اسر من بعد إن ذلك اليوم من شباط – فبراير عام 1958 كان اليوم الذي أصيب فيه بالخوف الأكبر في حياته. ولكن حتى يقطع الطريق على النفوذ السوفيتي الذي لولا هذا "الأنشلوس"[14] أي ضم سوريا إلى مصر كان سيجرها إلى الشرق قرر

(13)معركة سيدان. راجع التفاصيل في الفصل الخاص بهزيمة حزيران عام 1967.

(14)أنشلوس كلمة ألمانية تعني الضم والالحاق. أطلقت على الاتحاد الاندماجي بين ألمانيا الهتلرية والنمسا عام 1938 وقد اعتبر هذا الحدث تأسيسيا للحرب العالمية الثانية. وفي التفاصيل أن كثيرين في ألمانيا والنمسا كانوا يحلمون بدمج البلدين لكن ذلك يتعارض مع اتفاقية سان جرمان أون لاي الموقعة في 10 ديسمبر – كانون الأول عام 1919 والمفروضة من أوروبا المنتصرة على النمسا في الحرب الأولى. ويبدو أن النمسا كانت قد باتت مقتنعة إلى حد ما بالعيش بعيداً عن ألمانيا. في العام 1932 تم انتخاب مستشار نمسوي جديد ينتمي إلى اليمين المتطرف في الأربعين من عمره ويدعي دولفيس. اعتمد سياسة متشددة إزاء النازيين في بلاده مستندا إلى علاقاته الجيدة مع موسوليني الذي كان يمثل قوة صاعدة في أوروبا موازنة لقوة هتلر النازية. اغتال النازيون دولفيس عام 1934 الأمر الذي أغاظ موسوليني فأرسل قوات إلى الحدود مع النمسا حتى لا تحتلها ألمانيا وتصبح على حدود بلاده. ولكن في العام 1936 سيغامر الدوتشي باحتلال أثيوبيا خلافا لرغبة العالم بأسره ما أدى إلى ضعفه وبالتالي إلى تقاربه مع هتلر الذي انتهز فرصة

ناصر تحمل مخاطر الوحدة مع دمشق. إن تراكم أخطاء الإدارة المصرية التي تصرفت بطـريقة استعمارية إضافة إلى مقاومة برجوازية رجال الأعمال السوريين للقوانين الاشـتراكية المفروضـة من القاهرة كل ذلك هدم الشراكة بين البلدين. لقد كان قـاب قوسين من قمع الانتفاضة السورية بالعنف إلا أن صديقه عبد الحكيم عامر والي سوريا الخلاب ورابط الجأش أقنعه بصرف النظر عن ذلك مسديا له خدمة لا تقدر بثمن فالجميع يعرف كم هي كلفة القمع في البلدان العربية.

معروف أيضاً أنه في اليمن وخلال خمس سنوات من الدفاع عن جمهورية لم يكن بوسع زعيم "الاشتراكية العربية" أن يسمح بتحطيمها دون أن يتدخل. خلال هـذه السـنوات تصرف الجيش المصري كتلك الجيوش الكولونيالية التي لم يكف راديو القاهرة عن انتقاد جرائمها النكراء. وسواء اختار العروبة كاستراتيجية للقوة حـيث نلاحـظ ذلك في فلسفة الثورة إذ يحدد الدوائر الثلاث العربية والأفريقية والمسـلمة التي يتحدد مستقبل مصر من خلالها وسواء كانت العروبة بالنسبة إليه ارتـباط لا يقاوم ومطابق لطبيعة الأشياء على الرغم من ذلك فقد أدرك الريس في الواقع في نهاية العام 1969 المخاطر الناجمة عن "سياسته العربية".

مستندا إلى قوة أخرى ليست أقل جبرية وهي الشعور القوي بـ "المصروية" الذي يتملك مواطنيه ومعنى محليتهم المحدد بدقة بالقياس إلى العالم العربي مستندا إلى ذلك قرر في نهاية العام 1969 إعادة النظر في المشكلة الإسرائيلية وفي مجمل علاقاته الدولية في أفق مصري أكثر منه عربي.

إن المقابلة التي أعطاها في 19 شباط - فبراير عام 1970 لـ "أريك رولو" تشهد بوضـوح على هذا التطور نحو السلام وفيها أيضاً تلحظ خطوة تموز - يوليو الجريئة لعـام 1970 التي أعطت لتاريخه الساحر خلاصة تليق بهذه الشخصية التي تستمد قوتها من استعدادها الدائم للبحث عن مخرج أو صيغة أو استراتيجية أو نظام تفكير.

زوال العقبة الأخيرة أمام ضم النمسا. هكذا اجتاحت قواته حدود هذا البلد بدعم من النازيين النمسويين في 12 آذار - مارس عام 1938 وفي العاشر من نيسان من العام نفسه اجري استفتاء حول الوحدة الاندماجية بين البلدين حصل النازيون خلاله على 99 بالمئة من أصوات الناخبين الأمر الذي شكل تحديا هائلا لأوروبا وكان سببا أساسيا في اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اشتراكية محلية للغاية

كـــان جمال عبد الناصر بكل تأكيد مسلما متعلقا بقوة بدينه يسكنه إيمان كـــل شيء يؤكد انه صادق. ولكنه كان يرفض القيمة السياسية للإسلام مدينا عبثـــية الأطروحات الأصولية وأطروحات الإخوان المسلمين الملتبسة. بهذا المعنى كـــان علمانـــيا في السياسة كما الحبيب بورقيبة. لقد درس الماركسية بيد أن "وثيقة" مايو 1962 ليست أرثوذكسية بما فيه الكفاية من وجهة نظر ماركسية. يبقـــى أن الوثـــيقة تعـــبر عن انحياز ناصر للاشتراكية "العلمية" التي رفض فيها حقـــيقة عنـــصرين أساســـيين: الماديـــة. ومفهوم الصراع الطبقي. ناصر كان يعتـــرف بالطـــبقات الاجتماعية ولكنه كان يؤمن بدور الزعيم كمحكم دائم يوفـــر علـــى المجتمع المصري هذا النوع من الصراعات الاجتماعية. كما نرى لقـــد كانـــت اشـــتراكيته محلية جدا لكن آثارها على المجتمع المصري لم تكن بسيطة.

لقـــد أدت إلى تدمير النظام الإقطاعي وإلى التصنيع السريع وتشكيل نوع من البرجوازية الوطنية بيروقراطية وحداثية في الآن معاً. التعليم الشامل والكثيف. تجهيز الأريـــاف. المكافـــأة الـــسياسية والاقتصادية للبروليتاريا إلى درجة أن الكادرات الـــشيوعية الضئيلة العدد ذات النوعية الجيدة اندمجت بالنظام طيلة السنوات العشر الماضـــية: هكذا نرى إن الإنجازات الناصرية ليست ضئيلة. هل يجب أن نحكم بأنها بالغة الكلفة جراء السياسة الخارجية المنهكة حيث ميزانية الدفاع والشرطة الضخمة وهجـــرة العقول والجمود الثقافي وتنويم الحريات التي غالبا ما كانت وهمية ولكنها أتاحـــت في الأعـــوام 1946 1952 جدلا فكريا غنيا؟ إن وقت الحصيلة الناصرية سيأتي لاحقاً.

لنـــتأمل مرة أخيرة في هذا الرجل الذي كان له وزنه الثقيل جدا على حياتنا وحـــياة معاصـــرينا. الصورة الأخيرة التي جمعته بين الملك حسين وياسر عرفات كحكـــم ومصلح سعيد. قامته، ابتسامته، حركته كل شيء فيه كان رحبا. لكنه أيضاً بدا مثقلا ومبيضا ومقببا.

غياب المؤسسة

يجـــب أن نبذل جهدا على أنفسنا نحن الذين عرفوا هذا الزعيم الشاب لثورة تمـــوز - يوليو في العام 1953. قامته العالية كانت توحي بأنه ضعيف البنية ولكنه كـــان يـــبدو حينذاك كعمود منـــزل أشبه بحامل أثقال قوي البنية عريض الخطى كفهـــد أصـــهب فـــضلاً عن قبضة يده التي يبدو منها أنها تسحق ساعد زائره. الضحكة المحبوسة التي يطلقها كتحد. إن انطباع القوة الذي يوحي به ربما يجمد أو يكـــسر العاطفة. لا. جمال عبد الناصر كان رجلاً جذاباً لسبب بسيط هو انه كان يصغي إلى مخاطبيه. كان يطرح الكثير من الأسئلة ولا سبيل للمقارنة بين اللقاءات به مع المونولوغ الديكتاتوري المنقول عن لودفيغ أو روشينين[15].

عـــبد الناصـــر رجل الحوار والبحث والتساؤل والحبو سحر زائريه المهمين واستطاع أن يرعش حشودا كبيرة وان يجتاز الكثير من الأزمات لكنه فشل في نهاية المطاف في مهمته الأساسية: تلك القاضية ببناء المؤسسة لذا لا نرى بعده حزبا يليق بهذا الاسم ولا خلافة واضحة ومحددة. أنه الرجل الذي" بدلاً من أن يحل مشاكل مصر اختار أن يكون رمزا لها" بحسب ف. بحري لقد ترك خلفه فراغا هائلا يمكن من خلاله أن نقيس بالتأكيد أهميته وعظمته ولكن أيضاً محدوديته.

1970/9/30 - جريدة لوموند

(15)ربما يقصد الكاتب بالمونولوغ ذلك الحوار الذي أجراه روشينين بعنوان "قال لي هتلر" واستخدم بطريقة دعاوية فظة لا علاقة لها بالطريقة التي كان عبد الناصر يخاطب بها مؤيديه.

الباب السادس

غضب المحبين وغضب المتضررين

عبد الناصر يدافع عن عبد الناصر

فيصل جلول

ما زال جمال عبد الناصر منذ غيابه المفاجئ في 28 سبتمبر – أيلول عام 1970 موضوعا لسجال مصري وعربي حاد بين مؤيديه وخصومه. يسعى الخصوم لأبلسته (مـــن إبليس) واغتياله بعد وفاته فيرد الأنصار بتأليهه (من اله) وجعله مهديا ينتظر قيامه قبل الساعة ليملأ الأرض المصرية والعربية عروبة وعدلا وفخرا بعد أن ملئت ظلمـــا وقطـــرية وعمالـــة للأجنبي. يجعله الطرف الأول بعد أكثر من ثلاثة عقود ونصف العقد على وفاته مسؤولاً عن تردي أوضاع مصر والعرب ويعتبره الطرف الثاني محطة فاصلة بين عهد مصري وعربي مشرف وعهد راهن يرمز إلى الخضوع والانحطـــاط والذل والهيمنة لا قيمة فيه كبيرة لمصر والعرب والمسلمين أجمعين على المـــسرح الدولي. يحن الطرف الأول إلى تاريخ ما قبل ناصر ويفخر بما بعده ويحن الطرف الثاني إلى عهد الناصرية المظفر. لذا يبدو لي أن الصراع على عبد الناصر لن يذوي ما دام لدى المصريين والعرب عرق ينبض وهذا في حد ذاته برهان على أن الـــرجل لم ولـــن يمر على منطقتنا مرور الكرام وهو حجة قوية على جواز تصنيفه عالميا بين قلة من الزعماء الذين طبعوا القرن العشرين مرة واحدة وإلى الأبد.

بـــين نـــزعة الانتقام من ناصر بمفعول رجعي ونـــزعة تمجيده وأسطرته (من أســـطورة)مسافة تسمح وحدها بحصر ماهية الرجل. بعبارة أخرى، لا يمكن رسم ملامـــح الناصرية من خلال خطب بعض ضحاياها الذي صاروا من بعد جلاديها المعنويين ولا يمكن الاحاطة بها من خلال مداحيها الذين لا تنتج خطبهم الحماسية أو المحابـــية قيمة فائضة لسيرة "الريس" وموقعه التاريخي في بلادنا بخاصة وفي العالم علـــى وجه العموم. ذلك أن قيمة كل امرؤ في ما صنع ويصنع وليس فيما ينسب إليه مما لم يصنعه. فما الذي صنعه"ابن البوسطجي"[1] وما قيمته في زمنه وما قيمته التداولية الراهنة سياسياً ومعنوياً؟

(1) استخدم تعبير "ابن البوسطجي" بفخر وتقدير وليس بمعيار سلبي على ما درج أبناء البورجوازية المصرية خلال عهد عبد الناصر وأحيانا بعده على استعماله.

ينضوي خصوم وأعداء جمال عبد الناصر في تيار عريض ومتنافر ازداد اتساعا بعـيد وفاتـه ليضمر تاليا بصورة تدريجية. ويضم هذا التيار حصرا ضحايا الرجل والمتضررين منه والمهزومين في عهده داخل مصر وخارجها وفي طليعتهم: الأخوان المسلمين. اليسار الراديكالي والماركسي أو الماركسي اللينيني بخاصة. بعض العسكريين من أنصار محمد نجيب وعبد الحكيم عامر. كبار الباشوات. الليبراليون من الوفد. بقايا النظام الملكي السابق. التيار الفرعوني والتيار المتوسطي. ملوك وأمراء ومشايخ المشرق والمغرب وسائر من كانوا يصنفون في خانة الرجعية العربية. البعث بشقيه العراقي والسوري (قبل وفاة الريس) إسرائيل والدول الغربية عموماً والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا بخاصة. الأقدام السود وجنرالات حرب الجزائر في فرنسا. المستوطنون الأجانب في إفريقيا وآسيا والعالم العربي. أنصار البيئة في الغرب... الخ.

لكل من هذه الجماعات والفئات والتيارات أسبابها الخاصة لمجابهة الريس. فالتيار الإسلامي المصري كان يراهن على تسلم الحكم في الخمسينات عبر التحالف مع الضباط الأحرار ثم الانقلاب عليهم ويرى أن ناصر استولى على ثورة ليست من صنعه بل من صنع "الإخوان المسلمين" فكان أن تعرض للقمع والاضطهاد جراء رؤيته وطموحه. وكان اليسار الماركسي يرغب بدفع الثورة الناصرية إلى موقع أكثر راديكالية ويواجهها بوصفها ممثلة لمصالح البرجوازية الصغيرة وغير مؤهلة للتعبير عن مصالح البروليتاريا ومشروعها الثوري الجذري، ناهيك عن أنها باشرت عهدها بإعدام عاملين مصريين فكان أن تعرض هذا التيار أيضاً للقمع والاضطهاد لبعض الوقت قبل أن يندرج في سياق العلاقات المصرية السوفيتية القوية في الستينات. وكان على العسكريين المصريين شركاء ناصر في الثورة أن يدفعوا ثمن صراعهم معه على الحكم. أما الباشوات وكبار ملاك الأراضي الزراعية فقد جردتهم الثورة الناصرية من القسم الأكبر من إمتيازاتهم المادية والمعنوية، وكان من الطبيعي ألا تتسع صدورهم لسياستها وان يدافعوا عن مصالحهم ويدفعوا ثمنا باهظا لمواقفهم المناهضة للثورة. ويصح ذلك أيضاً على الليبراليين وأنصار الملكية ممن تولوا شؤون مصر قبل الثورة بالتحالف

مع البريطانيين والخضوع لاملاءاتهم. وأخيرا كان من البداهة أن يتضرر منظرو الفرعونية والمتوسطية المصرية من الثورة الناصرية التي كنست سريعا إيديولوجيات مبنية على أفكار وتطلعات إستشراقية معمرة منذ حملة بونابرت، وترمي إلى تحطيم هوية مصر العربية الإسلامية وتعزيز مصالح أقليات محلية تظن أنها اصل مصر وان المسلمين فيها طارئون فاتحون يجب أن يرحلوا عنها يوماً ما.

واستدرجت الناصرية في العالم العربي عداء الملكيات بوصفها ثورة جمهورية مظفرة لم تتردد بالعمل على إطاحة الملكية في ليبيا واليمن والعراق وفي دعم الحركات المناوئة للملكيات الخليجية ناهيك عن اندفاعها القوي نحو توزيع الثروة النفطية عبر شعار "بترول العرب للعرب" وليس للخليجيين حصرا. أما التيار البعثي فكان منافسا إيديولوجيا للناصرية وقوة ضاغطة في المد القومي العربي الذي تسببت به. ألحقت الضغوط البعثية أذى كبيراً بالسياسة الخارجية الناصرية. والمؤكد أن الهم القومي العربي للناصرية أثار القوميات الإقليمية التركية والفارسية والإثيوبية المجاورة للعرب. فقد استطاع ناصر أن يردع هذه القوميات ويحجم من طموحاتها باكتساب مواقع نفوذ في العالم العربي. هكذا رد ناصرعلى التهديد التركي لسوريا بالوحدة الاندماجية معها ودعم التيار العروبي في البحرين والخليج بمواجهة التدخل الفارسي الشاهنشاهي وساهم عبر دعمه لحركات التحرر في إفريقيا بجذب القوميات الإفريقية السوداء المحاذية للعرب وبالتالي درء مخاطر الصراع العربي الإفريقي الذي سينفجر بعد غيابه. وأخيرا أيقظ المد الناصري في المغرب العربي مخاوف أسبانيا والبرتغال التاريخية من العرب بعد أن تسبب بصداع حقيقي للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في الجزائر وعدن والخليج.

ما من شك أن مئات الآلاف من الأقدام السود الفرنسيين اقتلعوا من الجزائر بعد استيطان دام لأكثر من 130 سنة بمساهمة فعالة من الناصرية و لم يغفر سياسيو الجمهورية الرابعة الفرنسية لناصر دوره في انهيار جمهوريتهم بعد غزو السويس واضطرارهم إلى اللجوء إلى خصمهم شارل ديغول لإنقاذ فرنسا

مـــن الانحـــدار نحو الحضيض[2]. ولن يغفر الساسة البريطانيون لناصر نجاحه في إشـــعال النار على خطوط مواصلات إمبراطورية الهند الشرقية في السويس التي عادت إلى السيادة المصرية وفي عدن التي عادت إلى اليمن الأم وفي الهند نفسها عـــبر التـــضامن المـــصري - الهـــندي ناهيك عن اقتلاع البريطانيين من مصر والـــسودان والخلـــيج وبالـــتالي وضع حد لاستعمار إنجليزي لم يكن أصحابه يتخيلون انهياره تحت المطرقة الناصرية خلال عقد ونصف العقد من الزمن. ولا حاجـــة للتـــردد في القـــول إن الناصرية كانت مساهما كبيراً في تحطيم النظام الإمـــبراطوري الاستعماري عبر دعم حركات التحرر في المستعمرات البريطانية والفرنسية في إفريقيا واسيا وحتى أميركا اللاتينية.

يبقـــى أن الناصرية كانت محورا إقليميا أسياسيا في صراعات الحرب الباردة وقـــد بذلت جهودا كبيرة في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية إلى أن أصـــيبت بهـــزيمة شنيعة في الخامس من حزيران - يونيو عام 1967 لكن الهزيمة لم تحمـــل العرب على صرف النظر عن حقوقهم فهم ما زالوا يقاتلون تحت السقف الـــذي رسمـــته الناصرية في المجال الثقافي والتطبيعي بخاصة حيث ما فتئت إسرائيل تعيش عزلة تامة في محيطها العربي على الرغم من تفوقها العسكري وعلى الرغم من اتفاقات السلام التي وقعتها مع مصر والأردن والفلسطينيين[3]. أما أنصار البيئة في الغـــرب فقد حملوا على عبد الناصر بسبب مشروع السد العالي معتبرين أنه تسبب

---

(2) لم يجد جان ماري لوبن زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية المناهضة للأجانب عموماً والعرب والمسلمين بخاصـــة أفـــضل مـــن عبارة عبد الناصر الشهيرة "ارفع راسك يا أخي" يوجهها لشعبه لحثه على النهوض"... رسالة افتخار (..). أستعيرها من جمال عبد الناصر الشخصية التاريخية للقومية العربية (..). نعـــم ارفعـــوا رؤوسكم أيها الفرنسيين فان عهد الذل قد مضى" والجدير بالذكر أن لوبن شـــارك في غـــزو السويس عام 1956 وكان مكلفاً بجمع جثث القتلى ودفنها وهو متهم بممارسة الـــتعذيب في الجزائـــر العاصمة خلال الثورة الجزائرية، وكان من بين أكثر الفرنسيين عداء لناصر بسبب دوره العروبي الذي طال في حينه المصالح الاستعمارية الإستراتيجية الفرنسية.
راجـــع خطـــاب لـــوبن في عيد "جان دارك" 1 مايو - أيار 2003 منشور في جريدة الحزب "ناسيونال إيبدو" في الأسبوع الأول من مايو - ايار من العام نفسه.

(3) كان مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل وعدد من قادة إسرائيل يعتبرون أن الناصرية تشكل الخطر الأكبر على دولتهم.

بأضرار بيئية واجتماعية علما أن هذه الأضرار ضئيلة الأهمية إذا ما قيست بالفوائد الجمة التي جاء بها السد على كل صعيد.. الخ[4].

غضب المحبين وغضب المتضررين

تولى ناصر الحكم مباشرة منذ العام 1954 وحتى العام 1970 أي ما يعادل 16 عاماً قلب خلالها أوضاع مصر والعالم العربي رأسا على عقب فكان أن وضع حدا لقرون من الغياب العربي عن مسرح العلاقات الدولية، ولعل ما قام به ينطبق عليه وصف بول فاليري للثورات حيث يقول إن بعضها "يمكن أن تحقق إنجازات في عامين يحتاج تحقيقها إلى مئة عام ويمكن لبعضها الآخر أن يضيع في عامين إنجازات عمرها خمسة آلاف عام"

ككل الثوريين تعرض عبد الناصر لنوعين من الغضب. غضب المتضررين وقد أشرنا إليهم للتو و"غضب المحبين"[5] وهم أولئك الذين رفضوا اثر هزيمة حزيران –

(4) سد أسوان هو اكبر مشروع مصري منذ إنشاء الأهرامات الفرعونية. كان يعبّر عن إرادة قوية في تحدي الكولونيالية. بلغت تكاليفه 450 مليون جنيه مصري. تم استرداد الكلفة خلال عامين ذلك انه في العام الواحد يمكن حساب 140 مليون جنيه من الانتاج الزراعي و 100 مليون جنيه من الطاقة الكهربائية. 10 ملايين كلفة التوفير من الفيضانات. و5 ملايين توفير ناجم عن كلفة تحسين الملاحة في النيل. لقد برهنت الثمانينات عن أهمية السد بالنسبة لمصيرالاقتصاد المصري فقد اجتازت مصر 9 سنوات جفاف خلفت كوارث في السودان التي لا تملك سدا مشابها. صحيح ان السد حرم مصر من ما قيمته 7 مليون دولارا سنويا من سمك السردين الذي هرب من المنطقة بعد إقامة السد لكن ذلك أدى أيضاً إلى تطوير الصيد البحري المصري في الأعماق وبالتالي إضافة مصادر سمكية أخرى إلى جانب السردين ناهيك عن أن بحيرة ناصر تنتج 2000 طن من السمك سنويا. يبلغ إنتاج الطاقة الكهربائية من السد 9 مليون كيلوات في الساعة و30 بالمئة من الطاقة تستهلك في مصانع الأسمدة. "إن سد أسوان هو العمود الفقري للبحبوحة الزراعية والصناعية والاجتماعية الاقتصادية في مصر. لقد تحققت أهداف السد في مجال إنتاج الطاقة الكهربائية وتوفير المياه لري الأراضي الزراعية المستصلحة والقديمة، في تنويع المحاصيل، في حماية البلاد من الفيضانات والشح المائي، في السياحة في الصيد في البحيرة في تحسين الملاحة، في خلق فرص عمل وفي تأهيل جيل جديد من المهندسين ومن التقنيين والعمال المؤهلين. وفي المحصلة العامة زيادة الدخل الوطني". نقلا عن موقع: www.enpc.fr

(5) التعبير للكاتبة المصرية فريدة النقاش.

يونيو 1967 واستقالة الريس والقوا اللوم على الناصرية جراء سوء إدارتها للصراع مع إسرائيل دون أن يتنكروا لها وهم يشكلون الأكثرية الساحقة من المصريين والعرب.

بين غضب المحبين وغضب المتضررين تجتمع المآخذ المتداولة على الناصرية في الخطوط العامة التالية:

أ. ناصر "هتلر" العرب. أسس حكما ديكتاتوريا. كان مأخوذا بمنهج عبادة الفرد. ساد الحزب الواحد في عهده ومنعت التعددية الحزبية. افتقر عهده إلى الديموقراطية.

ب. انتهكت في عهده حقوق الإنسان على نطاق واسع. امتلأت السجون بالمعتقلين وساد التعذيب. انتهكت حرية التعبير. سادت البروباغاندة ومثالها الساطع احمد سعيد.

ج. غلب السياسة العربية على السياسة الداخلية المصرية. بدد مصادر البلد في ثورة اليمن. حشر مصر في صراعات خارجية باهظة الكلفة.

د. هزم في حرب حزيران – يونيو عام 1967 ومازال العرب يعانون حتى اليوم من أثار الهزيمة.

ه. انتشر في عهده الفساد وتفشت المحسوبية وانتشرت البيروقراطية.

و. اخفق في بناء مؤسسات عصرية.

ز. اعتمد نظاما اشتراكيا مركزيا وكان ممثلا أمينا للطبقة البرجوازية الصغيرة.

تبدو هذه الاتهامات صحيحة أو خاطئة بحسب زاوية ومقاييس النظر إليها. فالقول أنه "هتلر" العرب يستند إلى معيار غربي وقد استخدم هذا الوصف في فترات الصراع بين الناصرية والدول الغربية الاستعمارية وإسرائيل لتعبئة الرأي العام في هذه البلدان ولتذكير اليهود بالمحرقة والإيحاء أن ناصر يحمل لليهود مصيرا مشابها لذلك الذي حمله لهم هتلر في الحرب العالمية الثانية. وكان الغربيون يؤكدون لشعوبهم أن عدوانية ناصر وتوسعه وتهديده لأنصار الغرب في العالم العربي شبيه بعدوانية هتلر وتوسعه وتهديده للدول الأوروبية وقد اعترف بعض الساسة الغربيين بهذه الخدعة في فترة متأخرة من حياتهم (راجع حرب السويس في ركن آخر من

هـــذا الكتاب). ويلاحظ أن وصف "هتلر العرب" أطلق على كل الزعماء الذين واجهـــوا الغـــرب ومن بينهم صدام حسين وفيديل كاسترو ومعمر القذافي وياسر عـــرفات وحافظ الأسد وأخيرا السيد حسن نصرالله. والحق أن العرب لم يكرروا هذا الوصف في أدبياتهم السياسية ضد ناصر والناصرية فظل محصوراً ولبعض الوقت بعـــدد من خصوم الرئيس المصري الغربيين، ويمكن القول عموماً أن هذا الوصف تلاشـــى تمامـــاً ومـــا عاد احد في الغرب يستخدمه في معرض الحديث عن ناصر والناصرية، في حين أن النازية ماانفكت بعد سقوط نظامها في الحرب العالمية الثانية حاضرة في الغرب كإيديولوجية عنصرية تستوجب المكافحة والشجب.

وإذا كان نقاد ناصر العرب قد تجنبوا نعته بالهتلرية فان كثيرين منهم لم يبخلوا عليه وما زالوا بنعت "الديكتاتور" وما يتبع من أوصاف مكملة حول "نظام الحزب الواحد" وانتشار "عبادة الفرد" وحظر التعددية الحزبية والتنكر للديموقراطية وانتشار الفساد والبيروقراطية وانتهاك حقوق الإنسان وتقييد حرية التعبير. تبدو هذه المآخذ فظيعة بالقياس إلى نمط الحياة السائد اليوم في الدول الغربية الغنية لكنها سرعان ما تفقد هولها إذا ما نظرنا إليها من الزوايا التالية:

أولاً: الـــصراع العربي الإسرائيلي. من المعروف انه منذ نشوء إسرائيل وحتى اليوم ما زالت الدول الغربية تنظر إلى كل من يقاوم هذه الدولة نظرة عداء وتصف زعمـــاء المقاومـــة باوصاف شنيعة (دكتاتور. متسلط. مستبد. ارهابي. ظلامي. متطرف. أصولي.. الخ) دون الوقوف عند المشاعر والحقوق العربية ودون حساب المخاطـــر التي يتحملها العرب جراء المشروع الصهيوني. والظاهر أن الغرب يريد اعتـــراف العـــرب باسرائيل كأية دولة من دول المنطقة هذا إن لم يطمح لتنصيبها زعـــيمة على الشرق الأوسط ولعل هذا ما يفسر جانبا اساسيا من جوانب الهوس العدائـــي الغـــربي لناصـــر والناصرية التي رفضت الخضوع للاملاء الغربي في هذه القضية.

لنتخيل أن دولة غريبة تماماً عن أوروبا نشأت في وسط القارة الأوروبية فهل يمكن لأوروبا أن تتصرف إزاءها وكأنها غير موجودة؟ يصعب ذلك بالطبع فكيف إذا كـــان نـــشوء هذه الدولة قد تسبب بتشتيت شعب بكامله في محيطها. شعب

يرتبط بتاريخ مشترك مع هذا المحيط ويتحدث لغته ويعتنق دينه ثم إن الدولة العبرية رفعــت مــنذ قيامها شعارا توسعيا بحدود توراتية تمتد من الفرات إلى النيل. فكان قيامها بصيغتها الصغرى دليلا على قيامها الموعود بصيغتها الكبرى وبالتالي مصدر خوف مصيري لمحيطها ناهيك عن أن وجود هذه الدولة كان وما زال محل أجماع ودعــم من سادة العالم. ويرتبط وجودها بشروط تدفق النفط العربي إلى الأسواق العالمية ومن بين هذه الشروط سيادة نظام سياسي عربي مطمئن للغرب وتلعب فيه إسرائيل دوراً رادعا وأداة إخضاع دائمة لمحيطها. لقد تزامن نشوء النظام الناصري إلى حـــد ما مع اعلان دولة إسرائيل وكان عليه أن يعيش معها حال حرب، وان ينفق موارده على هذه الحرب وان يوفر شروطا عربية رادعة لإقامة الدولة التوراتية من الفرات إلى النيل فضلاً عن إعادة الفلسطينيين إلى أرضهم. هل يطلب من دولة تعــيش حـــال حرب دائمة مع إسرائيل ومع الإمبراطوريات الاستعمارية وفي ظل الحرب الباردة أن تتصرف ككوريا الجنوبية أو اندونيسيا أو ماليزيا أو غيرها من الدول الـــتي لا تتعـــرض لـــتهديد مصيري؟ثمة من يقول أنه كان على مصر ان تخضع كما خضعت من بعد لكن الخضوع لم يكن خليقا بزعيم ثوري كجمال عبد الناصر.

لقد عاشت مصر طيلة السنوات الناصرية حالة حرب فعلية مع إسرائيل ومع التيارات السياسية العربية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحلفاء إسرائيل الغربيين، ناهيك عن الاســتعمار القـــديم الـــذي كان يمكث على صدور العرب هنا وهناك بين المحيط والخليج وكان من الطبيعي أن يترتب عن هذا الصراع كلفة كبيرة داخل مصر على كـــل صعيد وأن يدفع معارضو الاستراتيجية الناصرية والمعادين لها ثمنا باهظا على الـــصعيدين المعـــنوي والمادي وبالتالي أن ينضموا جراء ذلك إلى خصوم الناصرية الغـــربيين مباشرة او يتبنوا خطابهم المناهض لها بصورة غير مباشرة. إن كل تقييم للناصرية خارج هذا الاطار ينم عن رغبة في اصدار احكام مسبقة على جمال عبد الناصر والانتقام منه بعد وفاته.

ثانياً: لقد حملت الثورة المصرية مشروعا تغييريا وكان عليها أن تخلف وراءها متضررين كثر أبرزهم حكام مصر السابقين وكامل البيئة الاجتماعية التي تشكلت حـــولهم من جهة ومنافسي الناصرية الإيديولوجيين من جهة أخرى. إن انتهاكات

حقـوق الإنـسان قد طالت بالفعل هذه الفئات، فقد التقى في السجن الناصري محمود أمين العالم الماركسي ومصطفى أمين الليبرالي وسيد قطب الإخواني. ما من شـك إن كلفة المشروع الناصري في حقوق الإنسان كانت كبيرة لناحية التعذيب في الـسجون والاعتقالات الكيفية وإخضاع المعارضين للمراقبة والمتابعة المخابراتية وحـرمانهم مـن التعـبير الحـر وسيادة الإعلام التعبوي الذي يستدل اليوم عليه بالصحافي المعروف احمد سعيد.

لكـن لـو تأملنا قليلا في حجم ونوع الكلفة الأخلاقية للمشروع الناصري والأكـلاف الأخلاقية لمشاريع التغيير في العالم المتقدم نلاحظ أن الناصرية كانت شديدة الاعتدال بالقياس إلى هذه المشاريع. لقد كلف انتقال فرنسا من الملكية إلى الجمهورية مئات الآلاف من القتلى والدمار والحروب، وكذا الأمر في ألمانيا حتى لا نـتحدث عن دول العالم الثالث الشبيهة بمصر. لكن إذا عدنا إلى القواعد الحقوقية والـسياسية والاخلاقـية المعتمدة في مصر والغرب خلال الفترة الناصرية نرى أن الإعلام الموجه والمراقب كان قائما على قدم وساق في فرنسا خلال الفترة الديغولية وكـذا الأمـر بالنسبة للرقابة والدعاية وما شابه ذلك. وفي المجابهات كان الإعلام الغربي الديموقراطي يتحول إلى سلاح في المعركة أي إلى إعلام موجه، وكانت حرية التعـبير والإبـداع تخـضع للرقابة والتحكم بدليل أن الكثير من الكتب والأفلام الـسينمائية المعترضـة على حرب الجزائر أو التي تحاول النظر إلى هذه الحرب بما يخالـف وجهة النظر الرسمية كان يحجر عليها وبعض هذه الأعمال أفرج عنها منذ عـامين فقط علما بان ثورة 1968 الطلابية في فرنسا كانت تنادي بتوسيع حرية التعـبير التي لم تتوسع فعلاً إلا في عهد فرنسوا ميتران في الثمانينات. طبعاً يجب ألا ننـسى التزامن بين ظهور الناصرية وانتشار المكارثية في الولايات المتحدة الأميركية فقـد اعـتمد الـسناتور جون مكارثي منهج محاكم التفتيش في ملاحقة اليسار والـشيوعيين في بـلاده ولا أظن أن هذا المنهج اتبع في مصر ولم يتعرض اليسار المـصري لعملـيات فحص دم سياسي وايديولوجي كتلك التي تعرض لها نظيره الأميركـي. يبقى أن الظلم الناصري لم يصل إلى حد رمي المعارضين في مياه النيل كمـا هي الحال مع رمي الجزائريين المعارضين لحرب الجزائر في مياه نهر السين في

فرنسا. وأخيرا لا بد من النظر إلى ظاهرة احمد سعيد بما يشبه اليوم ظاهرة السيد مردوخ صاحب فوكس نيوز الذي يستخدم مجموعته الاعلامية كسلاح في حرب العراق طبعاً مع فارق الظروف والتجربة وعمقها التاريخي.

والجدير ذكره أن قواعد قياس حقوق الإنسان لم تكن في الظروف التي انبثقت في ظلها الناصرية شبيهة بالقواعد المعمول بها اليوم هذا إذا أردنا الحديث عن الغرب حصراً، أما ما يعرف بالعالم الثالث فكان ابعد ما يكون عن التقدم المصري في هذا المجال وفي غيره. وإذا كان صحيحا أن عهد عبد الناصر لم يكن ديموقراطيا بالمفهوم الغربي الحالي للديموقراطية فان الخيار الاشتراكي الناصري بما في ذلك مشروع الحزب الواحد المركزي كان جزءا لا يتجزأ من مشروع التغيير وبالتالي كان من الصعب على الناصرية أن تكون مشروعا تغييرا ديموقراطيا واشتراكيا ومركزيا في الآن معاً. لقد تبين من بعد إن الاشتراكية والمركزية اختيارات غير فاعلة لكنها في حينه كانت ردا مناسبا على النظام الملكي الفاسد والمهان داخلياً وخارجياً ما يعني مرة أخرى ان تقييم التجربة الناصرية كان وما زال يتطلب وضعها في الظروف المصرية والعالمية السائدة في حينه ومن الظلم محاكمتها في ضوء تجارب وظروف ومقاييس مختلفة.

ثالثاً:لقد انتشر الفساد وعرفت المحسوبية وانتشرت البيروقراطية وسوء الإدارة في العهد الناصري وهذا كله صحيح، لكن هل تخلو اليوم دولة واحدة من الفساد والبيروقراطية والمحسوبية في العالم كله. ما من شك إن وجود هذه الظواهر في الدول الأخرى لا يبرر وجودها في مصر لكن أيضاً لا يمكن محاسبة الناصرية على هذه الظواهر وكأنها حكر عليها خصوصاً أن نقاد الناصرية الساداتيين المتشددين برهنوا خلال سيادتهم مراكز القرار في مصر عن تعلّق مرضّي بالفساد لا بل جعلوا الفساد نظام حكم بالتمام والكمال.

رابعاً: تحدثت عن هزيمة حزيران وعن غزو السويس في مكان آخر من هذا الكتاب واكتفي هنا بالتذكير مجددا ان الهزيمة الثانية تحولت إلى نصر سياسي مدو والحروب ترهن عادة بنتائجها السياسية وليس بوقائعها العسكرية فحسب. الحرب ليست ماتش ملاكمة ينتهي بالنقاط او بالضربة القاضية بل ناجمة عن نزاع

سياسي تعذر حله بوسائل سلمية ما يعني أن النصر السياسي يلغي كل مفاعيل الحرب ويجعلها وكأنها لم تكن أصلا مع التذكير أن هزيمة ناصر في السويس وحتى في حزيران هي هزيمة نظام حديث التكوين كان يسعى منذ نشأته إلى تغيير مصري شامل داخليا وعربيا ودوليا بوسائل محدودة وفي ظل ظروف ضاغطة وبمواجهةعدو استراتيجي على الحدود مجهز ومدعوم من قوى العالم العظمى.

خامساً: إن اختيار عبد الناصر لسياسة خارجية عربية هجومية كان ينطلق من نظرة ثاقبة لدور مصر الاستراتيجي في المحيط وكان يهدف إلى رفع شان الأمة العربية وتخليصها من العبودية والاستعمار والذل الذي ضربها لقرون طويلة وفي ظني أن هذه السياسة كانت مفيدة لمصر وللعرب في الآن معاً. ذلك أن انكفاء مصر كما هو واقع اليوم ضاعف من مشاكلها الداخلية وحمل إليها مشاكل الجوار لتنكسر عزلتها الذاتية التي تمت في عهد الرئيس الراحل أنور السادات. إن تجارب التاريخ تشير بوضوح إلى أنه اذا لم تردع الخارج فانه سيطرق بابك وهو ما يحصل في مصر اليوم.

سادساً: إن التحليل الطبقي للناصرية وحصرها بالبرجوازية الصغيرة بات ينتمي إلى إرث ايديولوجي فقد عموماً قيمته و لم يعد مفيدا في تفسير وتحليل الوقائع السياسية العربية ما يعني أن التقييم الماركسي للناصرية يحتاج إلى اعادة نظر جدية من طرف الماركسيين العرب الاصلاحيين الذين راجعوا باخلاص تجاربهم السابقة دون ان يلتفتوا إلى ضرورة أن تشمل هذه المراجعة مواقفهم السلبية من الناصرية فضلاً عن أن نقاد الناصرية الماركسيين كانوا يأخذون عليها تمثيلها للبرجوازية الصغيرة من موقع هو نفسه بورجوازي صغير. عندما ننظر اليوم إلى حكم سياسي ماركسي من نوع أن البورجوازية الصغيرة الناصرية سقطت في هزيمة حزيران - يونيو عام 1967 وأن نظام الطبقة العاملة وحده قادر على خوض مجابهة مظفرة في الصراع العربي الاسرائيلي فإن هذا الحكم يبدو مضحكا ليس لأن البورجوازية الصغيرة ما زالت في مكانها بعد عقود على اعلان سقوطها، بل لأن البورجوازية الصغيرة الموصوفة تخوض مجابهات ناجحة ضد اسرائيل في جنوب لبنان وفلسطين والعراق بل ربما ندين لها بأول انتصار جدي في الصراع العربي

الاسرائيلي. لقد اطلقت المعارضة الماركسية النار على الناصرية قبل وفاة عبد الناصر وبعـد وفاته فساهمت من حيث لا تريد في صعود الراسمالية الطفيلية والمتوحشة إلى سدة الحكم في مصر مبرهنة عن بؤس مدقع في النظر والتحليل والاختيار السياسي. نعـم ينتمي هذا البؤس إلى الماضي فهل يصفه أصحابه أو من تبقى منهم على قيد الحياة؟ لقد فعلت فريدة النقاش ويا حبذا لو يفعل صادق جلال العظم وأحمد فؤاد نجم وآخرون. لكن ما قيمة الناصرية فعلاً.

قيمة الناصرية

يجمـع نقـاد الناصرية عن حق ان "الريس" لم يخلف من بعده حزبا جديرا بالتعبير الحصري عنه وعن تجربته. لذا يلاحظ أن الاحزاب الناصرية في العالم العربي مـتعددة ومتبايـنة واحيانا تتنازع إرث الرجل وقد أخفقت خلال اكثر من ثلاثة عقـود في تجاوز انقساماتها وحساسيتها المحلية والقطرية وبالتالي الاتفاق على صيغة توحـيدية تـنم عـن احتـرام اقله معنوي لسيرة "الريس". ربما تكون المحدودية الايديولوجـية التي ميزت الناصرية مسؤولة جزئيا عن تشتت ناصريي هذه الايام لكـن المحدودية نفسها تضفي جاذبية على الناصرية كحركة تحرر ذات أفق مفتوح على الافادة من التجارب السياسية المختلفة.

ينطوي "فلسفة الثورة" كتاب عبد الناصر الاساسي على عناوين واختيارات سياسية عامة. انه اشبه بـ "البيان الشيوعي" لكارل ماركس وفردريك انجلس من دون الجهاز الايديولوجي المتكامل للماركسية وبالتالي يصعب أن تبنى عليه وحده امـية عـربية وإفـريقية وإسـلامية أو عالمية. بالمقابل يتيح الكتاب كما مواقف وسياسـات جمـال عـبد الناصـر المتصلة بالهوية والوحدة العربية والنضال ضد الاستعمار والحركة الصهيونية والدعوة للنظام العالمي العادل. كل ذلك يتيح انتماء عريـضا لارث عـبد الناصر يتعدى الاطر الحزبية إلى فئات واسعة من العرب بين المحـيط والخلـيج. بهـذا المعنى تشبه الناصرية في العالم العربي الديغولية في فرنسا والبولـيفارية في أميركـا اللاتينـية والاتاتوركية في تركيا والبيرونية في الارجنتين والغاندية في الهند.. الخ.

لم تتــرهل العديد من الاختيارات السياسية الناصرية خصوصاً ما يتصل منها بالهــوية والــوحدة والــسيطرة على الموارد العربية وبناء فضاء سياسي متضامن ومواجهة التسلط الدولي والحركة الصهيونية وثقافة الممانعة.. الخ. هذه الاختيارات كانت وما زالت وستبقى صالحة ما يعني ان ما صنعه عبد الناصر ينطوي على قيمة تبادلــية راســخة يصح معها القول ان العربي كان او هو اليوم او سيكون يوماً ما ناصريا[6].

(6) استعير هذا الوصف من شائع القول عن الديغولية في فرنسا.

موت الريس
هل يؤذن بنهاية الناصرية؟

بقلم: مكسيم رودنسون

الناصـــرية كما عرفت نفسها تدريجيا في السياسة رفضت في الآن معاً الثورة الاجتماعية والأصولية البالية الرجعية التي تزعم البحث عن حلول لعدد من مشاكل اليوم من خلال العودة إلى زمن الخلفاء الراشدين المجيد. وعلينا أن نتذكر دائماً إن ناصر علق الزعماء الايديولوجيين للأخوان المسلمين على المشانق بعد محاولة اغتيال كـــادت تـــودي بحياته وكان يقول: " لم أفهم إطلاقا كيف يمكن ممارسة الحكم بالاستناد إلى القرآن حصرا".

والناصرية المحصورة بين اليمين واليسار والمقتصرة على الخيارات التي رفضتها، كانـــت مضطرة لإيكال قيادة الحركة إلى "نخبة" بيروقراطية وعسكرية. كان ناصر يـــدرك نقـــاط ضعف هذه الطبقة. لذا بذل بعض الجهود من أجل ترفيع كادرات وافدة من الفئات الشعبية. ولكن تركيب النظام (الناصري) كان يتعارض مع نجاح هـــذه الجهـــود إذ لم يكن بوسع ناصر أن يغضب كثيراً الكادرات التي كانت في متناول يده في تلك اللحظة. وفي أفضل الحالات كان يسعى للتحضير للمستقبل.

الخيار الراديكالي لمناهضة الإمبريالية

عـــدا الـــتحالفات الخارجية التي كان يجيد اللعب بها كالمايسترو والتي كان مـــستعدا لتغييرها في كل لحظة فان ناصر كان يتمسك في عدائه للإمبريالية بخيار راديكالي. على الأقل بدا هذا الخيار راديكاليا حتى آخر عهده. ولكن لنفسر قليلا معنى كلمة الإمبريالية التي استخدامها بإفراط.

مـــن الواضـــح أن تجربة ناصر جعلته حساسا للغاية إزاء تهديدات الإمبريالية الـــرأسمالية لاستقلال بلده. في حين كانت الإمبريالية الاشتراكية أدنى طموحا اقله حيـــنذاك. بمعـــنى آخر كان بالإمكان ضبط مؤثرات هذه الإمبريالية الخاضعة تماماً

للسلطة السياسية والحد منها بل التخلص منها عموماً عبر اللجوء إلى أعدائها. علما أن هذه الإمبريالية لم تكن شديدة الانشغال بتقدم العالم الثالث لكنها على الأقل لم تـضع في دربه أية عقبات. بالمقابل كان الخضوع للإمبريالية الاقتصادية اشد خطرا ذلـك انه ما أن تثبت آلياتها في مكان ما حتى يصعب السيطرة عليها ولو بواسطة السلطة السياسية التي ترتبط بها من حيث المبدأ المصالح المعنية. فالآلية العمياء لحواجزها المختلفة ترمي إلى الحفاظ على التخلف والتبعية بل على مضاعفتها. عموماً تلك هي صورة انتظام الأشياء التي ارتسمت في قسم كبير من العالم الثالث حينذاك والتي لم تكن تعدم بعض المصداقية.

في الواقـع كانت راديكالية الناصرية في نضالها ضد الإمبريالية محدودة، ومع ذلـك كانـت تثير حماس العالم العربي وتنقل الحماس نفسه إلى شرائح وجماعات العـالم الثالث المشابهة لتلك التي خلقتها في مصر. وفي هذا السياق جرى الحديث عن اتجاهات ناصرية في تركيا وفي أميركا الجنوبية. لقد وصلت هذه الراديكالية إلى حد التحالف مع الاتحاد السوفيتي ضد الهيمنة الأميركية وإلى حد إنشاء آليات وبنى اقتصادية تابعة للدولة للخلاص من التبعية التي كانت تشجعها الليبرالية على الصعيد العالمي.

كـثيرون تمنوا الموت لجمال عبد الناصر:عملاء أميركيون وإسرائيليون وأقدام سـود[7] واشتراكيون[8] وجنرالات فرنسيون[9] وأخوان مسلمون وكثيرين غيرهم ممـن سيكشف عنهم التاريخ، وأنا متأكد إن البعض منهم – بما في ذلك الإخوان

(7) الأقـدام السود هم الفرنسيون والأوروبيون الذي استعمروا الجزائر وبعضهم ولد فيها منذ العام 1830 وكانـوا يعتـبرونها أرضا فرنسية وقد اضطروا لمغادرة الجزائر بعد استقلالها عام 1962 ويعتبرون أن جمال عبد الناصر يتحمل مسؤولية أساسية عما أصابهم.

(8) خاض جمال عبد الناصر معارك طاحنة مع فرنسا التي كان يحكمها الاشتراكيون. فقد تسبب في انهـيار الجمهورية الرابعة الفرنسية الاشتراكية بعد غزو قناة السويس الفاشل وتسبب بإضعاف الاشـتراكيين في بـاريس عـبر دعم الثورة الجزائرية وكان بمثابة كابوس حقيقي لهؤلاء الذين اضـطروا للطلب من خصمهم شارل ديغول تسلم الحكم لإنقاذ فرنسا من ورطتها الممتدة من السويس إلى جبال الجزائر والمغرب العربي الكبير بفعل التدخل الناصري.

(9) المقصود بالجنرالات الذين هزموا في السويس وفي الجزائر وكانوا يحتفظون بحقد مرضي على جمال عبد الناصر ومن بينهم الجنرال جاك ماسو والجنرال سالان والجنرال بيجار وغيرهم.

المسلمين على الرغم من أن القران لا يسمح لهم بذلك - يرفعون أنخاب الشمبانيا هذا المساء. كثيرون منهم لم يفهموا إن قتل عبد الناصر لا يعني قتل الناصرية. ذلك أن عبد الناصر إن كان مكروها فلأنه يجسد أحلام شعبه.

وبخــلاف الاعــتقاد السائد فيما يخص النضال ضد إسرائيل لم يكن لدى أية حكومة عربية القدرة على تحاشي الصراع و لم يفعل ناصر سوى الانخراط في التيار محاولا في كل مرحلة فرملة نفاد الصبر وتحجيم التهور لدى العامة. لكن هل ماتت الناصــرية نفسها أيضاً مع ناصر؟ المستقبل وحده يحمل لنا الجواب. بالانتظار لعل "الــرجعيين" ســيندمون سريعا على موت لطالما تمنوه لهذا الرجل. ولكن ماذا عن الثوريين؟ هل ستكون الثورة الراديكالية بديلهم الممكن للناصرية؟ هل العالم العربي ناضــج للثورة الراديكالية؟ وهل تسمح القوى العظمى بقيامها في هذا العالم حيث الفعل ليس توأما للحلم.

لوموند في 30 سبتمبر - أيلول 1970

خاتمة

لا يستحق العرب المصير الذي وقفنا على بعض وجوهه في هذا الكتاب فهم يحـــتفظون بكل العناصر والمقومات والشروط التي تتيح نهوضاً مدوياً وموقعاً عالمياً جديـــراً بالتقديـــر. فـــتاريخهم الطويل ومشاركاتهم الأساسية في الحضارة العالمية وانجـــازاتهم التأسيسة في علومها وتقدمها ورقيها ودينهم المتسامح وتجاربهم الطويلة في الـــدمج والانـــدماج وانفـــتاجهم علـــى الثقافات العالمية ناهيك عن مواقعهم الاستراتيجية وثرواتهم البشرية والمادية كل ذلك يؤهلهم لاحتلال مكانة مرموقة بين الأمم.

ولـــئن أخفـــق العرب في احتلال المكانة التي يستحقونها فهذا من أثر ثقافتهم الـــسياسية البائسة التي حاولت في هذا الكتاب أن أطرح عليها الكثير من الاسئلة والقلـــيل من الاجوبة راجيا أن يساهم هذا الجهد في إثارة قدر جدي من التفكير المـــصيري شحذ الارادة الجمعية والمشاركة مجددا في هموم نهضوية حملها باخلاص عرب مميزون خلال الالفية الثانية من ابن رشد حتى شكيب ارسلان.

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مِصْر بِعُيون الفَرَنْسِيس

فَيْصَل جَلّول

• كاتب من لبنان

تفيد وقائع الغزوات التي تعرض لها العالم العربي خلال تاريخه الطويل أن الغزاة كانوا يأتون إلى منطقتنا بدوافع «نبيلة» في ظاهرها إلى أن يستقر بهم المقام فيسعون إلى أهدافهم الحقيقية من وراء الغزو وهي في الغالب اقتصادية أو دينية أو جيوستراتيجية أو مختلطة. في غزوه لمصر كان نابليون بونابرت يرغب في خلق مستعمرة على مقربة من بلاده بعد خسارة فرنسا لمستعمراتها الأمريكية وكان يخطط لقطع طريق الهند على الإمبراطورية البريطانية وبعد أن فشل في تحقيق هذا الغرض اخترع شعار «تحديث» مصر و «تحريرها» من المماليك علّه يتمكن من البقاء في ارض الكنانة.

وفي الجزائر قال الفرنسيون لحظة احتلال العاصمة أنهم جاءوا لتخليص السكان من عسف «البايات» حكام البلاد المحليين وأنهم يسعون إلى تحديث هذا البلد و سيغادرون في شهور معدودة فكان أن استوطنوا الجزائر 130 عاما واعتبروها مقاطعة فرنسية.

وفي تاريخ قريب ادعى الصهاينة أنهم جاءوا إلى فلسطين من اجل زرع التقدم وتوفير الخدمات الطبية والتربوية للفلسطينيين غير أنهم التهموا أراضي أبناء البلد الأصليين وأقاموا دولتهم العنصرية عليها.

وادعى البريطانيون أنهم سيقيمون دولة عربية متحدة إذا ما انضم العرب إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى فكان أن ضاعت فلسطين جراء وعد بلفور وتشرذم العالم العربي بفعل اتفاقية سايكس - بيكو الشهيرة ومازال على حاله حتى اللحظة. واليوم تقول الولايات المتحدة الأمريكية أنها احتلت العراق من أجل نشر «الديموقراطية» في حين نراها بأم العين تهدم هذا البلد بحجره وبشره.

كان الضعف العربي وما زال يغري المستعمرين ويستدرج المهيمنين إلى منطقتنا. والضعف لا يختزل بنقص التسلح ومحدودية المقاومة وإنما بنوع الثقافة السياسية التي سادت وتسود بلداننا. ذلك أن السيطرة تدوم في العقو[illegible] [illegible]قوة العسكرية فالغالب يبحث دائماً عن إقناع المغلوب بعدم جد[illegible] [illegible]عليه بأرخص الأثمان أي برضى المغلوب نفسه.

من مظاهر الضعف في ثقافتنا السياسية أننا مازلنا نلط[illegible] [illegible]يمة حزيران - يونيو 67 ونعلق ما صنعناه وما لم نصنعه منذ [illegible] [illegible]ة في حين أن اليابانيين والألمان خسروا حرباً عالمية دون أن يخس[illegible] [illegible]لها يحتلون مقاعد أمامية بين سادة الاقتصاد والتقدم العالمي.

[illegible]لف

ISBN 9953-87-039-X

9789953870397

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب - القاهرة
هاتف: 5756421 - فاكس: 5752854
البريد الإلكتروني: info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb